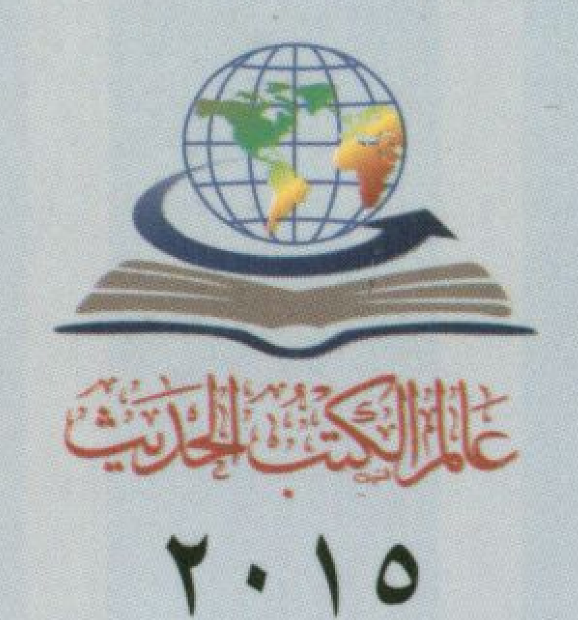
تأملات

في الشعر المعاصر

الأستاذ الدكتور

مسعد بن عيد العطوي

استاذ الدراسات العليا بجامعة تبوك



٢٠١٥

تأملات

في الشعر المعاصر

الأستاذ الدكتور

مسعد بن عيد العطوي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة تبوك

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2015

(ح) مسعد بن عيد العطوي، 1435هـ
فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر
العطوي، مسعد عيد
تأملات في الشعر المعاصر / مسعد عيد العطوي – تبوك 1435 هـ
267ص، 1 سم

ردمك: 978-603-01-5539-2

1- الشعر العربي – نقد – العصر الحديث أ. العنوان
ديوي 811.9009 1435/5948

رقم الايداع: 5948/1435
ردمك: 978-603-01-5539-2

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع
إربد- شارع الجامعة
تلفون: (27272272- 00962) خلوي: 0785459343
فاكس: 27269909- 00962
صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)
E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
www.almalkotob.com

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع
الأردن- العبدلي- تلفون: 5264363/ 079

مكتب بيروت

روضة الغدير- بناية بزي- هاتف: 00961 1 471357
فاكس: 00961 1 475905

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله، خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وخالق البشر بتكوينه العظيم، رب الأكوان، الواحد القهار، كل شيء في الوجود هالك إلا هو، فالعالم بسماواته وأراضيه يدور في تلاقٍ وتعانق، وتبادل منافع، وكلّ إلى ربّه راجع، في كبائر الأمور وصغائرها.

ونصلي ونسلم على رسل الله وأنبيائه، وعلى المصطفي محمد صلى الله عليه وسلم. رسول الهداية والاستقامة، ورائد الفكر والعمران الإنساني والكوني والمعرفي، الذي حمل إلى البشرية الحائرة آفاق الخير في شتى مناحي الحياة.

فإن الشعر هو ديوان العالم بأسره، وليس ديوان العرب وحدهم، يرصد تاريخ الأمم والشعوب عبر الأزمان والأحقاب، ويحكي آمالها وتطلعاتها عبر مسيرة الحياة الممتدة، وهو كنز لا ينضب من الأفكار والرؤى، والقضايا المتجذرة في أعماق الكون وأعماق الإنسان في مراحل تطوره، وظهور حضاراته، وأطوار تفاعله الاجتماعي في الحياة عموماً.

لقد ارتبط الشعر منذ بداياته بتصوير معاناة الإنسان، والتعبير عن مكنونات وجدانه، والكشف عن مستور خلجاته، والبحث في المجهول، ورصد ما يعنّ له من أفكار ورؤى إزاء ذاته في معاناتها مع الحياة، وإزاء ذاته فيما يتسنى لها من خبرات، وما يتفتح لها من آفاق أرحب للمعرفة الإنسانية.

والشاعر المبدع صاحب البصيرة الثاقبة، والفكر النافذ، والشعور الدافق المرهف يكون مهندساً للقضايا الإنسانية المصيرية، يبث المشاعر الصادقة، ويُجلي المستور، ويكشف

المجهول، ويميط اللثام عن مناطق الضوء والعتمة في أعماق الحياة، ويحلق في فضاءات لغته وتراكيبه مغرداً للقيم السامية، داعياً إلى الفضائل، قارعاً نواقيس الخطر والإنذار عند مواطن الانحراف، ومواضع القبح، وأماكن التيه والحيرة، ويستشرف مستقبل الحياة من خلال قراءة واعية لمعطيات الواقع.

وفي الشعر العربي جمال وعذوبة، ولكنه أيضاً ينطوي على عيوب نسقية في الشكل تارة، وفي المضمون تارة أخرى، الأمر الذي دعا إلى ضرورة وجود اتجاه فكري ناقد يبحث في تحليل النص الشعري، ويبرز مناطق الوهج والخفوت، ومواضع القوة والضعف في النص الشعري.

أما النقد ذاته فهو عمل أكاديمي يقوم على فكر داخلي للمتلقي، يعتمد على مكوناته الذهنية والثقافية والاجتماعية، وعلاقته بالشعر علاقة بعدية وليست قبلية، غير أن ثمة قضية كبرى تجعل الناقد أكثر سلطة من المبدع، فالمبدع يفيض بمكوناته الوجدانية والفكرية في شعره، ثم ينتهي دوره، ويبقى شعره من بعده ميداناً خصيباً لعدد من النقاد في مختلف العصور، يبحث بعضهم في المكونات اللغوية، ويبحث بعضهم في التجربة الشعورية، وفريق آخر يبحث في الأخيلة والصور البلاغية. وكل ناقد له توجهه

الخاص ورؤيته المستقلة وكل له شرعة ومنهاج وقد قيض الله للشعر نقاداً كانوا أكثر موضوعية، وأعمق تبحراً، وأشد استنارة واعتدالاً، فجاءت دراساتهم النقدية نموذجاً للعمل النقدي المنصف، الذي يوظف اللغة لدلالاتها الأقرب موضوعية، حتى تصل إلى المتلقي ويستوعبها بغض النظر عن فكره وحظه من الثقافة والإدراك.

وقد رفع راية النقد جماعة من العلماء والفلاسفة والمفكرين، وضعوا له أسسه ومعاييره ونظرياته وقواعده، التي ما فتئت موضع تداول ومحاكاة في الدراسات النقدية المعاصرة.يسير بمقتضاها كثير من نقاد العصر، ويهتدي بإشعاعاتها جمهرة النقاد في أعمالهم النقدية.

ومن بين النظريات النقدية القديمة التي تأثر بها نقاد العصر نظرية أفلاطون في المحاكاة، وهيمنة المعتقد عليها، ونظرتها للكون، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وقد رأى العلماء

أن نقده يقوم على ترسيخ الفكرة الإلهيـة، وعلـى النظـرة الواقعيـة للأشـياء، وعلـى ضـرورة تصوير تلك الأشياء في الشعر.

وكذلك نظرية أرسطو التي تقوم على التوصيف واكتشاف الكون من خـلال الـشعر، حتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في طرحه رأيه في شعر زهير بـن ابـي سـلمى ناقـداً منهجياً منصفا.

على أن الأدب العربي قد شهد في مسيرته المتواصلة أعلاما من النقاد العرب، بـرزوا في فن النقد المنهجي العلمي، ووضعوا قواعد معيارية سبقوا بهـا النظريـات الغربيـة النقديـة الحديثة، إلى الحد الذي جعل بعض الدارسـين المستـشرقين المنـصفين يـذهبون إلى أن النظريـة الغربية في النقد الحديث تمتد جذورها الأولى عند علمـاء العربيـة القـدامى، وأن نقـاد الغـرب لاشك قد تأثروا بابن قتيبة، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من علماء العرب القدامى.

غير أن مهنـة النقـد لا يمكـن أن تتـأتى بـسهولة لأي إنـسان، فالنقـد فـن لـه أسـسه وقواعده، ويستلزم ناقداً ذا همة وعزيمة، وموهبـة، وقـدرات خاصـة، وإدراك معـرفي وثقـافي هائل، وتمرس بالأساليب اللغوية واللسانية، والبلاغية، ودرايـة كاملـة بآليـات النقـد وأدواتـه ومناهجه، ثـم التجـرد مـن الهـوى، والقـدرة علـى إنتـاج أحكـام منـصفة لا تخـضع لأهـواء شخصية، أو مطامع ذاتية..!   ومن ثم كانت الحاجة ملحة إلى ناقـد عـدل منـصف، مثقـف ثقافة عالية.

على أني لا ازعم مطلقاً أنـي أمتلـك تلـك المكونـات، ولكـني أضـع خـواطري إزاء بعض الأعمال الشعرية المتميزة التي جادت بها قرائح الشعراء الـسعوديين مـن خـلال كتـابي المتواضع هذا، وهي في الواقع انطباعات ذاتية جاءت عفـو الخـاطر، ولكـني توخيـت الأمانـة والتجرد فيما عرضت له من أعمال شـعرية، وكنـت قـد نـشرت بعـضها في مراحـل تاريخيـة متفرقة من عمري في شكل مقالات أدبية، طالعهـا القـارئ الكـريم عـبر صـفحات الجرائـد السعودية.

وأخيرا... لقد حرصت على قراءة عدد كبير من قصيد الشعر العربي، وتوقفت عنـد بعضها، وكتبت دراسات عنها في مراحل متنوعة، وها أنا ذا أشرف بتقديم ذلـك الكتـاب إلى

القارئ العربي العزيز، أنموذجاً لمعايشتي الذاتية لبعض قصائد الشعر العربي الحديث، وأدعو الله أن يُيسر لي من أمري ما يعينني على مواصلة المسيرة في هذا الشأن؛ فهو زاد حياتي، كما أدعوه سبحانه أن أكون قد قدمت لقارئي فكراً راقياً، ورؤى بناءة، تُعينه على إدراك جماليات اللغة العربية الأصيلة، وقدراتها في وصف خلجات الخاطر وشوارد الفِكَر، وإعلاء شأو القيم الفاضلة والمثل العليا.

والله من وراء القصد

أ.د مسعد عيد العطوي
masd_300@hotmail.com
0505495623

المدخل

الأدب والفكر

إن توالد الفن بأشكاله المختلفة إنما هو وليد الأمم البشرية، واللغة أو النطق إنما هو خاصية بشرية. والله سبحانه وتعالى قد أوجد اللغة وهيأ لها من أسباب التطور والثراء ما جعلها تفيض بدلالات داخلية للفرد البشري.

وما مكونات الفرد البشري الفكرية والوجدانية، والسلوكية إلا وليدة التكوين الجمعي والاجتماعي، وما يقدح الأحاسيس والمشاعر، ويثير البنية الشعورية إلا الفكر بأشكاله الفلسفية أو الشعورية، ومن ثم يكون الثراء الفكري والدلالات الكثيفة.

والدارس الباحث الذي يمتلك قوام الدراسة النقدية التحليلية الجادة يستطيع كشف التاريخ الفلسفي، وتطور الفكر، وتأثر البشرية في رحلة حياتها الممتدة على البسيطة بالأديان السماوية والمذاهب الوضعية وذلك من خلال استقراء آداب الشعوب وفنونها؛ فالأدب الهندي سجل للفكر الهندي، والأدب الفارسي مرآة صادقة تعكس تطور الفكر الفارسي، بل إن أطروحات الشعر والأدب والنقد معاً تسجل تلاحم هاتين الحضارتين وتأثر كل منهما بقرينتها. كما أن الحصيلة الحضارية الفلسفية والفكرية والدينية مما تفتقت به قرائح علماء العرب المسلمين في قديم عهودهم وحاضر عصرهم لتعكس بصورة صادقة مراحل تطور الفكر العربي عموماً والإسلامي خصوصاً. وما أدب ابن سينا، وابن رشد، والفارابي، وقصة "حي بن يقظان" لإبن الطفيل إلا نسيج من ذلك التلاحم الفكري الإنساني.

والأدب عامل رئيس في تخليد الفلسفة الإغريقية واللاتينية، والحفاظ عليها ضد عوامل النسيان البشري. والدارس يستطيع أن يلمس في وضوح ذلك الدور الذي اضطلع به الفلاسفة في تطوير النظرة إلى الأدب والتنظير له لاسيما الشعر والقصص؛ ومن هنا تلازمت النظريات الفلسفية لأفلاطون وأرسطو مع التنظير النقدي فتكون الأدب الكلاسيكي الذي يحمل فكر الشعوب الأوروبية عامة.

خلاصة القول: إن الشعر وسائر فنون الأدب ديوان تاريخي واجتماعي يسجل مراحل تاريخ الفكر عند شعوب العالم، ويكشف عن الدور الذي يلعبه الأديب والفيلسوف في ارتقاء شأو الفكر الإنساني وتطوره؛ ألم تر أن النظريات الأدبية لا تكاد تخلو من ذكر الفلاسفة والشعراء ودورهم البارز في تحقيق النهضة الفكرية الإنسانية، فهذاك الفيلسوف (هيجل) ونظرية الجمال، وذاك المفكر (جوته) ونظرياته الأدبية، وربما كان الأديب هو نقطة الشرارة التي تشعل الثورة على الظلم والحياة الفاسدة، على نحو ما رأينا من قيام الثورة الفرنسية، وكان أديبها اللامع (فيكتور هيجو).

اللغة والإبداع

تأتي اللغة في مرتبة عالية في حياة ذلك الوجود الإنساني، إذ هي الأداة التي تحمل الأفكار، وتنقل المفاهيم، وتقوي روابط الاتصال بين الناس.

واللغة ذات أهمية كبرى في حياة كل أمة، لأنها الوسيلة التي تكشف عن عمق الفكر أو سطحيته، وعن سعة الأفق أو محدوديته، وهي وسيلة التعبير عما يجيش في النفس البشرية، وهي أيضاً أداة رصد للمجتمع كوامنه وظواهره.

وتتضافر جملة من العوامل ساعدت على تطور اللغة عبر الأحقاب الزمنية منها انبثاق أفكار ورؤى واحتياجات أفرزتها طبيعة كل عصر ومتطلباته، الأمر الذي أدى إلى تراكم الفكر الإنساني وسعته عبر مراحل التاريخ المتعاقبة، ناهيك عن الثقافة البشرية وتنوعها، وقد انعكس ذلك بالضرورة على اللغة، فسرى التطوير في عروقها، ودبت الحداثة في أوصالها

ولاشك أن اللغة كانت وما زالت أهم ما وصل إليه الإنسان من وسائل التفاهم، لذلك فهي تؤدي لكل من الفرد والمجتمع عدداً من الوظائف المهمة، تتمثل في:

- اللغة وسيلة التواصل بين الناس بما تحمل من دلالات نفسية واجتماعية ومعرفية.
- اللغة مطية الفكر وقرينته؛لا تكاد تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي، فهي الصور الكلامية التي تعبر عن المشاعر والعواطف واحتياجات الإنسان، أو هي

مجموعة من الأصوات التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وكما يقولون: اللغة فكر ناطق، والفكر لغة صامتة.

- اللغة أداة رصد للسلوك الإنساني وحركته الدائبة عبر الحقب الزمنية المختلفة، ووسيلة تدوين آمنة لنتاج الفكر البشري عبر مراحل تطوره المختلفة، ولاشك أن الكتابة اللغوية حافظت على موروثات الشعوب من الضياع، وكانت ولم تزل وسيلة مثلى لتسجيل ذلك الانفجار المعرفي الهائل في شتى مناحي الحياة.
- اللغة تختزل الأساطير والصور والخيال، وكلما أمعن الكاتب في أسرار الكون، وتجليات الحياة، نما خياله، وتبلورت لغته، وارتقت تعابيره، وهُذّب فكره.
- ذهب نعوم تشومسكي أحد أبرز فلاسفة اللغة المعاصرين إلى أن دراسة اللغة ترتبط بدراسة الفكر البشري، فاللغة تفرض بشكل أو بآخر على الإنسان طريقة التفكير، واللغة العربية أكثر اللغات تطوراً في عصورها الأولى، ولذا فقد استطاع العرب تكوين أكبر ثروة أدبية في الشعر والقصص والبلاغة.

حروف وأفكار (الفن والحياة)
(جريدة الرياض 1406/12/24هـ)

"وربما كان ذلك مدعاة لأن نثير هنا قضية في غاية الأهمية تلك هي الجدل الدائر حول العلاقة بين الأدب والدين عموماً، وبين الشعر والدين على وجه الخصوص، وهي قضية لاشك قديمة وحديثة.."

إن أي نظرية أدبية يكتب لها البقاء والخلود والانتشار والحضور لابد وأن تكون فلسفتها ومنهجيتها مبنية على العقلانية والجدلية التي تجنح إلى المنطقية أحيانا، وإلى الأحاسيس الشعورية أحيانا أخرى، أو توائم بينهما وذلك هو الأفضل. وليس ذلك بكاف؛ فالأمر لابد أن يوافق الأعراف والتقاليد السائدة، ويتقابل مع التراكيب والاتجاهات الاجتماعية المستقبلية،وذلك ما أشار إليه الشاعر (بوب) بقوله: "إن قواعد الأقدمين ليست مخترعة، إنها الطبيعة ما تزال، ولكنها الطبيعة منظمة".

وهذا يؤيد الرأي الذي يجنح إلى أن التيار الأدبي يكون مفروضا على الأدباء والمنظرين ونقاد العصر، بحيث تكون النظريات والإبداعات مستوحاة ومفروضة من الاتجاه العصري، إما لقناعة عقلية بالمفاهيم السائدة، وتأثيرها على المنهجية العقلية، وإما بالرفض لها ومحاربتها والتمرد العقلي الواعي عليها، ومن ثم رفضها وطرحها.

لذا فإن كل النظريات الأدبية التي نمت وراجت لاقت هوى من الحالات النفسية والاجتماعية والعقلية لدى أبناء المجتمع، لما وجدوا فيها من إشارات تكشف عن واقعهم، وتصف حياتهم، وتعرض همومهم ومحنتهم مع الحياة، ومن ثم اصطبغت تلك النظريات الأدبية بصبغة المجتمع.

من أجل ذلك رأى (بوب) أن النظريات الناجحة ليست مخترعة وإنما هي حياة الشعوب وعقليته وروحه النابضة وتياره المتدفق.

ولهذا فإن على كل المنظرين من نقادنا، وحاملي رايات الفكر الأدبي أن يسعوا جاهدين للملائمة والمواءمة بين النظرية والاتجاهات الفكرية الحالية، والمستقبلية؛ لأن كل تنظير يكتب له البقاء ينبغي أن تنبثق أنواره من الحق والخير والجمال، فغاية الأدب ومناه، وأمله ومبتغاه أن تحيا الضمائر بالقيم الإنسانية السامية، فالأدب روضة هذه القيم ومغذيها، ونغمها وسلسبيلها العليل.

ولابد أن يتضمن الهدف الأدبي الإصلاحات الاجتماعية الخاصة، ويدق جرس الإنذار ليكشف عن الانحرافات الطارئة، ويغذي روح التنمية الوطنية الفاعلة، ويستوحي الآمال المستقبلية المنشودة.

إن الناظر للغرض من الأدب والفن في الإسلام يجد أنه محاولة جادة لإصلاح المجتمع وتطوير قيمه.. وليس تجسيد الواقع بما فيه من مفاسد.. كما تذهب إلى ذلك المدرسة الواقعية.

وإذا ما تلبست التنظيرات هذه الأهداف، وسعت إلى تحقيق هذه الأمنيات، وجعلت هدفها الأصيل غرس قيم الخير والحق والجمال، وطفقت تناصر الفضيلة، فإن ذلك كله كفيل بجلب التأييد العقلي، والنجاة من المعمعة الجدلية الإنسانية. ومن ثم كان للتنظيرات الأكثر اعتدالية في المجتمع سريان أوسع.

وقد تحدث عن العلاقة الإعتدالية بين العلم والعقل والإيمان المفكر المسلم (رجاء جارودي) الذي عايش التدهور الحضاري الإنساني بسبب الإفراط والإعراض عن الإيمان حيث يقول: "تلك العلاقة الوثيقة بين العلم التطبيقي.. وبين الحكمة التي تحدد غايات البحث والدراسة، وتمنحها بعدها الأخلاقي والديني، وبين الوحي الإلهي الذي يبين قصور كل من العلم في بحثه عن الأسباب والحكمة في بحثها عن الغايات عن الوصول إلى السبب الأول ولا إلى الغائبية النهائية" إذن فهي علاقة قوامها الاستعانة الربانية، والقدرة العلمية التجريبية، والحكمة العقلية.

من هنا كان الاختلاف بين الفلاسفة في مواقفهم من الفن، فمنهم من يرى أن الفن تقليد للحياة، ومنهم من يرى أن الحياة تقليد للفن؛ فقد ذهب أفلاطون إلى أن الفن تقليد لما في الحياة، وعبر عنه بأنه محاكاة، فقد كان يعتقد بأن للأشياء مراتب ثلاث أدناها الفن وأوسطها عالم الحس وأعلاها عالم المثل وفي رأيه أن الأول ليس إلاَّ محاكاة للعالم الحسي، لذا فإن الفن بعيد عن الحقيقة بمقدار درجتين.

والفن عند أرسطو وسيلة وصنعة، وليس هو الغاية، فما يضيفه الإنسان ما هو إلاَّ أثر أو حصيلة الفن في حد ذاته، لذا فهو يشير إلى أن الفنان لا ينبغي له أن يتقيد بالنقل الحرفي للواقع وإنما عليه أن يحاكي الأشياء على النحو الذي يجب أن تكون عليه.

وهذا يعني أن الشاعر أو الأديب يحكي واقعا معنويا أو محسوسا، ويمازج بين العوامل الحياتية، ويربطها، ويمدها بالخيال المكمل أو المغاير.

ووفقاً لتلك النظرة فإن الفن يسهم في تطوير الحياة والمسيرة الحركية والاجتماعية، بما يحمل من رؤى ومضامين قد تكون أداة للخير وقد تكون أداة للتدمير.

أما ليون تولستوي (1828-1900) فقد عرّف الفن بأنه نشاط انفعالي أو أداة توصيل للانفعالات، فهو يرى أن الفن ليس مجرد تعبير وإنما هو توصيل للانفعالات، كما هو الحال في اللغة، وفي الوقت الذي تقدم فيه اللغة الأفكار يقدم الفن الانفعالات والعواطف بين أفراد المجتمع بواسطة الألوان، فهو إذن نوع من اللغة، ولكنها لغة نابضة بالانفعالات.

ثم جاء أوسكار وايلد الكاتب المسرحي البريطاني الذي أعلن رأيه في الفن صراحة حين قال: "إن الحياة تُقلد الفن أكثر مما يقلد الفن الحياة"، وذلك أن الشخص يكون انطباعاته من خلال تقليده للآخرين، فلا أدب بدون تقليد ومحاكاة، والحياة ليست إلا واقعاً حين نسقط خيال الفن عليه نخلق حياة جديدة يقلدها الواقع لاحقاً.

والواقع أن الفن يتكون من عناصر ثلاثة هي:

1- الاستعداد والمواهب والقدرات الفردية والذكاء.

2- الينابيع الأخرى صانعة المبادئ والمفاهيم والآليات الذهنية، أو ما يسمى بالمحتوى الفكري الذي يعتمد على المنهج السلفي وهو ما أطلق عليه القدامى الممارسة والدُرْبَة، أي الحنكة والمهارة والخبرة المكتسبة بطول الممارسة.

3- المشاهد الطبيعية والاجتماعية التي يتفاعل معها صاحب التجربة.

ومن هنا تمتزج مواهبه وذكاؤه ومخزونه الفكري ومعالجته الذاتية، فيرسم كل ذلك مجتمعاً خيوط التجربة الإبداعية الخلاقة، ومن ثم يتكون الفن.

ومن أشهر النقاد المحدثين الذين يرون أن الشعر موضوع للحياة (ت.س. اليوت) وهو شاعر ومسرحي وناقد أدبي حائزٌ على جائزة نوبل في الأدب في 1948. أحيا الميتافيزيقية بعد أن كادت تندثر، من خلال كتابه (الشعراء الميتافيزيقيون) ومن خلال دراسة خاصة عن الشاعر الميتافيزيقي أندرو مارفيل، سنة 1921م.

إن الميتافيزيقية هي اتجاه أدبي فلسفي يبحث عن ظواهر العالم بطريقة عقلية ممزوجة بالعاطفة، من أجل الجمع بين كل ما هو مؤتلف ومختلف من الأخيلة الفكرية والظواهر الطبيعية، وإبرازه في أعمال مسرحية وشعرية وروائية تجسد الفلسفة الكامنة وراء الحب، بأسلوب سهل وتعبير سلس.

والناقد الأمريكي الإنجليزي الشهير (إليوت) معجب بالشاعر الإنجليزي (جون دن) (1572-1631م) - أبرز الشعراء الإنجليز، الذي أسس المدرسة الميتافيزيقية في الشعر الإنجليزي مع باقي الشعراء في القرن السابع عشر- وذلك لأنه طرح العديد من القضايا في شعره، "وهو في رأيه شاعر مكن أبناء عصره أن يروا في شعره قضيتهم الخاصة وذلك من خلال إخضاع عاطفته إلى طاقته الفكرية. ولعل أهم ما لفت نظر إليوت إلى "دن" هو ثورته على مقاييس الجمال السطحية التي كانت ترى للشعر موضوعاته الخاصة التي تختلف عن

موضوعات النثر، وذلك ما أنكره "دن" الذي كان يعتبر الشعر تجربة الإنسان مع الحياة، ومن ثم لا يمكن أن يوصف أي موضوع في الحياة بأنه غير شعري"[1].

ولاشك أن المدرسة الميتافيزيقية تشكل خطراً على شبابنا المسلم – إن لم يتنبه إلى أطروحاتها جيداً – لما تحمل من تعابير أدبية خارجة أحياناً عن الدين والذوق السليم.

وربما كان ذلك مدعاة لأن نثير هنا قضية هامة وهي الجدل الدائر حول العلاقة بين الأدب والدين عموماً، وبين الشعر والدين خصوصاً، وهي قضية لاشك قديمة وحديثة، وترجع أبعادها إلى ظهور أول دعوة في الأدب الغربي لإقصائه عن الدين، متذرعة بأن "الدين يقص أجنحة الشاعر... أو أن الشعر الذي يعبر عن إيمان وولاء لا يستطيع أن يسرنا دائماً"[2].

وأما الشيوعيون فإن عداءَهم للأديان لا يخفى على أحد، وقد تبنَّوا من هذا المنطلق فكرة التناقض بين الآداب والدين، فالدّيانة اليهودية في زعمهم تحُط من شأن المعارف النظرية والفن والتاريخ، وتستهين بالإنسان كهدف في حد ذاته.

ويغالي أرنولد فيرى بقوله: "إن الشعر يستطيع أن يحل محل الدين والفلسفة" ولذا يعلق إليوت على هذا الرأي بقوله (لا شيء في هذا العالم، والعالم الآخر بديل عن أي شيء غيره"[3].

ومن البديهي أن الأدب لا يحل عندنا محل الدين الرباني، فالدين تنزيل من رب العالمين والأدب وليد فكر فردي خاضع لمؤثرات محدودة.

ويرى مؤلفا نظرية الأدب "أن للشعر عدة وظائف ممكنة وأن وظيفته الأولى والرئيسية هي أن يكون أمينا لطبيعته"[4].

والواقع الذي لا ريب فيه ولا مناص منه أن الأدب يختلف باختلاف الفرد والمجتمع؛ فكل أدب إنما هو ابن صاحبه بما يحمل من خصائصه الذاتية، وخصائصه المنتمية لمبادئ

---

(1) فائدة الشعر وفائدة النقد – ت س اليوت ترجمة د يوسف نور عوض ص17

(2) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه – اليزابث درو – ترجمة محمد الشوش – ص243

(3) نظرية الأدب رينيه وليك، آوستن وآرن ترجمة د عادل سلامة – ص34

(4) المرجع السابق – ص43

تفكيره، وما يلتزم به من نهج، وكل أدب إنما هو انعكاس لمجتمعه بما يحمل من مبادئ، وصدى لروح عصره بما تحمل من معطيات للحاضر، واستشرافات للمستقبل.

وكما يوجد أفراد ملتزمون يوجد أدب ملتزم، وكما يوجد أفراد لهم حزبية معينة يوجد أدب حزبي، وكما يوجد أفراد لا يدينون بدين فكذلك يوجد أدب يعكس صورة هؤلاء، وهذا يؤكد القول بأن الأدب إفراز للصراعات والتيارات التي تجتاح المبدعين، فكل إنسان له اهتماماته المسيطرة عليه، والتجربة تتدفق في مجرى تلك المهيمنات المكونية.

فالأدب نبض المجتمعات والأمم،لأن الأفكار العقائدية إذا هيمنت على الفكر الإنساني فإنها تفرز أدبا منصهرا في البوتقة الدينية، على نحو ما رأيناه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصدر الإسلام، وإذا كان الأدب ابناً باراً لمجتمع صالح ذي قيم عليا فإن ذلك يعكس أدباً نبيلاً سامياً، تماما كما نرى في بعض الجوانب الأدبية في الأدب الأوروبي الذي يحث على الحرية والديمقراطية والتطور، وإذا كان المجتمع محاربا للدين، ساعياً إلى التحرر منه فإن شعراء هذا المجتمع الوضيع يحاربونه كما حارب بعض جوانب الأدب الغربي الكنيسة وأغلالها.

وأياً ما يكن فإنه مهما وضع نقاد الأدب من أطر ونظّروا من نظريات وقعدوا من قواعد فإن الواقع والواقعية هي المهيمنة على الأدب وهي التي تجلب الجينات الوراثية. ولذا فإن الفلسفات والنظريات المؤطرة للإبداع إنما هي اتجاهات فكرية فحسب. الأمر الذي يدعونا إلى الدعوة إلى ضرورة صقل النظريات بمنظار الأمة بما يحفظ لها كيانها ودينها ومستقبلها، وأن تكون النظريات نبراسا وسراجا يضيء ويشع أنوارا تنير المستقبل، و ربما تجنح بنا إلى موانئ لا نعرف كيف نرسو عليها ولا ندري كيف نستقر فيها. و لكنها تؤدي بنا إلى سبلٍ سليمةً و تؤدي بنا إلى غايات نبيلة.

الحداثة عند العرب

"واستمر تيار الحداثة في الأدب العربي، وسار في فلكه النقاد والأدباء يبرزون مواطن القوة والضعف في النص الأدبي، لا يقفون في وجه المبدع المحدث، لكنهم التزموا القواعد التقليدية المعيارية، من حيث النحو والصرف والعروض والقافية...

ما يُعدّ أدباً حديثاً اليوم، سيغدو قديماً يوماً ما، وقد تبلور ذلك في الدراسات الأدبية الحديثة التي أبرزت نقاط التطور في الأدب، سواء أكان ذلك في أدبنا العربي، أو في الآداب الأوروبية، والحداثة في الأدب نتاج للظواهر الفكرية والمبادئ الاجتماعية، والسمات الأدبية والأساليب، والتراكيب البلاغية التي تميز عصر دون آخر.

وما من شك في أن أية أطر أدبية جديدة ما إن تظهر على الساحة، وتصطدم بالاتجاهات المعاصرة السائدة حتى تتلقفها عقول المفكرين على استحياء، فمنهم من يستحسنها فيقبل عليها، ومنهم من لا تلقى هوى في نفسه فيعرض عنها، ومنهم من يتناولها تناول المتحفظ المتروي في أناة ونظر.

وربما كان أول ظهور لذلك الطارئ الجديد، أعني الحداثة، في زمن لغويي العرب القدامى، حين تفشى اللحن في العربية، وغدا اللسان يومئذٍ يتحدث بما يخالف القياس اللغوي، لاسيما حين اختلط العرب بالعجم، ودخل كثير من العجم في أعقاب الفتوحات الإسلامية الإسلام، ومن ثم اقتضت الحاجة إلى وجوب وضع قواعد للغة العربية تمكن اللسان العربي والأعجمي آنذاك على التحدث بالعربية وفق ما يتفق مع قواعد النحو والصرف، وقد قيض الله لهذه المهمة الشريفة نحاة العرب الأكفاء، وقد أعلن النحاة البصريون حدوداً زمنية لمن يؤخذ عنهم، ويستشهد بأقوالهم.

أنشد أبو عمرو قول امرئ القيس:

نطعــــنهم ســــلكى ومخلوجـــة   كـــرك لأمـــين علـــى نابـــل

وقول الحارث بن حلزة:

"زعموا أن كل من ضرب العير موال لنا وانا الولاء" فقال: ذهب من يحسن هذا الكلام، ولهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين، ولا يستبشرون به، كبشار بن برد، والحسن بن هاني، ودعبل، والعتابي، وغيرهم من فصحاء الشعراء المتقدمين. وإنما يرجعون في الاستشهاد إلى شعر الجاهليين، والمخضرمين، والطبقة الثالثة التي أدركت لمخضرمين، وذلك لعلمهم بما دخل الكلام في الزمن المتأخر من الخلل، والاستحالة عن رسمه"[1].

هذا وقد اختلفت نظرة أدباء ونقاد العرب القدامى عن نظرة النحاة لهذا المحدث من الشعر، فقد عُنوا بالإجادة، وإن لم يحددوا ماهيتها، ومن أوائل من أشاروا إلى هذه القضية في صراحة واضحة هو ابن قتيبة حين قال في كتابه (الشعر والشعراء): "ولا نظرة إلى المتقدم منهم بعين الجلال لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين.. فلم يقصر إليه العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر.. وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شريف خارجياً في أوله".

وهذا أقدم نص عربي يعلل الحداثة، وينظر إليها نظرة الاعتدال، ولم يزل نموذجاً عدلاً، ورأياً محكماً في هذه القضية، ولاشك أنني أخاله كذلك؛ فهو رأي يبني ولا يهدم، ووجهة نظر تميز بين الصالح والطالح، وتقبل الجيد وترفع شأوه بصرف الزمن عن مكانه وزمانه، إنما العبرة بالإجادة والتأثير، غير أنني أرى أن تلك المقولة التي أوردها ابن قتيبة هي مقولة تنظيرية فقط، إذ الناظر إلى طريقة النقد عند ابن قتيبة نفسه يكتشف مع ذلك تأثره الواضح بالمفاهيم القديمة في أحكامه النقدية.

---

(1) فصول – 1 67 – ص46

واستمر تيار الحداثة في الأدب العربي، وسار في إساره النقاد يبرزون مواطن القوة والضعف في النص الأدبي، لا يقفون في وجه المبدع المحدث، لكنهم التزموا القواعد التقليدية المعيارية من حيث النحو والصرف والعروض والقافية، ومنهجهم في ذلك كان محاولة الحفاظ على سلامة البناء الأدبي من الهنات والركاكة، والنشاز، وإفساح المجال أمام التطور الثقافي والاجتماعي والفكري المتولد عن المبادئ والمفاهيم والمقاييس الجمالية القديمة، والممتزج بالوافد والمحدث من الأفكار الجديدة البديعة.

وقد أفرز ذلك أدباً جديداً، زاخراً بالإيحاءات والدلالات والصور، مازجاً بين القوالب القديمة والحديثة، محتضناً الإشراقات اللفظية عند أبي تمام، وصفاء المعنى ونقائه عند البحتري، والجزالة عند ابن الرومي، والجودة لدى المتنبي، والعمق الفكري لدى المعرّي.

ومنهج نقادنا العرب في النظرة إلى قضية الحداثة الأدبية منهج عدل ووسطي يستحق منا التقدير والإجلال؛ فضوابطهم الإلزامية قليلة، ولم يكبلوا الاتجاهات الأدبية بكثير من القواعد المقيدة للفكر والإبداع، الأمر الذي ساعد على استحداث قوالب أدبية لم تكن معروفة من قبل، فرعوها حق الرعاية وتعهدوها بالعناية حتى ينعت وآتت أكلها. فظهرت على إثر ذلك ألوان النثر الفني عند عبد الحميد الكاتب، وقصص ابن المقفع، ثم المقامات والموشحات، والسجع في الكتابة العربية، غير أن الجمود الفكري ما لبث أن دب في أوصال العالم الإسلامي، فانحسر في إثر ذلك النقد كما انحسر غيره من العلوم. وترتب على ذلك سيطرة المحسنات البديعية في الشعر والسجع في النثر، وظلت ردحاً من الزمن لم تخضع لرقابة نقدية توجهها نحو المسار السليم، إلى أن عاود الفكر العربي اتقاده وانتشاءه فصحح المسيرة، وقوم الأساليب المعوجة، وقنن للأساليب السليمة، لاعتماده وارتكازه في المقام الأول على التراث العربي الأصيل.

والمتأمل في تراثنا الأدبي القديم لا يعدم أن يجد محاولات قديمة للخروج على القواعد المعيارية التي اصطلح عليها العرب في إبداعهم، ومن ذلك محاولة الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي في معلقته التي خالف فيها الأوزان المتعارف عليها:

اقفــــر مـــــن أهلـــــه ملحـــــوبُ   فالقطبيـــــــــــات فالـــــــــذنوب

وكذا ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف تعليقاً علـى قـصيدة المرقش الأكـبر، الـتي يقول فيها: "ومثلها في هذا الاضطراب قصيدة المرقش الأكبر

هـــل بالــــديار أن تُجيـــب صَـــمَمْ   لــــو كــــان رســــم ناطقــــاً كَلَّـــم

فهي من وزن السريع، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثـاني من هذا البيت:

ما ذنبنا في أن غزا ملك
من آل جفنة حازم مُرْغَم

فإنه من وزن الكامل"[1]

والأمثلة في ذلك كثيرة لمن أراد أن يبحث في هذه القضية، ويندرج ضـمن ذلـك مـا عدّه النقاد العرب من الضرورات الشعرية، أو الأخطاء التي لا تغتفر، وكذا ما انفرد به بعـض الشعراء، وأعلن بعض النقاد رفضه ومعارضته.

والحق إن النقاد المنظرين المحدثين قد اختلفت مواقفهم من هذا الخروج على المـألوف في شعر عبيد الأبرص وغيره، فمنهم من عزا ذلك إلى ظروف نشأة الشعر العربي، حيث جـاء عبيد الأبرص في زمن لم يكن التركيب الشعري فيـه قـد تبلـور بعـد، ومـنهم مـن أرجعـه إلى اختلاف في رواية الشعر عبر رحلته الطويلة الـتي حملتهـا المـشافهة القابلـة للتغـيير والتبـديل، ومنهم من عدّه من الأخطاء البينة التي لا يعذر فيها عبيد ولا غيره.

---

[1] العصر الجاهلي – د شوقي صيف – ص184

غير أن الإنصاف ليدعونا إلى التساؤل: ما يمنع أن يكون ما أتى به عبيد في شعره يُعدّ من قبيل الجديد المستحسن؟

ذلك أن العرب لم ينكروا في زمانهم كل جديد يطرأ على الشعر مما يقبله الذوق، وتميل إليه النفس، حتى بعد تنظير الأوزان وعروض الشعر على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، بل إن الخليل نفسه اصطدم بما يعتقده شواذ من الأوزان الشعرية التي أعرض عنها، ولا ننسى أبا العتاهية حين قال قولته المشهورة: (أنا أكبر من العروض).

ويرى المتتبع للشعر العربي القديم الكثير من محاولات الخروج على الأوزان العروضية، غير أنها مع اختلافها لم تنفصل عن الاتجاه العام للموسيقى الشعرية، حيث قامت على التفعيلة وتكرارها، أو تجاوزت تفعيلتين وتكرارهما، ولا يفوت علينا أن كثيراً من الرواة المحترفين قاموا بتعديل وتصحيح كثير من الأوزان الشعرية أو اختاروا الروايات التي تتمثل الصحة العروضية..

الحداثة الشعرية إكسير الحياة الأدبية

البلاد السعودية – و (مرآة الجامعة 1407/08/28هـ)

"لقد كان ليوسف الخال السبق والريادة في احتضان تلك الحركة والتبشير لها – إن كان خيراً أو شراً – وذلك يوم أن اعتلى منبر الندوة اللبنانية في يناير 1957م، ليلقي محاضرته الشهيرة بعنوان: "مستقبل الشعر في لبنان"

تعني الحداثة في جوهرها عموماً إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة، والمتراكمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن. والحداثة أمر لابد من مجاراته للتطور، والبناء الفكري، والتفاعل الإنساني والكوني، والإنسان خلقه الله مجبولاً على حب التغيير، جانحة نفسه إلى التجديد، فهو سريع التأثير بالتوعية الفكرية المتنامية على مستوى الفرد والمجتمع بل والعالم كله، وهو يتمايل حسب اتجاه التيارات التي تهب عليه من هذه الأمواج المتلاطمة، يتكيف معها، ويستفيد منها، ويسخرها لمصالحه... من هذا ندرك أن الحداثة أو التغيير أو التجديد مطلب حتمي من حتميات البناء الإنساني..!!

ضوابط:

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل الحداثة بما تعني في جوهرها من خروج على العرف والمألوف فكرة يمكن للمرء في بلادنا الإسلامية التي تملك تصورات ربانية عن الكون والحياة أن يتخذها واحدة من قناعاته في الحياة دون ضابط من خلق أو وازع من دين؟!!

هل يمكن للمسلم أن يقبل كل جديد أو طارئ دون قيد أو شرط؟

والجواب في رأيي أن الجنوح إلى التجديد شيء ربما تدعو إليه مقتضيات الحياة، غير أن الخروج الفج على الأعراف والتقاليد بما لا يتفق مع الفطرة النقية والذوق السليم ليس مما أوصى به ديننا الإسلامي الحنيف، وليس مما يقبله العقل الرشيد، وإنما الأمر يدعونا إلى أن نجعل هناك حواجز وموانع وضوابط يعبر منها كل وافد وجديد في إطار من القيم الفاضلة، والخلق السليم، حتى تحمينا من الانزلاقات الخطيرة التي تردي بالمجتمعات والقيم الإنسانية السامية.

وتتمثل هذه الحواجز والضوابط في أمور ثلاثة: أولها ضابط الدين، فإن وافق الوافد الجديد قيم الدين ومبادئه فلا ضير حينئذٍ من احتوائه واستقباله، وثانيها ضابط العقل الرشيد المتدبر في ذلك الوافد أسبابه، ومسبباته، ونتائجه، وثالثها ضابط الغاية، بحيث لا يشكل ذلك الوافد الجديد معول هدم لموروثنا الإسلامي، وتراثنا الفكري، بل تكون الغاية الرئيسة فتح نوافذ جديدة في العقل الإنساني للإطلالة على الجديد الذي يبني الفكر، والحديث الذي يرقي الوجدان، ومن ثم تنحو الإنسانية جمعاء نحو السعادة الحقة، والسلام المنشود.

عن الحداثة الشعرية:

تلك موازين الحداثة وضوابطها في جميع مناحيها، غير أن الذي يعنينا منها في هذه العجالة هي الحداثة الأدبية بعامة والشعرية بخاصة. فما هي إذن الحداثة الشعرية؟

يرى بعض المنظرين أن الحداثة الأدبية عموماً والشعرية بصفة خاصة بدأت مواكبة لتطور الشعر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، غير أن ثمة فريقاً منهم يرى أن البدايات كانت مبكرة جداً، تعود بذورها الأولى إلى العصر الجاهلي هذه البدايات الأولى للحداثة في شعرنا العربي قد تجسدت واضحة في تلك التجاوزات اللغوية والنحوية والعروضية، وما عَدّه النقاد من الضرورات الشعرية.

وأكثر المنظرين والمبدعين يعتقد أن الأمر خاضع للتطور الفكري ومحاولات الشعراء أنفسهم التحرر من قيود القصيدة الكلاسيكية، وقد بدأت تباشير تلك المحاولات في أواخر

القرن التاسع عشر، وبلغ الأمر ذروته في أواخر النصف الأول من القرن العشرين، وطوال النصف الثاني منه.

فظهرت مدرسة الديوان التي أباحت الشعر المرسل، ثم تجسدت تلك الحداثة جليةً في مدرسة أبولو التي نهلت من روافد المدارس الأدبية الأوربية، واتسعت أكثر عند المدرسة المهجرية من حيث اللغة والنحو، بل إن فريقاً من النقاد المعاصرين يرى أن النثر الأدبي المهجري الذي ألفه جبران خليل جبران هو الركيزة الأولى لشعر الحداثة.

وأياً ما يكون فإن مدرسة الشعر الحر سرعان ما برزت في أوائل القرن العشرين على أيدي جماعة من الشعراء أمثال: نازك الملائكة، وشاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وكذا الشاعر السعودي محمد حسن عواد الذي نشرت له قصائد في صحيفة (القبلة)، وغيرهم كثيرون.

وهؤلاء اعتمدوا في شعرهم على التفعيلة وأعلنوا الاعتماد على السطر الشعري، وليس البيت جملة، ويتكون السطر من تفعيلة واحدة وربما تعددت التفعيلات حتى تبلغ الثمانية.

مجلة شعر:

حين يُذكر اسم الأديب (يوسف الخال) لاشك أن الذهن ينصرف مباشرة إلى (مجلة شعر)، ودورها المؤثر في الحركة الأدبية عموماً والحداثة الشعرية على وجه الخصوص في العصر الحديث. وكانت لهذا النوع من الحداثة المكسرة لمألوف الشعر العربي جماعة من الكتاب والأدباء اتفقت مشاربهم ومقاصدهم، واختلفت أساليبهم وإسهاماتهم، ومن أشهرهم: أنس الحاج، وأدونيس، خليل حاوي، وعصام محفوظ وغيرهم.

والباحث في تلك الحركة الأدبية الحديثة لاشك يقف على أثرها البالغ في الشعر العربي، بل إنه يلحظ آثارها عن بعد في شعر جبرا إبراهيم جبرا، وبدر شاكر السياب، وتوفيق الصايغ وغيرهم .

لقد كان ليوسف الخال السبق والريادة في احتضان تلك الحركة والتبشير لها، وذلك يوم أن اعتلى منبر الندوة اللبنانية في يناير 1957م، ليلقي محاضرته الشهيرة بعنوان "مستقبل الشعر في لبنان"، التي عاب فيها على الشعر العربي في لبنان زاعماً تخلفه عن روح العصر، وداعياً إلى الأسس التي ينبغي أن ينهض الشعر بها، ومنها: التعبير عن الحياة، ووحدة التجربة، ضرورة الإفادة من الشعر العالمي.

علاوة على ذلك فقد أشار في محاضرته إلى سمات الشاعر المبدع في رأيه، فهو يرى أن الشاعر المبدع يجب أن يكون معنياً بالتجربة الإنسانية، رافضاً أي الخضوع للماضي وموروثه، متحرراً من كل قيد أو تقليد قديم متبع.!

وعموماً فقد كانت تلك الحركة الأدبية الوافدة على الشعر العربي لها اتجاهاتها التي تخالف الدين والمنطق والعقل، وتجعل من الشعر وسيلة لتكوين مفاهيم وافدة على المجتمع، وتتبنى التدمير والهدم بصراحة مطلقة، و تقوض جميع ألوان الموسيقى الشعرية، وتجور على اللغة أحيانا كثيرة محاولةً التنصل من معياريتها.

كما أعلنت عدم رضاها عن الأسس الاجتماعية السائدة وعدم رضاها أيضا عن الصروح الشامخة من التراث، وأعلنت في صراحة أن الإبداع يرفض أن يكون بناءً أو إكمالاً له، بل هو معارضة ومخالفة وتحرر وليس له من أسس ثابتة أو معينة يقوم عليها إذ الهدف هو العودة إلى الفطرة البشرية.

اعترافات:

والنتيجة الآن هي شيوع الشعر الحر في الساحة الأدبية على نحو لا يكاد الدارس معه أن يتبين عدد الشعراء الذين يقرضون الشعر على نهجه، وتطور الأمر إلى قصيدة النثر التي لاقت رواجاً في العالم العربي نظرا لسهولتها وتحررها من الضوابط المألوفة للقصيدة العربية القديمة.

وعنها تقول سوزان برنار (هي قطعة نثر موجزة بما فيه الكفاية، موحدة، مضغوطة، كقطعة من بلور.. خلق حرّ ليس له من ضرورة غير رغبة المؤلف في البناء خارجاً عن كل

تحديد)، وإيقاعها إنما يكتب خصوصيته من الألفاظ وتتابعها، والصور وتكاملها، والموسيقى الداخلية للقصيدة عموماً.

غير أن الإنصاف ليدعونا إلى القول بأن ريح الحداثة حين لامست أوصال القصيدة العربية المعاصرة، وخلعت عنها أثواب الأوزان والعروض، وألبستها أردية الشعر الحر، وقصيدة النثر، قد فتحت الباب على مصراعيه ليدلف إلى محراب الشعر أدعياء الشعر، وأنصاف الموهوبين، ومنحت الفرصة لجمهرة من الأدعياء الانتساب إلى الشعر، وشجعتهم على نشر إنتاجهم الرديء، فامتلأت المكتبات بالشعر الركيك، واختلط الجيد من الإبداع بالغث الرديء، ففسد الذوق وتجرأ على الشعر من ليست لهم موهبة أو دراية.

وهذا الزخم الهائل من الشعر، كما يدعي أصحابه، أغضب الرواد الأوائل لشعر الحداثة، وأعلنوا عدم الرضا، والشعور بالإحباط، ومعاتبة النفس والضمير، لأنهم اعتقدوا أنهم فتحوا الباب لهذا اللون الغريب الذي خلف سحباً من الضباب على الأدب، وأفسد الشعر وشرع يحيد به عن جادة الصواب، و ينحرف به عن مساره السليم.

وهذا جبرا إبراهيم جبرا يقول: "فقد الشعر العربي قدسية كانت له، وأن الشعر يتزعزع، اليوم ألف واحد يكتب ألف قصيدة، لا أحد يهتز، إنني متخوف من أنني وجيلي مهدنا لهذا النوع من الشعر"[1].

وتقول نازك الملائكة: "الأجيال الأخيرة يمكن أن نسيمها بأجيال الإحباطات وفي عصور الإحباط تعتري الأدباء المبدعين أنفسهم الحيرة والتمزق والضياع، بحيث يفقدون نقطة ارتكازهم، فتصبح كتاباتهم أشبه بالكتابات التي لا هدف لها أو غاية تسعى إلى تحقيقها، وينعدم التواصل بينهم وبين جمهورهم".

وأعلن محمود درويش في العدد السادس من مجلة الكرمل قوله: "إن هذا الذي يسمونه شعرا حديثا ليس شعراً إلى حد يجعل واحداً مثلي متورط في الشعر منذ ربع قرن مضطرا لإعلان ضيقه بالشعر، وأكثر من ذلك يمقته ويزدريه ولا يفهمه"[2].

---

(1) مجلة إبداع أبريل 1985م ص140

(2) المرجع السابق – ص140

المأزق الحداثي:

والتهم التي وجهت للحداثة الأدبية لاسيما في الشعر، وناصبتها العداء يمكن حصرها فيما يلي:

- لما كان الشعر هو أرق وأعذب ألوان البيان، وقد وضع الخليل بن أحمد بحوره وأوزانه سلفاً معتمداً في ذلك على ما وصل إليه من أشعار الموروث العربي، فلا يُعدّ إذن شعراً ما خالف الشعر العمودي، وخصائصه المعروفة كالوزن والموسيقى.
- الحداثة الشعرية لا تعني الخروج على المألوف المتوارث عن القدامى، ولا تعني كذلك أن يخرج من النثر قصيدة شعر، فكلاهما له لغته التي تغاير الأخرى، ولذا فالدعوة إلى تسمية النثر شعراً دعوة غير مقبولة ولا تستقيم.
- النثر لغة الخطاب اليومية فيما الشعر لغة إبداع ذات مجالات وأوقات ومقاصد مختلفة.

غير أن الأمر - فيما أرى- هو أن حق الكتابة والتعبير مكفول للجميع، فمن حق من شاء الكتابة أن يكتب ما شاء، غير أن من أصيل حقنا أيضاً أن نقبل منها ما نقبل، وأن نرفض منها ما نرفض.

حقاً إن الحداثة التي تسللت في عروق القصيدة العربية في العصر الحديث لاشك حملت تجديداً في الشعر والمضمون، ونحت بالشعر نحو فضاءات متحررة من الكبت والجمود، ولربما كان أنصارها على حق حين زعموا أن الشعر المبدع هو ذلك التجمع الزاخر بالمعاني الجميلة الموحية المكهرب بالأخيلة الفنية والصور جمالية، غير أن ادعاءهم بأن الشعر تعبير موحٍ مؤثر لا يحتاج إلى الوزن بقدر حاجته إلى الشكل أو المضمون هو ادعاء محل نظر و حافة خطر.

ورغم كل ذلك إذا نظرنا نظرة موضوعية فإننا نستطيع أن نرى كثيرا من القيم الجمالية في القصيدة العربية بثوبها الجديد، التي تتمثل في العمق الفكري، واللغة الشاعرة، والإيحاء الشعوري الزاخر بالإشارات.

ونبتغي لهذا اللون الجيد النماء والرقي والازدهار، ونترقب لـه نقـاداً مـستنيرين ذوي رأي عدل ومنـصف، يـضطلعون بـشرف النقـد الحـر الـذي يرشـق قلمـه في الـنص موجهـاً ومرشداً، وكاشفاً عن مواطن الركاكة والخلل، ومواطن الجمال والألق الفني؛ فيقـوم المعـوج، ويناصر الجيد.

ولست أرى أن التسمية أمر ذات بال، أو حجر عثرة، فليسموا القصيدة ما شـاء لهـم من مسميات: شعر حر، أو قصيدة التفعيلـة، أو قـصيدة النثـر، أو النثـر المـشعور، فـإن ذلـك عندي ليس مهماً في الإبداع الفني، وإنما الأهم أن يفـرض الـنص وجـوده مـن حيـث العمـق الفكري، والاتجاه الإنساني، والقدرة الاستيعابية والإيحائية، والسمة الجاذبة للقـارئ، المهيمنـة عليه، المؤثرة فيه.

خلاصة القول: إن صـوت النقـد الحـر المنـصف ليقبـل الحداثـة والتطـوير في قالـب القصيدة الشعرية شكلها ومضمونها معاً، إذ الحداثـة إكـسير الحيـاة الأدبيـة بيـد أننـا ننـشدها حداثة بناءة لا هادمة، حداثة إبداع لا تضليل فيها، حداثة تجديد لا تقليد، حداثة منطلقـة مـن الأصالة لا دعوة إلى البتر والانفصام، حداثة تؤمن بالإنـسانية والروحانيـة، والفطـرة، والبنـاء الفكري، لا حداثة ضباب وأمواج وتخبط في الزيف والأوهام.

نحن نرفض تكبيل الفن وتقييده غير أننا نـصر علـى وجـود الإضـاءات والإشـارات والأنوار التي تهدي الضال وترشد الحائر وتساعد علـى الـسير في الـدروب الآمنـة وتكـشف الحسن من الرديء.

باختصار نحن من هذا المنبر لا نعارض التجديد، ولا نرفضه لكـن نعـارض الإفـراط والتهور والانتقال من تقليد تراثنا إلى تقليد آخرين.

قضية الأدباء والأحداث

(جريدة الرياض 1411/05/19هـ)

"ولما كان الأديب لاسيما الشاعر هو أكثر النفوس رقة وتأثراً بمجريات الأحداث، وجنونه الشعري يكسر حاجز العقل، ويطلقه حراً في سماء الإبداع، فقد فاضت تجاربه الشعورية ورشق قلمه في عمق المأساة العربية..."

تتمحور في التجربة الأدبية عناصر لا ريب في تكوينها للعمل الأدبي تلك هي: العاطفة، والخيال، الشعور،والفكرة، ونسج الكلام وتأليفه على نحو يقع في النفس موقعاً جميلاً، ناهيك عن المؤثرات الخارجية، والمكونات الفنية الجمالية.. وتُقاس جودة العمل الأدبي بتمازج هذه العناصر وتماوجها من خلاله.

ولقد فجعت الأمة العربية لإسلامية بكارثة الغزو العراقي للكويت في أغسطس عام 1990م، ذلك الغزو الذي يستند على ادعاء عراقي بأن الكويت إنما كانت جزءاً من ولاية البصرة التي تقع جنوبي العراق إلى أن منحها البريطانيون لأسرة (آل الصباح) التي ما زالت تحكم الكويت حتى الآن.

وما من شك في أن آثار ذلك الغزو الغاشم قد انعكست على الإنسان العربي عموماً، والشعراء خصوصاً، فتوالت القصائد الشعرية التي تناولت هذا الجرح العربي النازف في أرض العروبة. وقد فجّر هذا العدوان بركاناً في الفكر العربي الإسلامي، وأحدث صدمةً هائلة للعقل الجمعي العربي، وبات أعلام السياسة والاقتصاد والإعلام، وحتى الأدب يترقبون عن كثب ما سوف تسفر عنه الأحداث.

ولما كان الأديب لاسيما الشاعر هو أكثر النفوس رقة وتأثراً بمجريات الأحداث، وجنونه يكسر حاجز العقل ويطلقه حراً في سماء الإبداع فقد فاضت تجاربه الشعورية، ورشق قلمه في عمق المأساة العربية، واصفاً لها، كاشفاً عن أسبابها، ممهداً الطريق لضرورة إعادة التدبر في مكونات الذهن العربي، ومن ثم تدارك ما أسلمنا إلى هذه المعاناة، والعمل الجاد على صياغة عقول الناشئة على معايير الثوابت الإيمانية، والمنهجية العقلية، والقيم العربية الفاضلة وتربيتها على قيم الحق والخير والجمال، ومن ثم يمكن للعقل العربي حينئذٍ أن يتخلص من إسار الأنظمة الفردية التي أشعلت الحروب، واستبدادها الفكري، وفسادها الإعلامي.

وقد رأينا غزارة في الإنتاج الشعري المتأثر بالحدث لأنه الفن الأقرب نسباً لعنصر فجائية الحدث، ولأنه الفن الأدبي الأقدر في رأينا على رصد واقع الإنسان الحياتي، وشحذ الذهن بمشاهدات تُعين المرء على قراءة واقعه وتدبره، ولأنه الفن الصالح لنفث الشعور الحائر الذي تصعقه تيارات الإعلام المتوالية، المختلفة الاتجاهات، والمتنوعة الجينات، التي تؤدي إلى اشتعال النفوس واضطرابها، وإضرام نار الشك في سكينة النفس وسلامها، بحيث لا تكاد تستبين الحق من الباطل..!

والنظر المدقق في شعرنا العربي الذي انبثق من أتون تلك الأحداث يكشف عن ملامح الاتجاه الانطباعي كشعر الدكتور غازي القصيبي، والدكتور إبراهيم العواجي، والدكتور محمد بن حسين وقصائدهم تتميز في جوهرها بشمولية الفكر، المطعمة بالنبضات الشعورية، المصاغة في قوالب فنية جمالية.

ويتبلور الاتجاه الإسلامي الذي ينظر إلى الحدث نظرة إسلامية في أشعار الدكتور عبد الرحمن العشماوي، والدكتور زاهر عواض الألمعي، وهناك الاتجاه الإيحائي كشعر الدكتور عبدالله الحامد، والدكتور محمد الخطراوي وتظهر ملامح الاتجاه الشعبي الذي يميل إلى السطحية والإثارة.

كما رأينا أيضا أطرافا من شعر العلماء الذي يجنح إلى العقلية والمنطقية.

وأياً ما يكن فقد شارك الشعراء بـأقلامهم في ذلـك الحـدث الألـيم، وتألقـت أنـوار القصيد وإشعاعاتها بدرجات متفاوتة، وتوهجت التجارب الشعرية على أنحاءٍ متباينة، ولكـن لابد من الإشارة إلى أن الموقف هنا لا يفرض علينا قبول التجربة لجمالها الفـني، وإنما الـذي يؤصل معيار جودتها إنما هو مواكبتها للحدث وصدقها الشعوري. وتأثيرها في نفس المتلقـي. وقد ساهم الشعراء على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم الأدبية في رسم الواقع العربـي الألـيم جراء الحرب الخليجية، وقد كتب الباحث الأستاذ علي شجاع العتيبي رسالته عن هـذا اللـون من الشعر، وقد قمت بالإشراف على رسالته القيمة الثرية.

التيه وأنوثة الفكر الأدبي

"ونفاجأ اليوم في ميدان التطور الفكري بتلك الدعوة الغريبة إلى ما يسمى بالفكر الأنوثي، تلك الدعوة التي تنطلق من قاعدة أن الأنثى دائماً في حالة صراع كوني مع الرجل، ومن ثم يتحتم الهجوم على الفحولة... !"

اطلعت على ملحق الأربعاء في (10/ 8/ 1418هـ) الذي يضم حواراً مع الأديب والناقد السوري كمال أبو ديب، فراعني ولفت انتباهي وصمة الأدب بالاستنامة، فقلت في نفسي: النوم أخف وطأة من التدمير والضعف والدعوة إلى أنوثة الفكر الأدبي، وما لبثت نفسي المضي في مطالعة الملحق حتى بلغتُ الصفحة الأخيرة، وطالعتني مقالة (رصاصة ود) لصاحبها قناص، وقد تحدث عن تيه الشعر الحديث، والحق إن حديثه أثار شجوني، وهيج عندي الرغبة في الكتابة.

لقد طفق الأدب العربي يسلك في مراحل تطوره عبر عصوره المختلفة مسارات عدة، يرصد ويسجل تاريخ الشعوب وآمالها، ويحفظ للأجيال اللاحقة تراث أجدادها القدامى. أما الأدب الحديث فلم يظهر بثوبه الجديد إلا بعد أن أثمرت حركتان هامتان هما: إحياء التراث القديم، والترجمة عن الآداب الغربية، الأمر الذي أفرز مذاهب ومدارس جديدة في الأدب لم تكن موجودة من قبل، وانصرف الأدب الحديث إلى التعبير عن الحياة والمجتمع الحديثين، وتصوير مشاكل الناس واهتماماتهم وأفكارهم.

وأهم ما طور الشعر الحديث كان الشعور القومي والوطني الذي بلغ ذروة تأثيره في الشعر عند أبي القاسم الشابي الذي اعتمد القصيدة العمودية ولكنه ألبسها ثوباً يلائم طبيعة عصره. وبفضل مدرسة الديوان، التي تضم العقاد، والمازني، وعبد الرحمن شكري، وبفضل مدرسة المهاجر الشمالية بريادة إيليا أبو ماضي، ومدرسة المهاجر الجنوبية التي تضم رشيد

سليم الخوري، وفوزي المعلوف، طفقت القصيدة العربية الكلاسيكية تهتز أمام التيارات الجديدة، وارتجت أوزانها وبحورها لدعاوي تلك المدارس الأدبية إلى ضرورة التجديد في الشعر، من خلال الخروج عن المألوف، وإعلاء الأنا في الشعر، وتصوير أحاسيس النفس تصويراً مباشراً.

أما عن رواد جماعة الديوان فقد اتبعوا المدرسة الانجليزية التي تولدت عنها الرومانسية، غير أنهم مالوا بالشعر نحو الوجدان العقلي، وولجوا في داخل الإنسان بعقلية مضطربة، متمردة، فنجم عن ذلك طغيان مشاعر القلق والحزن، والألم على شخصيات ذلك الرهط، فالانزواء لازم شكري، والعبثية العقلية سحقت المازني، أما العقاد فقد نجا من تلك التيارات الساحقة لتواصله مع التوجيه الرباني، وتنمية فكره. وقد قادت هذه المدرسة مع قصر عمرها الزمني هجوماً وتمرداً على الشعر المحافظ، وتولدت عنها الذاتية المتشائمة المحطمة للفرد المسلم المتمثلة في الرومانسية العربية، والمدرسة المهجرية الشمالية (الرابطة القلمية) وإن تطورت الأخيرة إلى مواجهات فكرية صريحة مع الدين. ولم يزل الصراع محتدماً حتى اليوم بين أنصار القديم الذين يلتزمون الوزن الواحد والقافية الواحدة في القصيدة، وأنصار الشعر الحر الذين يناصرون الاقتصار على التقيد بالتفعيلة الواحدة، والتزام عدة قواف منوعة بديلاً عن القافية الواحدة، بل التحرر منها كلية أحياناً على نحو ما رأينا في قصيدة النثر التي ظهرت في الساحة الشعرية فيما بعد.

ولما شرعت أقارن بين جديد هؤلاء الشعراء المحدثين، وأشعار أخرى لشوقي وحافظ تبين لي كم كان الخروج عن التقليد المعروف للقصيدة العربية شعاراً أصيلاً لديهم في نتاجهم الشعري..!

فالحداثة الشعرية عندهم إنما ترتكز على فكرة التمرد، والذاتية السلبية، والاتباعية الغربية، وتحطيم الأوزان، الأمر الذي تولد عنه ضعفاً في الموسيقى، وركاكة في اللغة، وشيوعاً للعامية والألفاظ الأعجمية، ولكن شعراً كمثل شعر شوقي وحافظ رغم حداثة موضوعاته ومواءمته لروح العصر كان في القمة من حيث الالتزام بالقوالب الفنية القديمة،

والموسيقى الموحية، والخيال المحلق والثراء اللغوي الراقي، والتأثير الذي يداعب النفس والوجدان.

ومع ضعف الأمة ساد هذا الاتجاه الذي فرق شمل المفكرين والأدباء، وحارب الفكر الذي يدعو إلى صلاح الفرد وفاعليته لذاته ولمجتمعه ووطنه ودينه، وحطم القيم، وثبّط الحماس الذاتي والجمعي، وقاد إلى مرحلة من التحطيم الكلي للدين والفكر والتراث، كما حاول أنصاره أن يهدموا اللغة نفسها..!

وهذا أدونيس واحد من أولئك الأدباء الذين أعلنوا صراحة موقفهم من الموروث القديم؛ إذ تبنى وجهة النظر الداعية إلى تحطيم قيود الفكر العربي القديم، وكان معبراً عن تلك الرؤية أصدق تعبير، حين قال: "بما أن الثقافة العربية، بشكلها الموروث السائد، ذات مبنى ديني، أعني أنها ثقافة اتباعية، لا تؤكد الاتباع وحسب،وإنما ترفض الإبداع وتدينه، فإن هذه الثقافة تحول، بهذا الشكل الموروث السائد، دون أي تقدم حقيقي. لا يمكن، بتعبير آخر، كما يبدو لي، أن تنهض الحياة العربية ويبدع الإنسان العربي، إذا لم تتهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي، وتتغير كيفية النظر والفهم التي وجهت هذا الفكر، ولاتزال توجهه".

لكن لماذا يكتب أدونيس بلغة القرآن، ألم يكن أحرى به أن يكتب بالعامية، أو بأية لغة أخرى؟!!. لماذا يجترّ فلسفة الشاذين كأبي نواس، والحلاج، وغيرهما، إنه أنموذج لرهط من أدباء هذا العصر، يقولون مالا يفعلون..!!

إنها النزعة الهدامة لتحطيم أمتنا العربية على مستوى الفرد والجماعة.

ونفاجأ اليوم في ميدان التطور الفكري بتلك الدعوة الغريبة إلى ما يُسمى بالفكر الأنثوي، تلك الدعوة التي تنطلق من قاعدة أن الأنثى دائماً في حالة صراع كوني مع الرجل، ومن ثم يتحتم الهجوم على (الفحولة) أو ما يعبر عنه بـ (ذكورية اللغة) الذي هو في حقيقته هجوم على اللغة ذاتها وتشويهها. إن اللغة العربية عند كمال أبي ديب وغيره ممن تبنوا هذه القضية لغة فحولية ذكورية متسلطة، مستبدة بالمرأة.

لقد أقرّ الناقد السوري كمال أبو ديب في ثنايا حواره مع ملحق الأربعاء الذي نطالعه بين أيدينا بثبوت النص القرآني الكريم، وإن اختلفت تأويلاته عبر العصور.

وهذا برهان عنده على تعدد التأويل في النص الإبداعي، والخلاف ليس في تأويل النصوص إنما في تركيب النص الإبداعي الجديد الذي لا يقوم فيه التأويل على قرينه أو برهان، إنما هو متعدد القراءات غائر في الغموض.

كما يرى أن ((من الأحرى البحث في أساليب تفسيرية متجاورة للنص الأدبي الواحد، بحيث تصب جميعها في معرفة أوثق بالنص الأدبي، لا أن تعارض إحدها الأخرى)) وهذا ليس بالرأي الجديد؛ فالعلماء أقرب رحماً مع مساحة الاختلاف الواسعة، ولينظر في أقوال العلماء حول قضية الاختلاف، لكن الاضطراب يتجلى في كونه دعا إلى نفي التعارض ثم أثبت التناقض.

لقد ذهب إلى أن النص في ((العمل الأدبي العام لم يعد يفصح عن إيمان بالوحدة، ولم يعد مجسدا لرؤية توحيدية، بل أصبح أقرب إلى التشظي والتفتيت، هذا إن شف عن رؤية على الإطلاق)) إذن فالنص في زعمه إن أنبأ عن اختلاف فكري فإنه لا يفصح عن فكر أصلا..!

ثم شرع يبني علي ما تقدم قاعدة اجتماعية سياسية، فهو يرى أن ((ما حدث في العالم أن الوحدة قد انهارت ولم تعد سوى الكيانات الصغيرة المتشظية والناتجة عن تهدم الكيان الكلي الذي كان قائما على مستوى العالم وعلى مستوى الرؤية المفهومية، وعلى مستوى الوعي)).

ولعمري متى كان العالم في وحدة شاملة؟ ألم يكن الخلاف قائماً منذ قابيل وهابيل؟ ألم يكن الخلاف الأيديولوجي موجوداً منذ القدم؟ ثم يواصل الرجل استعراض رأيه، فيقول: ((ومن ثم فإن الرؤية التي من الممكن أن تلم بهذا النثار هي الرؤية التي تعتمد مبدأ التجاور لا مبدأ الوحدة)) وتلك دعوة سافرة للفرقة تحولت إلى أنثوية العالم العربي التي يدعو إليها في نظريته الجديدة التي أسماها (النظرة الأنثوية)، وأفسح المجال لها كي يوضحها بقوله: ((النظرة الأنوثية للعالم التي أشرت إليها ليس معناها تفضيل المرأة على الرجل، فهذا الانحياز النوعي جزء هامش من هذه النظرة، لكن المقصود بالنظرة الأنوثية تلك إعادة تقييم البناءات المفهومية والأيديولوجية للعالم، من خلال نظرة أخرى تنزع إلى الانتصار للصغير

والجزئي، للهامش والمستبعد للأثينيات العرفية والمجتمعات الصغيرة في مواجهة سياسة التدويل والتكتل التي هي سياقات ذات طابع ذكوري سلطوي صارم)). ثم يقول مردفاً: ((إن النظرة للمرأة بوصفها النوع البشري الأضعف والأقل قيمة والمسيطر عليه لم تعد تقابل إلا بالنقد والاستهجان على سياق الأدب)).

لقد ادّعى الرجل أنه منحاز للمرأة، بيد أنه احتقرها من حيث لا يدري حين شبهها بالصغير الجزئي، وتارة بالهامش والمستبعد. هو قائد فكري إذن ينتصر لكيان المرأة الضعيف في مواجهة السلطة الذكورية حسبما يزعم..!

والمرأة ليست بالكائن الضعيف كما يرى أبو ديب وأمثاله، إنها كيان له استقلاليته وكرامته في الإسلام، وهي ليست كما يدّعي البعض نصف المجتمع، بل هي المجتمع كله، لأنه لو سلمنا بكونها تعادل نصف المجتمع عدداً، وأضفنا إلى ذلك كونها مصنعاً للرجال، فإنها إذن تساوي المجتمع كله.

علاوة على ذلك تفردها برقة العاطفة، وتدفق الحنان، ودفء الأمومة، كل ذلك في رأيي عوامل قوة لا ضعف، وتفرد لا تهميش، وامتياز لا إقصاء. والأدب العربي نفسه يفيض بالكم الهائل من العبارات الأدبية التي تصف المرأة بالجمال والعفة والرشاد والإبداع.

إن الإسلام هو الذي وضعها حيث تستحق، وأكرم منزلتها بحيث لم يدع للمتحذلقين والأدعياء فضلة يمنون بها عليها، ألم يوصِّ نبي الإسلام معشر الرجال بها خيراً؟!!.

ومازال داعي التيه والشتات ينحو نحو أستاذه أدونيس داعياً إلى التحلل من هيمنة المعتقد، والوطن، وكل ما ينتظم معالم الوحدة والتلاحم. إنه لا يريد أن يجتمع مثقفو الأمة على كلمة سواء، يقول: ((القصيدة العربية تشهد اليوم تحولا جذريا على مستوى الرؤية والتقنية، لم تعد الأيديولوجية مسيطرة على أذهان الشعراء، وأعني بالأيديولوجية النسق من الأفكار الذي يجمع المثقفين تحت لوائه سواء كانت عقائدية أو سياسية أو على مستوى التكنيك المستخدم)).

لماذا لم تغضبه هيمنة السياسات الغربية المناهضة للقومية العربية مثلاً؟! ألم يكن حرياً به أن يشغل باله بأمور أخرى تستحق من كل مثقف أن يرشق فكره وقلمه في الحديث عنها؟!!

لماذا لم ير في النشاط الكنسي المتوحد الفاعل في العالم العربي علامة تأخر؟ ألم تسترع انتباهه تلك الجموع السنوية الغفيرة التي تظل خاضعة الأعناق لخطبة البابا أكثر من أربع ساعات؟ ولماذا لم يغضب للمساعدات الضخمة التي تمنحها الدول الثرية للبابوية، والمحاولات الغربية الخبيثة للمد التبشيري في ربوع بلادنا العربية من خلال ذلك الزخم الإعلامي، وتلك القنوات الفضائية الهدامة؟ التي تتغنى للشر وتحض على الانحلال الخلقي والسلوكي؟!! أين فكر هؤلاء النقاد والأدباء الأدعياء من هذه القضايا الساخنة؟

بل أين الأدب الهادف الذي يبني الأمم عقلاً وفكراً وسلوكا؟!!.

الصحافة والأدب

أم القرى نموذجا

بحث علمي مقدم لمؤتمر الأدباء الثالث عام

1431هـ

بقلم

أ.د. مسعد بن عيد العطوي

استهلت صحيفة أم القرى بداية القرن الرابع عشر الهجري، لتكون نقطة الشرارة التي تنطلق بها حاملة فكرها الرائد إلى القارئ العربي في جزيرة العرب. وكان ذلك متزامناً مع بدايات قيام وتأسيس العهد النهضوي الجديد، عهد الدولة السعودية الرشيدة.

لم يكن يومئذٍ ثمة دور للطباعة أو الصحافة، أو حتى تربة خصبة تحتضن الكتاب العربي، ولا مناخاً فكرياً يقدر قيمته، ويُعلي من شأنه كعامل ثقافي فاعل في إحداث النهضة الشمولية المنشودة في البلاد. بيد أن عناية الله شاءت أن تتنزل رحماته فتعانق بكارة العقول الحائرة، وتبدد قساوة الحياة القاحلة، وتدفع بريح التغيير إلى ربوع الجزيرة، لتمحو الغشاوة، وتجلي العقول، وتُعبد الدرب لتأسيس دولة عظيمة قوام نهضتها: الدين والعلم.

حينئذٍ أشرقت شمس صحيفة أم القرى وأطلت على البلاد والعباد في عام 1343هـ، ودلف إلى محرابها كبار العلماء، لينشروا أفكارهم، واتجه إليها الشباب الواعد؛ ليدلوا بآرائهم، وحجَّ إلى قبلتها شعراء الجزيرة الموهوبون، لينشروا على صفحاتها نبضات وجدانهم، وومضات إبداعهم الشعري.

لا ريب أن ظهور صحيفة أم القرى في ظل تلك الظروف الاجتماعية التي بيناها سلفاً، كان بمثابة الفرصة الذهبية التي عانقت أحلام الكتاب والمفكرين إذاك؛ والمنبر الثقافي الذي يثير آمالهم، ويهيج طموحاتهم في الظهور والتألق، والبرق الفكري الذي يبعثون من

خلاله موات أفكارهم، ومخبوء رؤاهم الأدبية والفكرية، ناهيك عن كونها - أعني الصحيفة- ميداناً يفتح نوافذه وأبوابه أمام رواد الكلمة والفكر، ويُغري بالتنافس البناء لمن يريد الشهرة والظهور. الأمر الذي دفع بكثير من الكتاب والمفكرين وذوي المواهب البكر الواعدة أن يلتحقوا بها.

وبعد أن استقر الأمن في ربوع الجزيرة، وانقضت حقبة من عمر "أم القرى" السعيد المضيء، وتمرس أرباب المواهب على الكتابة، وتكاثر المثقفون، وتكاثر تناجهم وإبداعهم شرعوا يجمعون كتاباتهم في أم القرى؛ لينشروها في كتب منفردة، وآية ذلك أن المكتبة العربية اليوم تزخر بعديد من الكتب الفكرية والأدبية، كان مصدرها الأوفر حظاً صحيفة "أم القرى نذكر منها على سبيل المثال:

1- "خواطر مصرحة" لمحمد حسن عواد
2- "المعرض" لمحمد سرور الصبان
3- "أدب الحجاز" لمحمد سرور الصبان
4- "وحي الصحراء" لمحمد سعيد خوجه وعبد الله بالخير
5- "الموسوعة الأدبية" للساسي
6- "أقلام الشباب الحجازي"
7- "معجم المصادر الصحفية (أم القرى)"
8- "نشأة الصحافة" لمحمد الشامخ
9- "محمد سعيد خوجة" لمحمد بن سعد بن حسين
10- "تاريخ التعليم في مكة" ترجمة عبد الرحمن صالح عبد الله.
11- كانت مستودعاً للشعر و القصة و المقالة حتى تجسدت في دواوين شعرية و مجموعات قصصية.

أولية الأدب والصحافة

اعتمدت بدايات الصحافة العربية على الأدب، وقامت على أكتاف الأدباء، وظلت السيطرة معقودة للأدباء حتى الخمسينات من القرن العشرين؛ فكل مقالة تكتب بأسلوب أدبي، وتصدر الساحة آنذاك النثر الكلاسيكي القوي الهادر على يد محمد عبده، والنثر الوطني المتحرر على يد سعد زغلول، والنثر المسجوع على يد محمد المويلحي، والنثر الرومانسي على يد المنفلوطي، والنثر الذي اعتمد على الفكرة والبساطة والوضوح عند جورجي زيدان، وقاسم أمين، كما ظهر النثر الساخر الممزوج بنوع من العامية، كما وُظفت القصة في الكتابة المقالية. الأمر الذي حدا بكثير من النقاد إلى طرح ذلك التساؤل: هل الأدب هو ما صنع الصحافة، وشدّ أزرها؟ أم أن الصحافة هي ما صنعت الأدب، وألقت به في دائرة الضوء والذيوع؟!

أياً ما يكن، فقد كان جُلّ مؤسسي الصحافة من الأدباء البلغاء، كما كان من أبرز الكتاب الذين صنعتهم الصحافة، أو سلطت عليهم الأضواء: المنفلوطي، وطه حسين، والعقاد، ومصطفى صادق الرافعي، في مصر، وفي الشام: ميخائيل نعيمة، والريحاني، وجبران خليل جبران، وعدنان مردم، وغيرهم الكثير.

وكانت المساجلات الأدبية والمقالات التي كتبها أدباء العربية وقتذاك هي المحور الأساسي للصحافة العربية، ولم تكن الصحافة وقتها تحفل الخبر احتفالاً كبيراً، حتى اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى، فحدثت نقلة جذرية في مسار الصحافة العربية، وتحولت من يومها من صحافة رأي إلى صحافة خبر.

وقد انطلقت الصحافة في الجزيرة في مستهل القرن الرابع عشر الهجري بصحيفة حجاز ولايتي1301هـ 1884م، ثم تتابعت الصحف وتكاثرت في عام 1326هـ 1327هـ.

ومنها جريدة حجاز1326هـ 1908م، ثم صدرت بعدها شمس الحقيقة 1327هـ 1909م، ثم تلاها الإصلاح الحجازي 1327هـ 1909م.

وكان لهذه الصحف السعودية دور فاعل في الحركة الفكرية والأدبية في الجزيرة العربية، فقد تصدى لها بعض المثقفين الذين توافرت لديهم الدراية والاطلاع على الحراك

الأدبي في مصر والشام آنذاك، وعلى دعاوي التجديد في الأدب التي ظهرت في الساحة الأدبية وقتذاك، وطفقت الصحافة في بلادنا تحذو حذو الصحافة العربية في مصر والشام، وتتخذ من أدباء العربية وكتابها أمثال: العقاد وطه حسين، نماذج لها.

ومن أشهر الصحف السعودية التي صدرت أعدادها بمكة جريدة القبلة في 15/ 10/ 1334هـ وكان رئيسها من أشهر الكتاب في الشام وهو محب الدين الخطيب،الذي كان له دور في تأسيس المقالة الأدبية،وقد تولى رئاستها عدد من كتاب الشام الذين حملوا شعلة الكتابة الحماسية، وكذلك صحيفة الفلاح عام1338هـ، التي أسسها عمر شاكر، وكان مندفعاً، حماسياً وصريحاً، وقد قيل عن القبلة والفلاح إن مقالاتها السياسية والاجتماعية قد كتبت بأسلوب أدبي مشرق،من حيث تأثره القوي بطرق التعبير الأدبية الجزلة. و ربما أن محاربة التنزيل اللغوي هو الدافع لها من أجل بقاء اللغة العربية حية في الحجاز.

جريدة "أم القرى"

ثم أطلت على رُبى الجزيرة العربية أنوار جريدة "أم القرى" في 15/ 5/ 1334هـ 12/ 12/ 1924م وانطلقت منذ بداياتها الأولى تحمل أهدافاً وطنيةً، وعربية، وإسلامية، وأدبية. وقد تولى إصدارها وتحريرها رهط من العلماء والأدباء والمفكرين الذين يحملون الهاجس الإسلامي العربي، وينهلون من الثقافة العربية التراثية، والثقافة المعاصرة، وقد اتسم أسلوبهم بالحماسة الشعورية، والاندفاع الوجداني، واكتست كتاباتهم بالأسلوب البياني الرائق

وصحيفة "أم القرى" لم تتخذ الأسلوب الأدبي وسيلة وحيدة لا تحيد عنها، وإنما آلت على نفسها منذ البداية أن تفتح نوافذها لتيار الحداثة والإبداع الجديد، وأن ترحب بالأقلام الناقدة البناءة، كما جعلت نشر الإبداع بعنصريه: النثر والشعر من أهم مقصدها، لاسيما الشعر الوطني الذي يرفع راية الوحدة الوطنية، ولعل من أشهر القصائد وأولها التي نشرت

على صفحاتها قصيدة الغزاوي في محرم عام 1345هـ، التي أعلن فيها الولاء للملك عبد العزيز حين عفا عن كل المواطنين

الا لا تلمني اليوم أن أتكلم	فإن فؤادي بالأسى قد تكلم
إمام الهدى لازلت للدين موئلا	يعز بك الإسلام والعرب والحمى

فقد تغنى الشاعر فيها بمناقب الملك عبد العزيز، وجمع فيها بين الوطنية والعروبة والإسلام.

وقد لعبت "أم القرى" دوراً أدبياً بارزاً في إذكاء شعلة الشعر العربي، وأضحت ديوان الشعر السعودي لسنوات عديدة،وانتشر على صفحاتها ألوان شتى من أغراض القصيد العربية، وتألقت في أحضانها القصائد الوطنية، والقصائد ذات المقاصد الدينية، والأغراض الحماسية، وبزغ في حلباتها نجوم الشعراء الكبار، أمثال: محمد بن عثيمين، والغزاوي، وفؤاد شاكر، وابن بليهد، وشعراء عرب آخرون، أمثال: الكويتي عبد العزيز الرشيد، والمصري أحمد محمد الكناني، وغيرهما عدد كبير من الشعراء العرب. وقد قيض الله لذلك الشعر الذي تم نشره على صفحات "أم القرى" عدد من المفكرين والأدباء الذين أخذوا على عواتقهم عبء جمع شوارده، وضم مبعثره في ديوان ضخم كبير، تزخر به المكتبة العربية، ويسعد به القارئ العربي أينما وجد.

وقد حوت "أم القرى" عدداً كثيراً من المقالات الأدبية التي تعالج قضايا فكرية على مستوى العالم الإسلامي والعربي. كما ضمت عدداً هائلاً من المقالات الأدبية التي تعالج كثيراً من قضايا الوطن ومشاكله، والقارئ العربي الكريم يمكنه الاطلاع على الأعداد 118، 126، 242 الصادرة لصحيفة "أم القرى" وذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر، وقد اتسمت المقالات السياسية والاجتماعية المنشورة عبر "أم القرى" عموماً بالأسلوب الأدبي القائم على إبراز الفكرة في سلاسة ووضوح وجرأة، الأمر الذي دفع ببعض الكتاب في بدايات الصحافة السعودية أن يذيلوا مقالاتهم بأسماء مستعارة، وكان من أشهرهم ذلك

الصحفي الشهير "محمد سعيد عبد المقصود خوجة" الذي كان ينشر مقالاته الجريئة تحت اسم مستعار هو "الغربال"...!

وأول مواجهة صريحة للنقد الأدبي مقال له بعنوان (نقد الأدب في الحجاز) في العدد 390 من جريدة "أم القرى" الذي انتقد فيه منهج الأدب في المدارس الحكومية الذي يعتمد على دراسة الأدب العربي القديم، دون احتفاء بالأدب الحديث وأعلامه، ومن مقالاته اللاذعة، مقاله في العدد 391، وقد ورد فيه قوله: "والله ليس من العدل في شي، ومن العيب أن نبقى على حالتنا.ومن العار علينا أن يتقدم غيرنا، ونحن نتأخر، ونكتفي بأن نردد في كل وقت أعمال الآباء والأجداد. وقد اتسمت كتاباته بمصداقية الطرح، ومعالجة القضايا الحياتية اليومية بمنظور النقد الاجتماعي الموضوعي، لتنقية عادات المجتمع من الشوائب.

كما كانت "أم القرى" حاضنة لغيره من كبار الكتاب الذين ذاع صيتهم فيما بعد، أمثال "عبد السلام الساسي" الذي كتب مقالاً مطولاً عن حركة الأدب في العدد 715 الصادر بتاريخ 23جمادي الثاني عام 1357هـ الموافق 19 أغسطس 1938م، وكذلك (السيد) الذي كتب عن حاجتنا إلى الأدب القصصي في العدد 719 الصادر في رجب 1357هـ سبتمبر 1938م.

كما أزدانت الصحيفة الموقرة بالعديد من المقالات التربوية التي عرضت لمشاكل المجتمع السعودي، منها على سبيل المثال مقال بعنوان "مشروعات دار العجزة ودار الأيتام" العدد 670 الصادر في شعبان 1356هـ -1937م، ومقال عن التربية الوطنية العدد 674 كتبه الغزاوي وقال فيه: "لاشك أن للتربية الوطنية أثراً بليغاً في ترقية الأمة، وإعداد أبنائها إعداداً يتكافأ مع المهمة التي يلقيها على عاتقهم مستقبل الأيام".

والمتابع للمسيرة الصحفية لجريدة "أم القرى" لاشك يقف على تلك الحقائق الجلية الناصعة:-

1- كانت ديوان الشعر لأبناء المملكة لما يقارب عشرين عاماً، حتى تحولت إلى جريدة رسمية تعنى بالخبر الصحفي في المقام الأول.

2- لقد أثرت "أم القرى" الفكر العربي بالمقالات الأدبية المتنوعة، وتنوعت فيها المقالات الصحفية سياسيةً، وتربويةً، واجتماعيةً.

3- مال فيها المقال الأدبي أحياناً إلى اللون القصصي.

4- كانت أم القرى مصدراً من مصادر الإشعاع الفكري والأدبي في المنطقة العربية، ولم تضن في أن تفتح ذراعيها لأدباء العرب إلى جوار بني وطنها من الأدباء، ومن ثم رأينا على صفحاتها مقالات لأدباء من الشام، أمثال: عبد الحميد الخطيب، وفؤاد الخطيب، وفؤاد شاكر وقد امتزج معهم شباب الحجاز، أمثال: محمد عواد وأحمد السباعي، ومحمد سرور الصبان، وأحمد الغزاوي.

5- ظاهرة الكُتّاب والأسماء المستعارة انتشرت بكثرة على صفحاتها، فلم يكن العهد الجديد قد تشكل على أرض الجزيرة في ملامح واضحة بعد، وكانت الرقابة الدينية والاجتماعية والسياسية أيامئذٍ مهيمنة. الأمر الذي كان له بالغ الأثر في ذيوع ذلك الاتجاه المتخفي عند جمهرة من الكتاب، وتواريهم في أسماء غير حقيقية.

6- شكلت "أم القرى" مصدراً لعدد من الكتب العربية المهمة، ككتاب "خواطر مصرحة" للعواد، وكتاب "المعرض" لمحمد سرور الصبان، وكتاب "وحي الصحراء" لمحمد سعيد خوجة، وعبد الله بالخير.

صوت الحجاز:-

ثاني صحيفة سعودية، وقد كان لأحوال المجتمع الثقافية والاجتماعية أثرها الواضح على تشكلها في عام 1350هـ/ 1932م، فقد غلب عليها الاتجاه الثقافي الفكري الذي يحمله الشكل الأدبي، وكان الأدباء هم الشريحة المثقفة التي أطلقت لأقلامها العنان، وشرعت تكتب في القضايا المعاصرة، وتستنهض إنسان الجزيرة ليتواصل مع حركة الفكر العربي والعالمي، وتطرح كل جديد ومفيد.

والمتابع لأعداد الصحيفة منذ بواكير ظهورها يلحظ أنها كانت تحاول اختراق السائد والمتفق عليه في الثقافة المحلية على حد زعم صاحب "معجم المصادر الصحفية لدراسة الأدب

والفكر في المملكة العربية السعودية" المفكر منصور إبراهيم الحازمي. فقد عمد كُتابها إلى محاربة ألوان الحياة الاجتماعية القديمة، والانتصار لإرادة التطور والإصلاح، وغلب على أسلوبهم الطابع الأدبي شأنهم شأن كُتاب صحيفة "أم القرى".

ومن هنا تشكل الأسلوب الأدبي في صحيفة "صوت الحجاز"، كما تشكل من قبل في صحيفة "أم القرى"، وضمت الصحيفة إبداع أبناء المملكة شعراً ونثراً، وتنوعت على صفحاتها أقلام الكُتّاب ما بين مقالات أدبية، ودراسات نقدية، وسجالات فكرية وأدبية حول الاتجاهات الأدبية السائدة المتباينة، وكان محمد سعيد عبد المقصود هو أول من نادى بتأسيس رابطة أدبية في المملكة، إذ نشر مقالاً في هذه الصحيفة بعنوان "الرابطة الأدبية في بلادنا وضرورة وجود غرف مطالعة ودراسة" وكان ذلك بتاريخ 1351هـ / 1932م. وهكذا ظلت "صوت الحجاز" منبراً ثقافياً فاعلاً حتى تحولت إلى صحيفة "البلاد السعودية".

مؤسسات صحفية بارزة

وتلوح في الأفق السعودي جريدة "المدينة المنورة" عام 1356هـ-1937م، وقد عُنيتْ بالأدب منذ بداياتها، وإن لم تستطع منافسة "صوت الحجاز" وكان مؤسسها: علي حافظ وعثمان حافظ من الأدباء والشعراء البارزين. بيد أن الصحيفة فيما بعد قد أضحت حقلاً صحفياً خصيباً، لاسيما بعد صدور ملحقها المتميز " الأربعاء " الذي تنوعت اتجاهاته الأدبية، وتعددت أفكاره وأطروحاته، ومازال يواصل العطاء والمسيرة في بلادنا،ويبذل كُتابه ومحرروه جهداً كبيراً في استقطاب الكُتاب، وطرح الموضوعات المستنيرة، ورصد الحراك الشعري والروائي. كما صدرت في عام1376هـ -1956م جريدة "حراء"، وجريدة "الندوة" وجريدة "عرفات" وجريدة "الرائد".

وفي اليوم الرابع والعشرين من شعبان سنة 1383هـ (4/ 2/ 1964م) صدر مرسوم ملكي بشأن تقنين عمل المؤسسات الصحفية والأهلية، مشترطاً ألا يقل عدد أعضاء المؤسسة الصحفية عن خمسة عشر عضواً،ولا يقل رأس مالها في بداية قيامها عن مائة ألف ريال، وأن يكون العضو ذا دخل ثابت من عمل حكومي أو غيره.

وبناء على هذا المرسوم فقد أنشئت المؤسسات الصحفية التالية:-

مؤسسة عكاظ للصحافة،وتصدر عنها جريدة عكاظ اليومية بجدة

"البلاد" = = = =البلاد اليومية =

=الندوة = = = الندوة اليومية =

= المدينة = = = المدينة اليومية =

= الجزيرة = = =الجزيرة الأسبوعية بالرياض

=اليمامة = = = الرياض اليومية ==واليمامة الأسبوعية بالرياض

= الدعوة الإسلامية = = =الدعوة الإسلامية بالرياض

= اليوم للصحافة = = اليوم الأسبوعية بالدمام

الملاحق الأدبية

كانت الصحافة السعودية في بدايات ظهورها تتسم بالشمولية، وتنوع الموضوعات، وتعدد القضايا والطرح، غير أن صفحات الجريدة الواحدة لم تكن تتعدى الست صفحات، وكانت الصفحة الواحدة تقوم على أعمدة وزوايا، وكل قضية يتم عرضها في عمود صحفي أو زاوية صحيفة، ثم سرعان ما تطورت منظومة الصحافة في بلادنا في أعقاب التطوير، والتقدم العلمي والتقني اللذان دبّا في أوصال الحياة في ربوع الجزيرة العربية. ناهيك عن تقدم المجتمع السعودي نفسه اجتماعياً وفكرياً، الأمر الذي استدعى تغيراً جذرياً في واقع الحياة عموماً، وقد انعكست آثار ذلك التطوير الجذري على الصحافة السعودية، فقد تكاثرت موضوعاتها، ومن ثم صفحاتها، فظهرت الصفحات السياسية، والصفحات الاقتصادية، والاجتماعية، ثم ظهرت الملاحق الأدبية منفصلة ومستقلة عن صحيفتها. وكانت تمثل أولى بدايات ظهور الملاحق بشكل عام، ثم سرعان ما ظهرت في الساحة الصحفية الملاحق الرياضية، ثم الاقتصادية، لكن بمرور الوقت غلبت الملاحق الرياضية على غيرها من الملاحق الأخرى، وأضحت الاهتمامات الأدبية والثقافية تنشر في صفحات يومية، في أغلب الصحف السعودية، رغم كونها تتضمن قضايا فكرية، ورؤى علمية، ودراسات نقدية

تحليلية، وربما كان مرد ذلك إلى طبيعة البيئة التعليمية والاتصالية التي يعيشها أبناء هذا الجيل، التي باعدت بينه وبين قراءة الأعمال الأدبية والثقافية.

ومع ذلك خصصت بعض الصحف أحد أيام الأسبوع لملحق ثقافي وأدبي، من ذلك ملحق صحيفة الرياض، الذي استمر أكثر من خمسة عشرين عاماً، ومازال. واتخذ منهجاً لازمه في مسيرته منذ البداية، وهو الجنوح للتيارات الأدبية الأكثر حداثة، والاهتمام بالترجمة. ويُعدّ الأستاذ الشاعر "سعد الحميدين" من مواليد الطائف الأب الروحي له، فقد عمل مديراً للتحرير لشؤون الثقافة بجريدة الرياض، ومشرفاً على الملحق الثقافي، وكتاب الرياض الشهري. ومن هذه الملاحق الأدبية أيضاً ملحق عكاظ الأسبوعي، وملحق الجزيرة الذي تحول إلى نشرة ملحقة منفردة ليوم الأربعاء ويشرف عليه الأستاذ إبراهيم التركي وفيه تنويع يقوم على الشخصيات المرموقة أكثر. و من أشهر الملاحق و أكثرها تواصلاً منفرداً ملحق الأربعاء بصحيفة المدينة المنورة و منها ملحق صحيفة اليوم.

المجلات

1-الإصلاح:

أنشئت مجلة الإصلاح في 15/ 2/ 1347هـ الموافق غرة أغسطس 1928م، في مكة المكرمة، وهي أول مجلة تعني بالشأن الثقافي الديني، والعلمي والاجتماعي، وكان يديرها ويشرف على تحريرها الشيخ محمد حامد فقي أحد علماء الأزهر، وكانت تصدر مرة في الشهر، ثم مرتين في الشهر، واتخذت المجلة منذ عددها الأول الآية الكريمة: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت" شعاراً لها. وقد وجهت المجلة نداءً في أول عدد لها إلى المفكرين وذوي الأقلام الشريفة أن يمدوها بثمرات عقولهم من الفكر الراقي، والآراء البناءة، والكتابات التي تسهم في إخراج المجلة على النحو اللائق، وبما يجعلها روضة ثرية من العلم والأدب والفكر الخلاق.

وقد لاقى نداؤها قبولاً في أوساط الكتاب السعوديين والكتاب العرب، ورغم أن المجلة لم تكن تحتفي بالأدب والسياسة احتفاءً كبيراً، إلا أنها كانت تتسم بالمقالات المسجوعة التي كان يكتبها الأديب أحمد إبراهيم غزاوي.

2- المنهل:

تأسست في عام 1355هـ / 1937م، في المدينة المنورة، وهي أم المجلات السعودية، وأطولها عمراً، وأغزرها أدباً، وذلك لأن مؤسسها كان الأديب عبد القدوس الأنصاري، الذي رعاها، وبذل جهده وفكره، وصداقاته من أجلها، وكانت مجمعاً لكبار الأدباء والمفكرين والمثقفين، وميداناً لنشر الإبداعات الجديدة وكانت محفلاً أدبياً استقطب الأدباء من سائر أقاليم المملكة، واستطاع مؤسسها الأنصاري منذ بداياتها أن يبعد عنها الشللية،ويستميل لها علية القوم، ويبعدها عن المخاطر والمنزلقات الصحفية.

وتعد "المنهل" مصدراً خصيباً من مصادر الأدب السعودي خاصة والأدب العربي عامة، وسجلاً تاريخياً للحراك الثقافي الفكري في المنطقة العربية، ولمسيرة الأدب والأدباء السعوديين، وذلك في أعدادها السنوية الممتازة، وإصداراتها الإبداعية والفكرية المتفردة. وقد وضعت المجلة نصب أعينها منذ البداية الحفاظ على تعاليم الإسلام، وإبراز اللغة العربية الأصيلة، وإعادة المملكة السعودية إلى مكانتها الأدبية بين الدول العربية.

ثم توالت بعد ذلك وتكاثرت المجلات الأدبية المختصة، ذات الطابع الأكاديمي المختص، على نحو ما نرى في مجلات الجامعات؛ فكل جامعة تصدر مجلة محكمة يتخذ الأدب حيزاً كبيراً فيها، وتطرح بعض الاتجاهات الحديثة، وتقوم فيها الدراسات ذات العمق البحثي المثمر.

وكذلك صدرت بعض المجلات من مؤسسات عريقة مثل مجلة (الفيصل) عن مؤسسة فيصل الخيرية، ومجلة (المجلة العربية) عن وزارة الثقافة والإعلام، ومجلة (الحج والعمرة) التي تصدر عن وزارة الحج السعودية.

وبعد أن أنشئت النوادي الأدبية والثقافية صدرت مجلات أدبية ونقدية عن تلك النوادي، وقد نجح النادي الأدبي بجدة في إصدار عدد من المجلات التي كان لها صدى في الوطن العربي وخارجه، منها: علامات في النقد، جذور التراث، والراوي، ومجلة عبقر، كما أصدر النادي الأدبي بتبوك مجلة أفنان، وضفاف، وحسمي، ويصدر النادي الأدبي بالمدينة مجلة العقيق، وبصدر نادي أبها مجلة بيادر، وغيرها.

قضايا الصحافة - أم القرى نموذجا

استهلت أم القرى الصحافة السعودية،وارتسمت عليها ملامح التكوين الوطني بمكوناته الحضارية، والثقافية والاجتماعية والعمرانية والسياسية، وتدرج الحياة وتطورها؛ فأم القرى رسمت خارطتها من خلال شرائح الوطن، فكانت النموذج الأول الذي وضع الأطر لتبويب الصحافة السعودية مع الاعتراف بالتطور في شتى معالم الثقافة والحضارة، وتشكل ذلك في زوايا من الصحيفة، ثم ازداد إلى صفحات، ثم تعددت الصفحات لتشمل موضوعاً واحداً، ثم ظهرت بعد ذلك الملاحق المفصولة عن الجريدة الأم.

والملاحظ أن بلادنا مرت بمرحلة من الأفول، أو التهميش سواء من نفسها أو من غيرها. الأمر الذي جعل دولة كبرى في البلاد العربية في ذيل السجل الثقافي الإعلامي في العالم العربي، وأنت لما تقرأ تاريخ الثقافة السعودية من مصادرها الأولى تدرك أنها بادرت مبكراً إلى صناعة الثقافة المعاصرة، وكانت من أبرز الحركات التنويرية التي ظهرت في الجزيرة حركة الدعوة في نجد، وتواصلها مع الجانب الشرقي للجزيرة مع البحرين وقطر والكويت والإمارات.

ثم ظهرت في الجزيرة حركة التمرد على الأتراك وصراع الأتراك من أجل البقاء، وقد ظهرت ملامح الثقافة في الصحافة السعودية منذ عام 1343هـ، فقد تكون المشهد الثقافي عبر هذا المنبر الجديد من خلال الدعوة إلى مؤتمرات إسلامية، والتفاعل مع وفود الحج، والتواصل مع المطبوعات العربية في مصر والشام، ثم ظهرت صحيفة أم القرى، وبادر الشباب المثقف بالدعوة الفكرية، ومن أعمدة هذا الاتجاه الكتاب من مكة المكرمة وجدة

والعرب المجاورين، والقارئ في صحيفة أم القرى يدرك استقطابها للعقول، ويدرك أن عقولاً مثقفةً أبدعت في محرابها، أمثال: محمد سرور الصبان، ومحمد حسن عواد، وأحمد الغزاوي، لكن صوت محمد عواد كان عالياً فقد كان يميل إلى الاتجاه الثوري في الفكر والمنهج، وإثارة القضايا الاجتماعية والتربوية بل حتى السياسية.

وقد كتب مقالاته ما بين عامي 1334هـ -1344هـ. وسرعان ما جمعها في كتاب صغير بعنوان "خواطر مصرحة"، ويرى بعضهم أنه أول كتاب يصدر في بلادنا، وبعضهم يرى أن كتاب "المعرض" لمحمد سرور الصبان سبقه في الظهور، وهذا التاريخ الذي كتبت فيه المقالات وصدر فيه الكتابان هو عام 1344هـ-1926م يُعدّ مبكراً بعد صدور دواوين عبد الرحمن شكري، والعقاد والمازني، وقبل صدور دواوين جماعة أبوللو أيضاً.

وقد استحدث الأدباء أساليب وطرائق متعددة لتنمية المواهب المبدعة، وإثارة القضايا المثيرة حول نظريات الأدب وتاريخه. منها طرح الأسئلة في الصحافة حول الأدب وتنافس الكتاب على الإجابة عليها، وأول من استهل ذلك محمد سرور الصبان في كتابيه (المعرض) و(أدب الحجاز).

وقد أثار هذه القضية كثير من الأدباء مثل الأديب عبد القدوس الأنصاري في مجلة المنهل، وخص هذه الإجابة بالأعداد الممتازة، ومن هذه الكتب التي صدرت كتاب "وحي الصحراء"، و"موسوعة الساسي".

مهمة الأدب

تختلف مهمة الأدب من مرحلة إلى مرحلة، ومن عصر إلى عصر حسب متطلبات الإنسانية. فالأديب لاسيما الشاعر يحمل عبقرية وذاتاً شفيفة، ويدرك مالا يدركه غيره، ويستشرف المستقبل، وهاجسه القضايا الاجتماعية، والسياسية. والعواد رغم شبابه ومكثه في الحجاز التي لم يخرج منها، لكنه كان مدركاً لفلسفة الحياة الكونية المتقدمة، فهو يكشف عن وظائف الأدب مبكراً عام1345هـ-1927م، إذ يقول في كتاباته:

"أمامنا الوطن بحاجاته المادية والمعنوية وما يتطلبه الشعر فيها!

أمامنا العادات والأخلاق بما فيها من فساد يتطلب النقد!

أمامنا الحرية بأنواعها،وما يجب من تمكينها في النفوس!

أمامنا الشرق الكسول الخامل وما يجب من تنشيطه!

أمامنا الطبيعة بظاهرها وباطنها ووحيها للعقل والقلب

أمامنا العرب بحالتهم السياسية، وواجب الشعر في هذا المجال

أمامنا الغرب باختراعاته ومدهشاته وأعماله وما يتطلبه المقام في ذلك من تمثيله والحث على منافسته...

أمامنا الحياة كلها بما فيها من خير وشر.

إذن:فما لنا نرجع إلى الوراء حتى بالأدب، والأدب هو أول الطريق؟

جناية جناها على أفكارنا وأقلامنا الأقدمون فطأطأنا لها الرؤوس...

كفى يا أدباء الحجاز! ألا نزال مقلدين حجريين إلى الممات؟ وأقسم لولا حركة عصرية في الأدب تقوم الآن في الحجاز بهمة لفيف من أحرار الأدب العصري الحديث لما عرف العالم شيئاً في الحجاز يدعى الأدب الصحيح.

فلسفة الأدب

تصدى الأدباء الشباب لتنظير الأدب بالنقد البناء الذي يدعو إلى تلاحم الأدب بالحياة وتلونه بألوانها الجمة، فها هو ذا الأديب يوسف ياسين الذي صحب تأسيس أم القرى يكتب عن الأدب والحياة من عام 1344هـ-1927م، ثم يدلف إلى الحديث عن فلسفة الأدب ونقده، وضرورة أن يكون الإبداع نبعاً من الحياة الفردية والاجتماعية في مقالته الواردة بالعدد 570 من جريدة أم القرى في عام 1354هـ.

وتواصلت المقالات القوية حتى أصبحت قضية قوية دفعت ببعض الأدباء الشباب أن يتعرفوا على آراء الأدباء الكبار المتمرسين،وقد بدأ بالفكرة محمد سرور الصبان عام1344هـ مخاطبا الأدباء بسؤال "اللغة العصرية".

جاءنا السؤال الآتي من حضرة الأديب محمد سرور الصبان، وكان قد وجهه إلى عديد من أدباء مكة ورأى أني ساكون في عداد المجيبين على سؤاله، وكنت سمعت انه سيجمع الأجوبة وينشرها في كتاب خاص، ولكنه لم يفعل إلى الآن وعسى أن يكون مصراً على تنفيذ هذه العزيمة في المستقبل.

السؤال هل من مصلحة الأمة العربية أن يحافظ كُتابها وخطباؤها على أساليب اللغة العربية الفصحى، أو يجنحوا إلى التطور الحديث، ويأخذوا برأي العصريين في تحطيم قيود اللغة، ويسيروا على طريقة حديثة عامة مطلقة؟؟"والأجوبة جمعت في كتاب حافل سمي المعرض" وقد طبعته المكتبة الحجازية بمكة".

"والجواب: ظاهر السؤال ينوه عن نقطتين: نقطة الألفاظ، ونقطة الأسلوب.

الألفاظ تحدت آراء الكتاب في عموم أنحاء الكرة الأرضية على نقطة مركزية للبيان العربي هي ضرورة ووجوب استعمال الألفاظ العربية كما جاءت ببنائها الصرفي، وتركيبها اللغوي في قانون قواعد اللغة،وكما لفظتها ألسنة العرب في عصر التهذيب الثالث للغة العربية، وهو عصر قيام أسواق الأدب لعكاظ، وغيرها من مؤتمرات البيان، ولكن مع مراعاة الصقل.

وفي زمن ندرة المصادر الثقافية في الجزيرة، وقلة وسائل الإعلام، وضعف التواصل الثقافي،وندرة الصحف في الحجاز، وتأخر وصولها، وقلة الكتب المترجمة إلا أنك تذهل من مقدرة الشباب في بلادنا على استيعاب الثقافة العالمية، وفي طليعة هؤلاء الشباب المستنير كان الأديب الشاب محمد سعيد خوجه، الذي يكشف عن فلسفة الأدب وتنظيره ومهامه وضرورة تمثله للواقع الاجتماعي المعاصر له، وهو لم يكتف بالتنظير بل أخذ يدرس أدب الحجاز، كل ذلك ما بين عامي 1350 حتى 1355 هـ عام 1930 – 1936م.

وقد كتب محمد سعيد خوجة مقالة حول نقد الأدب الحجازي في العدد 390 الصادر من جريدة أم القرى في عام 1350 هـ، أورد فيها قوله: "ما هو الأدب؟ هل الأدب تقبل للقديم، وتمشٍ مع أساليبه،ومجاراة لنظمه وتكرار لأشياء محفوظة ماتت بموت عصورها

الأولى، وترديد معاني أكل الدهر عليها وشرب..؟ أم الأدب خلق، وفن، وابتكار، وإبراز فكرة...؟

ومطلبي هنا أن نريد أدباً حياً راقياً يلائم طبقة هذا العصر، ويتمشى مع تياره. فهم عملوا لعصرهم، فجاء أدبهم يعبر عن روح عصرهم ويمثل لهم حياتهم بضروبها، وألوانها، ويشرح لنا ثقافتهم ومبلغ درجتهم من العلم".

لقد نشرت المقالة في أوائل عام 1350هـ-1932م، وكانت بمثابة الكشاف الذي يكشف عن ثقافة أبناء الوطن في تلك المرحلة المبكرة.

قضايا النقد والبلاغة

إن إدراك الشباب الحجازي بتطور الأسلوب العربي، وتحديد القضية النقدية الكبرى وهي التمرد على الأساليب القديمة ظهر مبكراً منذ عام 1344هـ-1926م، وهي فترة تزامنت مع الحراك الثقافي العربي في مصر والشام وبلاد المهجر.

وإدراكه يتمثل في البديل الذي يستقطب الحراك النقدي الجديد والأساليب الحية التي تتواصل مع الحراك الثقافي في العالم مع الاعتراف بالنماذج الربانية، وما ولدته العبقرية العربية القديمة.

وهذا يشير إلى إلمام أهل الجزيرة بالتطور المعاصر لهم،وأنهم لم يكونوا بمعزل عن مصادر ثقافة العصر. ومقالات العواد تقوم على البرهان الذي يتكون من ضرب الأمثال لما يرفض ولما يرغب. ومقالته بعنوان (البلاغة العربية) نموذج حي على ذلك، ولكنه تحدث فيها عن قضايا مرتبطة بالتعليم، وهذا يشير إلى أن مرحلة المقالة مبكرة لم تتفرع إلى أنواع المقالة، فالمقالة الواحدة تجمع عدداً من القضايا الأدبية والسياسية والاجتماعية.

تلمستها في جواهر الأدب فرأيتها تبعد 321 و 654 مرحلة

تلمستها في مولد البر زنجي فرأيتها تتلكأ متسكعة متعثرة

تلمستها في البردة والهمزية فرأيتها تمشي على استحياء

تلمستها في كتب الأشياخ فأجابتني الكتب أن ليست هنا

تلمستها في المقامات فإذا هي لحوم ناضجة، ولكنها من حيوان غير مأكول اللحم
تلمستها في كتب السعد والجرجاني فرأيتها تحشرج على فراش الموت
تلمستها في شعر المولدين فإذا هي عجوز شمطاء في زي حسناء
تلمستها في المعلقات فإذا هي منجم يحوي ذهباً في جنادل وصخور
تلمستها في الجرائد فإذا هي خروق بالية وأديم ممزق...
وأخيرا تركت البحث... ثم عدت فوجدتها.
وجدتها رعداً يقصف من نبرات القرآن فوقفت خاشعا أمام معبدها
وجدتها ألقاً يلمع في مقالات بعض كتاب سوريا، فهززت يدي وصافحتها
وجدتها ورداً ذابلاً في مقالات بعض كتاب مصر فهتفت لها مبتسما
وجدتها في شعر المتنبي بتنوع يحاول الانفجار فلا يستطيع
وجدتها في نظرات المنفلوطي عروساً تزف ولكن بلا طبول
وجدتها في الريحانيات موجة تصعد وتهبط
وجدتها في كثير من شعر وكتابة مسيحي لبنان تسلس عن قيادتها.
ثم وجدتها في مترجمات فولتير وموليير وشكسبير، وبايرون، وجوته فقلت: واهٍ لمجد شعراء العرب.

الباحث في أعداد أم القرى يدرك أن أبناء الوطن قد عادوا إلى التراث العربي الأدبي لينهلوا من معينه الصافي، ويكشفوا عن جمالياته، التي اختفت عند أسلافهم الأدباء الأقربين عهداً حتى بداية القرن الرابع عشر وما سلف،واتخذ أدباء الجزيرة المعاصرون المنهج ذاته عند الأدباء والشعراء العرب مثل البارودي،وأحمد شوقي وغيرهم. وأكثر الأدباء تواصلا مع تلك المرحلة هو الأديب محمد سعيد عبد المقصود الذي كتب مقالات متتابعة في عام 1355هـ، ولم يقتصر على إحياء الأدب العربي القديم، بل كانت له نظرات في الأدب الحديث إلى جانب النقد العربي لأدب الأدباء الحجازيين المعاصرين.

والشاعر فؤاد شاكر أحد الذين رأسوا جريدة أم القرى، وقد كان يكتب فيها وينشر شعره على صفحاتها قبل عام 1356هـ، وكان يحمل اتجاها إسلاميا ملتزماً،وكتب عن فكر

الأدب قديماً وحديثاً، وكتب عن أحمد شوقي وقارنه بالمتنبيء، كما كتب عن ماهية الشعر، ودرس الشعراء العرب القدامى وعصور الأدب القديم، وكشف عن اتجاهاتهم الفنية،وقد كانت جُلّ كتاباته بين عام 1356-1358هـ.

ومن أشهر الكتاب الذين لهم آراؤهم، وكانت لكتاباتهم صدى يحمل فكرًا تنويرياً هو الكاتب محمد حسن كتبي، وقد ظهرت كتاباته عن الأدب في العدد 609 عام1355هـ - 1936م، التي تناول فيها الأدب العربي القديم ومصادره واتجاهاته، ثم عرج على الأدب الحديث وكُتّابه ونقاده وتحدث عن العوامل المؤثرة فيه، وعن معنى القديم والحديث، وحاول أن يقارن بين الرافعي والعقاد في مقالات متعددة، وكشف عن الاتجاهات المختلفة في الأدب الحديث من خلال هذه الدراسات.

وكتب الأديب أحمد العربي عن تاريخ الأدب الحجازي، وعن الحياة الاجتماعية، وله مقالة قصيرة عن أهمية الأناشيد للأمة، أشار فيها إلى الأناشيد التي كتبها محمد على، وتحدث عن أهمية تلاحم الأمة، وألمح إلى أن كتابة الأناشيد والأغاني تحتاج إلى قدرات فنية عالية المثال، وهي مضمون مقالته الواردة بأم القرى العدد 394 في عام1351هـ-1932م. وهذا يذكرنا بأول من دعا وكتب الأناشيد بمصر، رفاعة الطهطاوي أحد العلماء المستنيرين الذي اتصل بأسباب الحضارة الغربية، فالذين يدعون إلى ذلك هم أولئك الذين استناروا بالثقافة الحديثة.

ومن أقدم الكتاب يوسف ياسين أول رئيس لتحرير جريدة أم القرى لم نجد له نتاجاً مجموعاً لكن مقالاته تتصدر الجريدة، وتدل على شخصية أدبية وفكرية واسعة الاطلاع، ومقالاته كانت شمولية،منها الأدبي والفكري والاجتماعي، ومن مقالاته النقدية مقالة بعنوان صلة النقد بالحياة المنشورة بالعدد 570، والتي تناول فيها النقد بوجه عام للأدب والفكر والحياة.

ويوسف ياسين رجل علم شرعي وأديب وسياسي مفكر، وقد استطاع أن يقود الفكر في البلاد تحت رئاسته لصحيفة أم القرى رغم أن ذلك كان متزامناً مع بداية عهد تكوين دولة جديدة، ومع ذلك فقد تشكلت أم القرى من اتجاهات مختلفة، ولم تكن لساناً

ناطقا لشريحة أو فئة، وجنح فيها ياسين إلى الأخذ بالأمور في وسطية معتدلة، ولو أنصفه الباحثون لكان له صوته المميز وقد تصدى لكتاب الصحف المضادة للوطن بأسلوب لا عنف فيه، يهدف إلى إظهار الحقيقة انظر إلى قوله في إحدى مقالاته المنشورة على صفحات جريدة أم القرى ذات يوم: "نشرت البلاغ المصرية الغراء لكاتب ما يأتي:قرأت في أحد جرائد الثغر الأسكندري أن (وزير مالية الحكومة الحجازية يهودي)...وهذا خبر غريب نكذبه".

الشعر:

صاحبت صحيفة أم القرى أهم مرحلة في تكوين الدولة السعودية فهي أول جريدة تتحدث بلسان السلطة،وهي الصحيفة الوحيدة لسنوات خمس، وهي ميدان النشر الوحيد للشعر، ويمثل الشعر في أم القرى سجل الوطن تاريخاً وسياسة وعمراناً وبناء وحدة وطنية، ودعوة لتطوير المجتمع، ومن خلاله انطلقت الدعوات إلى بناء مؤسسات التربية والمعارف، والشعر يرفع صوت البلاد الإسلامية والعربية، ويدعو أبناء الأمة الإسلامية إلى الوقوف على المنجزات.

وقد رصدت قرائح الشعراء ألواناً من إعجاب الأدباء والنخب العربية المثقفة بإنجازات الملك عبد العزيز في بناء الدولة السعودية الحديثة؛ فقد ذهل كبار المفكرين من الإنجاز العظيم للملك عبد العزيز ومنهم أحمد شوقي، وشكيب أرسلان، والعقاد، وطه حسين، إلى جانب أعداد كبيرة من العلماء والشعراء مثل الريحاني، وفؤاد الخطيب، وعبد الحميد الخطيب، وعلي الطنطاوي وشيوخ الأزهر. كل هؤلاء وغيرهم دون الشعر إعجابهم ببناء هذه البلاد.

وقد دون الشعراء حركة التثبيت للحكم في الحجاز، وانضمام المدن والأقاليم. ودحض حركات التمرد، ثم اتجه الشعر إلى التغني بالوحدة الوطنية، ووقف الشعراء على أمن الحج وطرقه، والأمن داخل مكة المكرمة. وأرخ الشعراء للمؤتمرات واللقاءات،وتابع الشعر مسيرة اليوم الوطني وتسابق الشعراء إلى الإشادة بهذا التكوين الوطني المثالي الذي ظهر في بيئة عانت من الجهل والفقر والصراع القبلي والإمارات الصغيرة.

والقارئ لأم القرى لاشك يقف على صور ذلك من خلال شعر محمد بن عثيمين في العدد 70 عام 1344هـ 1926م والعدد 229 والعدد 281، وكذلك من خلال شعر صالح بن سليمان بن سحمان في العدد 280 عام 1348هـ 1930م، وكذلك من خلال أشعار عمر إبراهيم برى الذي نشر قصيدته الرائعة في العدد 53 عام 1344هـ-1926م، وكذلك من خلال إبداعات ثالث الشعراء النجديين الذين صاحبوا سلطان نجد الملك عبد العزيز، وهو الشاعر محمد بن بليهد، الذي سجل معركة (تربة)قبل ضم الطائف، ثم نشرت له أم القرى في العدد51 عام 1344هـ -1926م والعدد102 عام 1345هـ، ثم توالى النشر له. وسجلت أم القرى مطولة خالد الفرج في العدد 184 عام 1347هـ 1928م في أعداد متلاحقة. وتنوع الشعر في أم القرى من حيث موضوعاته واتجاهاته ومنها الأناشيد الوطنية للشاعر محمد حسين عرب في العدد 629 -1355هـ.

وصحيفة أم القرى لا ريب كانت ملحمة للوثائق التاريخية والسياسية والإبداعية لاسيما في الفترة مابين عامي 1343هـ حتى عام 1351هـ، ثم سرعان ما شاركته الدور الفكري والأدبي ونافستها جريدة (صوت الحجاز).

الكُتاب والشعراء

وظهور صحيفة أم القرى كان له دوره في تكوين شخصيات فكرية وأدبية، وظهور عدد من الشعراء والقاصين، كما تألق فيها عدد كبير من الكتاب الشباب. منهم يوسف ياسين، أحمد الغزاوي، فؤاد شاكر، عبد الحميد الخطيب، محمد حسن عواد، محمد سرور الصبان، ومحمد سعيد خوجه،وعبد الكريم الجهيمان، وعبد الوهاب آشي، وعبد القدوس الأنصاري، ورشدي ملحس، إلى جانب أعداد من الشباب كتبوا فيها بعض المقالات ثم تألقت شهرتهم فيما بعد.

ودونوا فيها شعر الشعراء الأوائل ومنهم: محمد بن عثيمين، وصالح سليمان بن سحمان، وعمر إبراهيم البري، ومحمد بن بليهد، وخالد الفرج، وأحمد الغزاوي، وفؤاد شاكر، وصالح بن عبد العزيز العثيمين.

المقالة التاريخية

كتب يوسف ياسين عن المعارك الدائرة بين الملك عبد العزيز وخصومه استهلالاً من 1334هـ-1924م، وقد أرخت أم القرى تلك الوقائع اليومية بدء من ضم الطائف وحربها ودخول مكة، والحروب والحصار حول جدة، وعن الحالة السياسية التي صحبت دخول الملك عبد العزيز للحجاز، ونظرة العالم الخارجي إلى تلك التطورات السياسية الكبرى في أرض الجزيرة. وقد حفلت الأعداد الأولى لصحيفة أم القرى بتأريخ خصيب لتلك الحروب والوقائع الاجتماعية، والقارئ العربي العزيز يستطيع بسهولة أن يلمس ذلك من خلال اطلاعه على الأعداد (من 3 إلى 48) الصادرة من جريدة أم القرى بتاريخ 1344هـ.

ولم يقتصر الأمر على ما كتبه يوسف ياسين وإنما تبارى الكتاب المناصرين للملك عبد العزيز في حقل الكتابة الصحفية، وطفقوا يكتبون بأسماء مستعارة، على نحو ما رأينا عند الكاتب الصحفي الذي كان يذيل مقالاته تحت اسم "كاتب خبير" فقد كتب من العدد 313 في 1348هـ-1930م حتى العدد 684 في 1349هـ-1931م، وكانت مقالاته أكثرها رصداً للوقائع والأحداث والانتصارات لجيوش الملك عبد العزيز.

ومن المقالات التاريخية ما كتب في الافتتاحيات، وكانت تتناول الوقائع اليومية للدولة وما يقوم به الملك عبد العزيز من إنجازات،وتحليل ما يصدر من قرارات سياسية، كما سجلت أحداثاً مهمة مثل وفاة الإمام عبد الرحمن الفيصل والد الملك عبد العزيز عام 1346هـ-1928م.

ثم توالت المقالات التاريخية المتنوعة ومن أشهر كتابها عبد القدوس الأنصاري، وعبد الله بلخير، وحمد الجاسر، وابن جهيمان، وأحمد العربي، ورشدي ملحس، وذلك من عام 1343هـ وتواصلت المقالات وتعدد الكتاب وموضوعاتهم.

المقالة الفكرية:

لقد أبدع العواد في مقالته الفكرية بعنوان "فلسفة الحياة العصرية"، حيث تناول الحديث فيها عن جملة من المبادئ والقيم التي تُعد ركائز أساسية لبناء المجتمع العصري على

أسس سليمة. وقد تجلت عبقريته وثقافته في جمعه مكونات الشخصية المبدعة المنجزة المتفانية المخلصة، تأمل قوله: "الحياة العصرية هي -كما يقول عنها الكثير الأكثر من الكتاب ليست في التمتع بالمواد الجثمانية فحسب، بل حياة مزدوجة من ذلك، ومن صبغ الفكر الإنساني بصباغ الآراء والنظريات الصحيحة المنقحة التي اكتشفها العلم الحديث، أو أنتجتها الآداب الراقية، وكانت ثمرة من ثمرات اللياقة البسيطة في الحياة اليومية المتداولة!

- عش حراً.
- كن مفكراً.
- اعمل لتعيش.
- اترك التقعر وحب الظهور الكاذب.
- اندمج بعادات بلادك الصالحة.
- ميز ما تراه.
- اندفع إلى التقدم.

هذه هي دساتير الحياة العصرية التي يريدها منا الفكر الإنساني العالي،والتي هي آخر ما وصل إليه فكر الإنسان من وضع سنن الحياة الكاملة بحذافيرها.

وإنها علاوة على كونها أكمل الأنظمة التي اختارتها عقول المفكرين للعيشة السعيدة، فهي أيضا أنظمة طبيعية خلق عليها الإنسان الفطري وارتقى إليها الإنسان المدني في أعظم أدواره حضارة وارتقاء".

كما كان طرحه الفكري لتعليم البنات مؤطراً للفكر الاجتماعي المتطور في ربوع المملكة العربية السعودية، تأمل قوله: "خذي نصيبك الواجب من التربية والتهذيب والتعلم والاطلاع والوطنية والشعور، وترسمي خطوات هؤلاء ولا أقول لك اسبقي، وانبغي، وترجمي، وحاضري، ولكن فكري واكتبي واقرئي واستعدي، وتعلمي ودعي التقليد، فأمامك مستقبل منير حافل بما حملته إلى الشرق وإلى الغرب وستحمله مدينة القرن العشرين.

ومعارف القرن العشرين، وأفكار القرن العشرين،ورقي القرن العشرين.دعي التقليد الفردي البليد، واسحقي الكسل الوراثي التليد.وحطمي قيوداً كنت ترسفين بها من أمد بعيد..

المقالات الفكرية:

قامت الدولة السعودية على بناء الفكر الإسلامي وحملت راية الدعوة السلفية وكان رمزها الأول ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولذا انطلقت الصحافة السعودية تحمل الفكر الإسلامي الرائد، وانبرى كتابها منذ البداية يعلون من شأن القيم الإسلامية، فقد كتب يوسف ياسين في العدد الثالث من أم القرى عام 1343هـ-1925م عن الحج، ذلك المؤتمر الإسلامي العالمي وعن طرائقه ووجوب الابتعاد عن البدع. ثم كتب في العدد 14 عن الأعياد والبدع في الإسلام، وكانت الدعوة الإسلامية وقتها تحارب التدخين فكتب عنه،وكتب عن التوحيد وإحياء السنة، وموت البدع كل ذلك مابين عام 1343هـ وعام 1344هـ. وكانت جل المقالات تنبع من وحي العلماء النجديين مثل الشيخ عبد الله بن بليهد رحمه الله الذي تولى رئاسة القضاء في مكة المكرمة.

ولم يقف الأمر عند هذا الإتجاه بل أخذت المقالات تتوالى على صحيفتي أم القرى وصوت الحجاز مثيرة جدلا كبيرا حول القضايا المعاصرة لها.

القضايا التربوية:

إن الباحث الذي يعود إلى تفحص مكونات الثقافة السعودية لاسيما الصحافة يدرك مدى الوعي عند المثقف الوطني؛ فبعد بداية العهد السعودي أي في عام 1344هـ-1926م نجد مقالات تعج بها الصحافة السعودية، تعالج القضايا التربوية، ومن أبرز تلك المقالات في رأينا مقال بعنوان بعث الإنسان" إن العنوان له دلالته الخاصة، فالإنسان لا ريب يُعد من الأموات إذا فقد التعليم، والعجيب أن يدرك الشاب محمد عواد ماهية التعليم، وما المناهج التي تبني إنساناً مثمراً مفيداً. تأمل فكره الراقي، وقلمه المبدع إذ يقول: "آهو؟هذا هو إحساسي الشخصي – على الأقل – قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ". وبعث التاريخ"م .

أولئك الأطفال الماثلين بين أيدي من يتعهدونهم بالتربية والتعليم والتوجيه هو لب الرسالة التي يجب أن تحملها المدرسة، وتحملها الأسرة ويحملها المجتمع.

ولقد شعرت بمرارة عندما عرفت أن هذه الوسائل الثلاث تمشي متباطئة في سبيل هذا البعث وربما لا تكتفي بالتباطؤ فتضيف إليه الاستهتار..فالتلميذ في المدرسة مهمل من هذه الناحية مع أنه هو المقصود بالذات من تشييد المدارس، والابن والبنت والخادم وربما الزوجة نفسها معهم في البيت لا يحسب حسابهم في بناء العائلة في حالة أن كلا منهم يقوم بدور فعال في تكوين الأسرة، والفرد الكادح -تاجرا كان أو موظفا أو عاملا صغير الشأن- لا ينال حقوقه كاملة في الجماعة التي يندمج فيها مهما يكن شأنها واسمها في الجماعات، بينما لا تقوم هذه الجماعة إلا بهؤلاء الأفراد واحداً واحداً،وكل عجز نفسي أو مرض أو فقر أو ذل يُترك لينمو في أي فرد إنما هو شلل وتأخر في جهاز الجماعة التي تهمله.. شعرت بهذا كله آنذاك فوجدتها مواداً تضيء طريق الإصلاح للذين يشتعل وجدانهم بواجب أداء رسالة الإصلاح نحو الوطن الذي يعيشون فيه ويعيشون له ويعيشون به، والأمة التي يقومون بها وتقوم بهم سواء عرفوا هذا أو لم يعرفوه، وللذين يريدون أن يصنعوا حياتهم من جديد على أسس صالحة للبقاء والتقدم..وشعرت بأن هذه النواحي الضعيفة هي أوائل العمل المثمر وليست موضوعات للكتابة وللخطابة الجديدين وحسب، فأردت أن يرتفع هنا صوت يحمل بذور الثورة على هذه الأمور ويبشر بحياة يجب أن تخلق من جديد بأيدي القادرين على الخلق الجديد".

ونتيجة للوعي العام عند ولاة الأمر وعند المثقفين وما قاموا به من إثارة لقضايا التعليم فإن الدول بادرت إلى وضع أنظمة التعليم في مستهل عام 1345هـ، ونصت المادة الثالثة والعشرون من "التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية "على أن "أمور المعارف العمومية هي عبارة عن نشر العلوم والمعارف والصنايع وافتتاح المكاتب والمدارس وحماية المعاهد العلمية مع فرط الدقة والاعتناء بأصول الدين الحنيف في كافة المملكة الحجازية"

وجاء في المادة الرابعة والعشرين أن أمور المعارف العمومية تدار من قبل مديرية ترتبط بالنيابة العامة، وقد افتتحت مديرية المعارف العامة العمومية أبوابها في غرة رمضان

1344هـ، وبدأ التدريس في مدارسها في غرة محرم 1345هـ، وفي السابع والعشرين من شهر محرم عام 1346هـ صدر الأمر الملكي الكريم بالموافقة على نظام مجلس المعارف،ومما جاء في ذلك النظام:

1- يشكل مجلس للمعارف برئاسة مدير المعارف العمومية.
2- يتألف هذا المجلس من ثمانية أعضاء - عدا الرئيس - أربعة من كبار الموظفين وأربعة من أهل العلم غير الموظفين ويعين الجميع بأمر ملكي.
3- تتلخص صلاحيات هذا المجلس في إقرار موازنة إدارة المعارف العمومية والموافقة على تعيين المدرسين الذين يرشحهم المدير والأشراف على المدارس ودراسة حالة الكتاتيب.

تحت عنوان (كيف تكونين؟) أول مقالة تعليمية عند العواد في عام 1345هـ، 1926م، طالب فيها فتاة الوطن بتعلم القراءة والكتابة، ثم تعلم الأدب والفكر. وقد ختم مقالته هذه بقوله:

"لبنات جنسهن،وللرجال أيضا سلي تاريخ الحجاز،بلادك ووطنك الخاص،عن أولئك وهؤلاء وكثير غيرهن.. خديجة بنت خويلد،عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر، فاطمة بنت النبي، الخنساء بنت عمرو، هند بنت عتبة، ليلى بنت لكيز، حفصة بنت عمر، الزباء ملكة تدمر، بلقيس ملكة اليمن، قتيلة بنت الحارث، سفانة بنت حاتم طي الخ.

ثم ألا يدهشك أيتها العزيزة!

ألا يدهشك أن هؤلاء بنات جزيرة العرب!؟

أو لا يدهشك أن جلهن حجتزيات؟!

خذي نصيبك الواجب من التربية والتهذيب والتعليم والاطلاع والوطنية والشعور، وترسمي خطوات هؤلاء.."

حاجتنا إلى تعليم البنات

ومن الأدباء الذين يدعون إلى التجديد بانفعال واندفاع الأديب أحمد سباعي وقد كتب مقالة جريئة تحت عنوان "حاجتنا إلى تعليم البنات" وكتب عن الأم الجاهلة وتأثيرها على بناء أبناء المجتمع. تأمل قوله: "إذاً فما بالنا نغضى عن إعداد الأمهات وتعليمهن على الأقل ما يلائم وظائفهن كمربيات وأمهات وربات أسر.

ويتطاول بعضنا فينادي بالثبور، ويصم أنصار الفكرة بوصمة التفرنج والخروج عن الدين، وينسى أن من مبادئ دينه فريضة طلب العلم على المسلم والمسلمة، ثم يتناسى تلك الصفحات من التاريخ المفعمة بأخبار أقطاب السيدات العربيات المسلمات المتعلمات وأثرهن البعيد في حضارة الإسلام وثقافته وعرفانه!. ويشدد النكير قوم يخافون من وراء تعليم البنات رفع صوتها كما لو كانوا يجهلون أخواتها في صدر الإسلام، أولئك اللاتي كن يخضن الصفوف، ويتخللن الرجال في حومات الوغى فيستثرن حماسهم،وبنات أبيهم أولئك كن يضرب إليهن أكباد الإبل للاغتراف من مناهل علمهن ومنابع فضلهن!. وتهلع قلوب فريق عندما تحدثه عن مدارس البنات، كأن بدعاً من الأمر أن يكون للبنات مدارس، وما مدارس البنات سوى كتاتيب (الفقيهات) القائمة اليوم بيننا مع تعديل طرقها الملتوية، وأساليبها العقيمة وقواعدها الضاربة في الفوضى إلى أبعد حد، وسن مناهج لها جديدة تدرج بالعقل فتربيه تربية صحيحة وتُعِدّه لتفهم مبادئ الدين على حقائقها، ومحاربة الخرافات والخزعبلات التي يتوارثها البنات عادة في بيوتهن من العجائز مخلفات القرون المواضي، ومن ثم تهيئتهن للحياة العائلية وتعدهن لسياسة البيت وتخصصهن في أصول التربية القائمة على أسس من المنطق والعقل.

هي ذي حاجتنا التي تهيب بنا لتعليم البنت،وهي كما يراها العادل،حاجة ماسة لا غنى لبلادنا عنها إذا كنا نريد لها رجالا نافعين وقُوّاداً عاملين !!"

كما كتب رئيس تحرير الوطن مقالاً مطولاً بعنوان "التربية الوطنية أساس في الأمة وواجب الآباء حيال الأبناء" يقول فيه في العدد 674 عام 1356هـ: "لا شك أن للتربية

الوطنية أثراً بليغاً في ترقية الأمة،وإعداد أبنائها إعداداً يتكافأ مع المهمة التي يلقيها على عاتقهم مستقبل الأيام".

الناحية الاجتماعية

تحت عنوان "أمة مهملة" عالج الكاتب قضايا الحجاز الاجتماعية، وتحدث عن التركيبة الحجازية التي شخصها عام 1344هـ-1926م بقوله: "كلمة قالها عن "الحجاز"-ويعني بها الأمة الحجازية-شاب أسود. نعم أسود البشرة، سوداني الجنس، من القارة السوداء، من القارة المظلمة، من أفريقا، من بلاد التوحش، من السودان، ولكنه مطربش ويرتدي حلة أفرنكية، ريدنكوت، وهنا السر.

الشاب كما ذكرت آنفا ولكنه مترب وكفى،إنه من الأمة التي رباها ومدنها الانكليز.

آه نعم وأبيك أيها الشاب الأسود !إنها أمة مهملة، تلك هي الأمة الحجازية التي عنيتها.وكم هي هي مهلمة إلى حد كبير ولا إهمال المتوحشين.

"أمة مهملة" كلمة آلمتني وايم الحق ولكنها على إيلامها هي الحق -وهي الحق كله - والحق مؤلم دائما. وإذا أخذت أنظر وأعتبر يسبقني هذا الخاطر فيصرخ بي: من هي الأمة الحجازية التي تنتسب إليها؟ أليست خليطاً من أجناس عديدة شتى ترجع أصولها إلى الهندي والمصري والمغربي والجاوي والبخارى والتركي والفارسي وفيها أيضا من يرجع إلى الأصل السوداني، أصل الأخ،كشعوب الولايات المتحدة المريكية تماما.

بلى حقيقة هذا الخاطر، لا ريب هي مجموعة أجناس متكونة في أمة واحدة وبعبارة أخرى مزيج متكون من أصول وعناصر متحدرة من غرب آسيا وشمال إفريقيا، لا تناسب بينها في شيء سوى الدين، ولكن يجب أن لا تبقى هذه الفكرة حائلا بين الأمة الحجازية، وبين وحدتها القومية المطلوبة التي أصبحت اليوم أنشودة الأمم الناهضة جمعاء، تسكر بخمرتها. وتسعى إلى تحقيقها.

الأمة الحجازية أو الحجازيون أمة واحدة تربطها روابط متينة متعددة،تربطها الأفكار، تربطها اللغة، يربطها الدين، يربطها الوطن، تربطها السياسة، أفلا يجب أن تكون -

كما هي الحقيقة - أمة واحدة من كل الوجوه؟ وعلى هذا الحساب يجب أن تتحمل كل مسئولية تتوجه إلى الحجاز والحجازيين، وأن تكون محافظة على وطنيتها متمسكة بعروبتها مهما تقلبت بها الأحوال. وإذا قيل أنها أمة مهملة-والحق يقال-فعليها أن تقبل هذه الكلمة ولو بمرارة وألم، وأن تفتح أعينها إذا كانت لا تريد أن تكون مهملة".

وقد عايش أحمد سباعي المجتمع الملكي، واستمطر الثقافة المعاصرة، ونظر ملياً في تطور الأمم، مما جعله يقف طويلا عند مكونات المجتمع الفردية والاجتماعية ويعالج قضاياه في عدد من المقالات، فهو يستنهض الأفراد، ويدفعهم إلى العمل والإنجاز والتعليم، انظر مقالاته "هات رفشك" و"حذاري أن تكون ضعيفاً" و"الذكاء الضائع في بلادنا" و"الجرأة: رجولة كاملة".

"هات رفشك"

ياصاحبي هات رفشك واتبعني!

هاته وقم في أثري ولاتسألني عن شي حتى احدث لك منه أمرا!

ألست من غراري أنت تعتلج في صدرك الآمال؟؟!

ألست من أضرابي تختمر في رأسك الأفكار؟؟!

ألست شابا مثلي تتمتع بدم قوي يجري في عروقك؟؟!

ألست نشيطا تستطيع ان تترك في الحياة أثرا؟؟!

قل أي وإذن أي أثر تركته في حياتك؟ وأي أمل مما يعتلج في صدرك،أو فكرة مما يختمر في رأسك حققت؟ أو أي خدمة أداها دمك القوي لبلادك؟؟!

ويكتب الغزاوي في العدد 118 عام 1345هـ من جريدة أم القرى عن التطور في خلال هذه المرحلة القصيرة من عمر الدولة تحت عنوان (بشائر التقدم):

"لاجرم أن كل منصف غيور على وطنه وبلاده إذا أرسل نظرة صائبة على الحالة الأخلاقية في البلاد الحجازية في الآونة الحاضرة، وقارن بها مثلها في الماضي القريب يعترف بوقوع تحول كبير.. ولا يسعني وأنا أختم مقالي أن أغفل أمر الحركة الاقتصادية وما يدور

فيها من حيوية وتقدم مطرد، فالمكاتب التجارية تواصل سعيها لجلب حاجيات البلاد وبيعها،.. والمتنورون من أبناء الوطن يعقدون الشركات في أنواع المتاجرات".

وكتب أيضاً عن مشروعات دار العجزة ودار الأيتام، وذكر أن أول إنشائها كان في عام 1353هـ وواصل كتابة تاريخها والدعوة إليها في العدد 670.

وقد سجلت أم القرى الفكر المنير المستنير لأبناء الوطن الأوائل، الذين طالبوا بتأسيس المؤسسات الاجتماعية،مثل دار الأيتام، بل نادوا بتكوين جمعيات لها، وتأسيس شركة للسيارات وللطائرات، وتكوين جمعيات الإسعاف (الهلال الأحمر)، كل ذلك في المراحل الأولى للدولة السعودية استهلالاً من عام 1355هـ، كما نادوا بمشروع اليتيم في عام 1356هـ-1937م، ومشروع دار العجزة، ودعوا في مقالاتهم إلى ضرورة التعاون والتكاتف من أجل صالح الأمة، ودعوا إلى مشروع (القرش)؛ لبدء النهضات الاقتصادية في مجالات مختلفة.

ومن أكثر الكتاب في موضوع الحراك الاجتماعي فؤاد شاكر، فقد كتب عدداً من المقالات من عام 1356هـ حتى عام 1364هـ، كما كتب عبد الحميد الخطيب مقالات متعددة عن المجتمع وعاداته وإسرافه وجهله، واقترح تنظيماً للمصروف اليومي، وأشار إلى الجهل بفن التدبير. وغيرها من القضايا الاجتماعية والوطنية. ولو أخذ بآراء أولئك الكتاب الرواد لتغير مجتمعنا إلى الأفضل، لكننا مازلنا نعاني من بعض الأمراض الاجتماعية.

ونحن نعجب من رصد الأوائل لحراك المجتمع وانتقاداتهم لعاداته السلبية، التي ما زال بعضها موجوداً حتى اليوم، كالإسراف في المديح، والإسراف في الولائم، والإسراف في الادعاء، والاتكالية والسلبية، انظر أم القرى عدد 625 عام 1355هـ-1936م، وكذلك أعداد 626، 652.

ويكشف الكاتب (الغربال)محمد سعيد خوجه عن ظاهرة التلاعب بالزمن والوقت، وأن المجتمع في غفلة وعبث؛ فيقول عن الوقت: "الوقت ثمين. الوقت من ذهب. الوقت يعمل فيه كل شيء فيجب أن نحافظ عليه بكل شيء، هكذا الوقت في نظر سكان أوروبا، والذي أصبحنا نقلدهم في السفاسف أما الأشياء التي من ورائها النفع فلم نقلدهم في شيء

منها..." (العدد391 عام 1350) كما يكتب مقالا عن كرة القدم في العدد 392، يذكر عدداً من الفرق الرياضية في جدة (الاتحاد، الرياض، الفلاح، والإخاء، والتآلف، والاتفاق، والنجاح)

وكتب أحد الكتاب تحت توقيع "متألم" عن الصحافة الحجازية ونصيبها في إصلاح المجتمع فقال في العدد 653 عام 1356هـ-1937م: "للصحف الشأن الأعظم في إصلاح المجتمع، حيث المدرسة الثانية للشعب والمعلم الثاني في إبراز حقائق الحياة المجهولة، والكشف عن معالم الحياة والإيضاح للرأي العام عما يحدث في العالم من تطورات في نظام المجتمع، وحوادث تمس نظام الحياة عامة، والحياة الاجتماعية خاصة وتؤثر فيها تأثيرا عظيما..."

تعليم المرأة في الشعر السعودي

بحث علمي مقدم إلى مؤتمر في جامعة

الإمام محمد بن سعود

بقلم

أ.د. مسعد بن عيد العطوي

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونصلي على رسوله صلى الله عله وعلى آله وصحبه وسلم وبعد...

قامت الدولة السعودية على أنقاض تركيبة مختلفة من التنازعات الفكرية مع اشتراك الجميع في المعتقد الإيماني، وتقديس النص القرآني، والأخذ بالسنة المحمدية، لكن الاختلاف كان نتيجة التكوينات السكانية والمكانية والتعليمية، أو عدمها، فالالتزام والأخذ بكافة مبادئ الإسلام: الواجب، والمحرم، والسنة، والمباح، والتطبيق الإلزامي للحدود كان موجوداً في ربوع الجزيرة، غير أن هناك أجزاء من الجزيرة لم تعهد هذا الإلزام الصارم، وإنما يحاسب الفرد ذاته، وهناك التواصل الثقافي الذي تشكل في الحجاز، بل له وجوده من قبل بظهور المذاهب جنباً إلى جنب، ثم جاءت الدولة السعودية، واختلف المجتمع حول استيعاب المتجدد المعاصر، ومنه تعليم الفتاة.

فهناك شريحة تحذر من تعليم الفتاة، الذي لم يسبق له مثيل من قبل، وهناك فئة دعت إليه لاطلاعها على معالم التكوين الحضاري المعاصر، لذلك كان اختلاف وجهات النظر في تلك القضية مصاحباً لبداية عهد النهضة، ولم يبن على الحوار المعتدل، وإنما على التصادم الحاد والمواجهة، مع أن الأمر يحتمل الوسطية من الطرفين؛ فالتعليم أمر لابد منه بالنسبة للفتاة، شريطة الالتزام، وهذا ما حدث بعد ذلك بثلاثين سنة، حيث أعلن تعليم البنات، لكن الغريب في الأمر أن ذلك الصراع مازال موجوداً في بلادنا، ولعل الحوار الذي أخذ يطرأ برعاية خادم الحرمين الملك عبد الله ينقي الخلاف بين الفريقين.

وقد كان الشعر سباقاً للكشف عن ظواهر الاختلاف، فهذا محمد حسن عواد، يقول بصراحته المعهودة، وهجومه المندفع:

ضجوا وإن ضجيجهم لا للهدى ولا للسلام

يبغون بالضوضاء سيطرة تساق على الزحام

ويقابلون الفكر حراً بالوهوم وبالعرام

متألبين كما تكون الناهشات على العظام

مرضى وفي أرواحهم شبق الصغار إلى الخصام

يعظون باسم الذين من فتحوا الطريق إلى الأمام

لكأنما الدين الحنيف بضاعة الشيخ الإمام

يا هؤلاء المواتف بالحلال وبالحرام

والصاخبون على الصراحة والثقافة والذمام

من دون أن يتفهموا روح الخصام أو الوئام

ما في الديانة أن يحارب من يثور على الظلام

متفتقاً عما يذود النائمين عن المنام

آيُ الكتابِ جلية أبداً تسدد كل رام

يقضي بمنطقه السليم على السخافة والقتام[1]

توحدت الدولة السعودية عام 1351هـ، ولم يكن هناك مدارس ابتدائية على المستويين الحكومي والأهلي، ولكون الإدارة التعليمية برزت في مكة المكرمة، ولأن الثقافة في الحجاز أكثر تنوعاً وتواصلاً مع البلاد العربية في مصر والشام، فقد ظهرت عندهم المناداة بالتعليم مبكراً، حيث استهلها محمد حسن عواد، وطالب بتعليم الفتاة في كتابه "خواطر

(1) محمد حسن عواد الراعم أو بقايا الأمس 184

مصرحة" الصادر في عام 1345هـ، وقبل هذا وبعده كانت ثمة كتاتيب للبنات في مكة المكرمة، يشرف على تدريسها بعض المعلمات، وربما كانت المعلمة تدرس البنين والبنات معاً كما أشار إلى ذلك أحمد السباعي في مقالاته ودونها في قصصه.

في عام 1351هـ قام بعض الشخصيات بإدخال بناتهم ضمن المدارس العامة، ولكن سرعان ما قاموا بإخراجهن من المدرسة[1]، ثم افتتح محمد صلاح جمجوم مدرسة للبنات في جدة عام 1351هـ، وكان عدد طالباتها 300 طالبة، واستمرت ثلاث سنوات، وكان التعليم فيها معتمد على العلوم الشرعية، وليست ضمن المناهج التعليمية.

وهناك عدداً من المدارس في مكة المكرمة منها: مدرسة هزازية، ومدرسة الفتاة بمحلة القرارة، وهي نظامية على منهج المعارف، وهناك عدد من الروضات في مكة وجدة والمدينة المنورة والرياض، افتتح أقدمها عام 1378هـ[2]، وقد تمنى المثقفون في الحجاز بناء المدارس مع انتقال السلطة إلى الدولة السعودية.

كتب محمد حسن عواد قصيدة بعنوان "داعي الوئام"، نشرت في بريد الحجاز عام 1344هـ، وهو يطالب فيها بالحرية الصحفية، وفي ختامها أشار إلى تعليم البنات:

ايـــــه فتياتنـــــا وآل أبينـــــا
آن ألا نـــسح دمعـــاً ســجاما
آن أنـــا لحـــول الـــسمع منـــا
ســـيل فكـــر يبـــدد الآلامـــا [3]

والعواد ينادي نداءً ضمنياً إلى تعليم المرأة بمقارنتها بالمرأة في أوروبا، وهو يذكر بمجد العرب سابقاً، ويدعو إلى النهوض والتطور:

---

(1) انظر التيارات لعبد الله عبد الجبار 1 182

(2) انظر تاريخ التعليم في مكة – عمر عبد الجبار - 282

(3) محمد حسن عواد – ديوان بقايا الأمس - الجزء الأول – 42

فهـــــــل فكـــــــــروا أن يرجعــــــــــوه مجـــــــــدداً
نـــــــرى فيـــــه أخيــــه الغـــــرب أطفـــــال أمـــــة
أهــــــابوا بـــــــه يبغـــــــون فيــــــه التفـــــــردا
نـــــــرى آنــــــسات فيـــــه غيــــــداً وكواعبـــــــا
إلى نيلـــــــه العليـــــــاء يمـــــــشين خُـــــردًا [1]

وأقدم قصيدة صريحة من الشعر قصيدة محمد حسن عواد في ديوانه الأول آماس وأطلاس، حيث ناشد المجتمع أن يمنح الفتاة فرصة التعليم، استمع إليه في قصيدته "المرأة":

طفلــة قــد جــاوزت خمــس سـنين
غــضة الحــسن كغــصن اليــاسمين

خطــرت ترفــل في ثــوب الــصبا
تعطـــف القـــد يـــساراً ويمـــين

جـــلّ مـــن صـــورها في قالـــب
يملـــك اللـــب ويـــسبي النـــاظرين

فـــوق مـــا أودع مـــن أســـراره
روحهـــا الـــسائر بـــين العاشـــقين

فهـــي شمـــس في البهـــا أو دميـــة
أو غـــزال نـــافر مـــن صـــائدين

وهـــي مهـــد الطهـــر والعفـــة بـــل
هيكـــل الحـــسن الإلهـــي المـــبين

وهـــي مجمـــوع المعـــاني عنـــد مـــن
عرفـــوا حكمـــة رب العـــالمين

صـــاغها الله مثـــالاً قائمـــا
صـــافي المعـــدن كالمـــاء المعـــين

هـــي مـــرآة المعـــاني والمنـــى
مـــسبح الأفكـــار مرمـــى الآملـــين

هـي سـر البحـث في الـشرق وقـد
ضـــج فيهـــا حكمـــاء الأولـــين

وهـــي موضـــوع التعـــالي والعـــلا
كـــم عنـــى تهـــذيبها مـــن نـــابغين

فأوروبـــا رفعـــت مـــن شـــأنها
إذ رأتـه اليـوم مـن أسمـى الـشؤون

وبنـــو الـــشرق أجلـــوا قـــدرها
حقبـــاً ثـــم أضـــاعوها ســـنين

---

(1) محمد حسن عواد – ديوان بقايا الأمس – الجزء الأول - 26

واجـب تهـذيبها فهـي لنـا الأم	والزوجـة والحـصن المكـين
هـي تعطـي الطفـل مـن مبدئـه	وجهـة الفهـم وسـر المـدركين
فـإذا أهدتـه مـن فطرتهـا	حكمـة أم طريـق النـابهين
وإذا مـا نفثـت فيـه علـى جهلـها	الجهـل نـأي في الخـاملين
ففتـاة الـشرق في الـشرق هـدى	وبنـات الـشرق أسـاس الـدين[1]

تعليم الفتاة:

القضية التعليمية استحوذت على عقول كثير من الأدباء الأوائل في بلادنا، فدعوا إليها، وعالجوا مشاكلها، ورسموا خططها في مقالات متعددة، لا سيما قضية تعليم المرأة، من بين هؤلاء الأدباء أحمد سباعي، الذي نادى بتعليم المرأة في مقالة في كتاب صدر عام 1355هـ، ويعالج القضية بقوله: "يتطاول بعضنا فينادي بالثبور، ويصم أنصار الفكرة بوصمة التفرنج والخروج على الدين، وينسى أن من مبادئ دينه فريضة طلب العلم على المسلم والمسلمة، ثم يتناسى تلك الصفحات من التاريخ المفعمة بأخبار خطب السيدات العربيات المسلمات المتعلمات".

ويقول: "وتهلع قلوب فريق عندما تحدثه عن مدارس البنات، أن بدعاً من الأمر أن يكون للبنات مدارس، وما مدارس البنات سوى كتاتيب (الفقيهات) القائمة اليوم بيننا مع تعديل طرقها الملتوية، وأساليبها العقيمة، وقواعدها الضاربة في الفوضى إلى أبعد حد، وسن مناهج لها جديدة تدرج بالعقل فتربيه تربية صحيحة وتُعِدّه لتفهم مبادئ الدين على حقائقها، ومحاربة الخرافات والخزعبلات التي يتوارثها البنات عادة في بيوتهن من العجائز مخلفات القرون المواضي ومن ثم تهيئهن للحياة العائلية وتعدهن لسياسة البيت وتخصصهن

---

(1) العواد، الديوان 1 75 الطبعة الأولى 1398هـ-1978م

في أصول التربية القائمة على أسس من المنطق والعقل[1]، كما عالج أمين العقيل قضية التعليم كاملة، وطرائق التدريس والمناهج[2].

وينطلق أول صوت يعلن المطالب الاجتماعية لتعليم المرأة من نجد، على لسان الشاعر الحافظ عبد الله بن خميس في عام 1373هـ، وهي دعوة صريحة إلى لافتتاح مدارس البنات، وابن خميس يحمل هاجس الأم، ويدعو إلى النهضة والتطور، ويرى أن من معوقات النهضة الجهل للرجل والمرأة،ثم كيف التؤام بين الرجل المتعلم والمرأة الجاهلة، إن في تعليم الرجل، وترك المرأة خلل في التركيبة الأسرية والاجتماعية ثم خلل في التربية، فإن الجاهلة قلّ أن تربي أجيالاً متعلمة.

رتل الأنغام لحناً مطربا ... واملأ الكون بياناً مسهبا

يتحدى الطير في أغصانها ... تبعث الألحان من أعلى الربى

رافع الرأس فخورا يبتغي ... عن قريب أن ينال الشهبا

بعد أن كان مهيضاً خانعا ... كلما جدّ به السير كبّا

يرقب الأقوام سارت حوله ... معلمات تتحدى السحبا

وهو ينعي عند قومي حظه ... مشفقاً من وأده مرتقبا

فارقبوها نهضة علمية ... يشهد العالم منها عجبا

يرجع التاريخ فيها نفسه ... ويشع النور من حيث خبا

حين كنا أساتيذ الورى ... ولنا الأرض أصاخت حقبا

كيف صرنا بعد هذا عالة؟ ... في خنوع أبلغ السيل الزبى

إنه الجهل إذا ما حلّ في ... عقر دار كان موتاً أقربا

يا نصير العلم هل من شرعة ... تمنع التعليم عن ذات الخبا

---

(1) محمد سعيد عبد المقصود وحي الصحراء- 93 95

(2) المرجع السابق- 183

إنهــــا في ذاتهــــا مدرســــة　　　إن خبيثـــاً أنجبـــت أو طيبـــا

فمعــــاذ الله أن تبقــــى بنـــا　　　دميـــة للـــهو فينـــا تجتبـــى

وإذا مـــا ثقفـــت فتياتنـــا　　　أعلنـــوا ضـــد النـــساء الحربـــا

وانـــبرى كـــلّ يقاســـي دهـــره　　　ويعـــيش الـــنشء فينـــا أعزبـــا

كيـــف يرضـــى عـــالم جاهلـــة　　　تقلـــب البيـــت جحيمـــاً ملـــهبا

يخـــرج الأطفـــال منهـــا صـــورة　　　إن ينـــالوا العلـــم ضـــلوا الأدبـــا

أنـــا لا أدعـــو لأن تخرجهـــا　　　لتحـــاذي بالرجـــال المنكبـــا

أو تنـــادي بعقـــوق أو تـــرى　　　هتكـــت بـــين الرجـــال الحجبـــا

إنمـــا الإفـــراط فيهـــا خطـــل　　　وكـــذا التفـــريط فيمـــا وجبـــا

ســـنة الإســـلام في وســـط　　　شـــاء مـــن يبغـــي التعـــدي أم أبـــى

يـــا نـــصير العلـــم مـــن أدوائـــه　　　بيننـــا فقـــد المربـــي المجتبـــى

لا يربـــي الـــنشء إلا حـــاذق　　　لـــيس مـــن أملـــى الهجـــا أو كتبـــا[1]

والشاعر إبراهيم علاف يغتبط بالعهد الجديد للتعليم على يد سمو الأمير فهد بن عبد العزيز (خادم الحرمين الشريفين) عندما تولى أول وزارة للمعارف عام 1373هـ، ويرى أنه فاتحة عهد جديد، ويدعوه إلى افتتاح مدارس للبنات، فلهن الحق كما للبنين الحق في التعليم، وهو من أوائل الشعراء الذين صرحوا بهذا المطلب أمام ولاة الأمر، وقد عرض عليه مشكلة بقايا الكتاتيب للبنات والبنين، لتضاف إلى موكب الوزارة، فقد أدت دورها وحان الآن الاستغناء عنها بالمدارس الحديثة، ومن ثم فقد أنشد يقول في إحدى قصائده في 5-5-1373هـ:

مـــاذا أرتـــل مـــن فخـــر وتنويـــه؟　　　حسب الثقافة ما قد رحت تنويه

---

(1) عبد الله بن خميس - على ربى اليمامة 567 الطبعة الثانية - 1403هـ 1983م

عهد جديد به الإصلاح مغتبط ... قد اشرأبت له شتى نواحيه
هذي الكتاتيب قد أدت رسالتها ... وفات عهد لها كانت تناغيه
يشكو الصغار إليكم سوء حاضرهم ... فيها، وأضرارها في كل توجيه
أولى الرعية بالإشفاق ليس لهم ... من عجزهم حيلة إلا تناسيه

وهناك مدارس ليلية أهلية مكافحة الأمية يطالب بضمها إلى المعارف؛ ليكون لها القدرة على مواصلة رسالتها:

وشد بفضلك للطلاب أبنية ... تؤوي الغريب ومن وقت حواشيه
واشمل بعطفك واستصلح مؤسسة ... شعبية جهدها في البعث تعطيه
ضمت شباباً أراد العيش طلبتهم ... من الدراسة قسراً في دواعيه
كم بينهم من ذكي الفهم ذي هبة ... وقدرة تتجلى في أياديه

ثم هو يعرض لتحديث المناهج، ويرى أن تلامس الواقع، وأن تخضع لدراسة تنأى عن الفوضى:

وللمناهج فوضى لا نبوح بها ... لغيركم تتحدى أي تنزيه
شطت عن الغاية القصوى وطاش بها ... عقل الشباب وأبلى في تلويه

ويدعو إلى تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام:

وللغات لدينا نظرة شحبت ... وما لأضيافها بيت تُولّيه

وهو يعرض على الأمير قائد التعليم رجاءً يطالب فيه بتعليم الفتاة السعودية، فالإسلام لم يحرمها من ذلك، بل دعا إلى تعليمها:

وللفتاة رجاء لولا الحجاب لما	وقفت عنها لديك الآن أبديه
العلم في شرعة الإسلام مشترك	ما كان وقفاً على بعض فيحويه
وأفضل العلم ما يرعى أنوثتها	حذار أن تبتلى فيه بتشويه
والأمهات إذا ما كنّ في سفه	فاحكم على الجيل أن النقص حاديه
و للوراثة عرق لا تدب له	عوامل الوهن أو يُرجى تفانيه

ويتقبل الحماسة التي يبديها الشعراء للتعليم، فهو يرحب بقول الشاعر:

أنا نحس فراغاً في مرافقنا	وتحت أعصابنا فيض نعانيه
إنا لنرقب عهد البعث في ثقة	وحاطك النجع فيما أنت تنويه

والشاعر محمد سراج خراز الذي يعمل في مجال التربية من عام 1369هـ شهد رعاية خادم الحرمين للتعليم، وعاصر تكوين أول وزارة للمعارف عام 1373هـ، وقد سطّر تلك الحادثة في قصيدة، دعا فيها إلى وجوب تطوير مرفق التعليم، وتأسيس جامعات ومبانٍ تعليمية، والقيام بحركة علمية مزدهرة، وحركة صناعية، وتمنى أن يُعطف على المعلم[1].

وأمنياته قد تحققت على يد قائد التعليم، فشيدت المدارس، وانتشرت في كل حي وكل قرية، وشيدت أول جامعة تحت ريادته، وهي جامعة الملك سعود في عام 1377هـ.

والشاعر حتماً شهد الحركة الصباحية من فتيان وفتيات ومعلمين ومعلمات، كل مولي وجهته إلى التعليم، تأمل قوله:

---

(1) إبراهيم علاف - الديوان

يـا سمـو الأمـير إنـا عقـدنا — بـك آمالنـا شـيوخاً ومـردا
قـد قطعنـا في العلـم شـوطاً ولكـن — منـك ترجـو الـبلاد أبعـد قـصدا
جامعـات تـشع بـالنور دفـا — قـاً وتـستأصل العـدو الألـدا[1]

والقارئ لشعراء بلادنا يدهش من متابعتهم للأحداث، وتطلعهم الفكري ووعيهم، وإلحاحهم على الإصلاح، فلم يمض على توحيد البلاد تحت قيادة الملك عبد العزيز رحمه الله ست سنوات حتى انتشر التعليم، وجعل الشعراء ينادون بافتتاح مدارس محو الأمية لمن فاتهم قطار التعليم. فالشاعر حسين عرب يدعو إلى ذلك في عام 1357هـ، فقد رأى أن البلاد بحاجة ماسة بعد أن توحدت إلى أن تستثمر الأمن في التصدي للجهل والقضايا الوطنية الكبرى، ففي قصيدة بعنوان "محو الأمية" دعا فيها إلى نشر التعليم وإصلاحه :

آن أن يثمـر الـشجر — فـاجتنوا أينـع الثمـر
وانعمـوا بالحيـاة بـسامة — الثغـر بـالوطر
وانـشدوا في حيـاتكم — مجـد ماضـيكم الأغـر
غـالبوا الجهـل فالحيـاة — غـلاب لمـن صـبر
وانـشروا العلـم إنمـا — سـاد بـالعلم مـن ظفـر

ويشير إلى أن المدارس في المملكة قد افتتحت، فأقبل إليها عدد كبير من الذين تجاوزوا العاشرة، أو شبوا عن الطوق، فمكثوا فيها بضع سنين، ثم مارسوا العمل نهاراً، والدراسة ليلاً، وجلّهم ينتمي إلى وزارة الدفاع، وقد أجبرتهم الحياة على ذلك، لأن كل منهم مسؤول عن أسرة.

---

(1) محمد سراج فراز – غناء وشجن – 13

إن في الشعب أخوة ... شأنها الجهل وابتسر
فاتها العلم في الشباب ... وفي معيشة الصغر
فانبرت تكدح الحياة ... شقاء وتصطبر
قطعت صيف يومها ... والتظت فيه بالجهر
ترتجي العيش في جحيم ... من الكد مستعر
وإذا الشمس أدبرت ... وإذا أشرق القمر
عكفت عن سبيلها ... تنشد العلم في الكبر
أنفقت في طلابه ... كل غال ومدخر
حظها في حياتها ... عرق الكد والكدر
كم لنا في الحياة ... عبرة بعدها عبر
نالنا من شرورها ... ما تبقى وما اندثر
ذكريات لنا توالى ... بأضرارها الضرر

ويحث الفرد ليطلب العلم، ويشير إلى مسؤولية أولئك القائمين على التعليم، فيجب عليهم أن يهيئوا سبله، ويشرعوا موارده للناهلين منه ليلا ونهاراً:

شادها الجهل لا رعى الله ... في الجهل من عذر
علموا النشء وانشروا العلم ... في البدو والحضر
لا تنالوا بلومكم ... جاهلاً ضيع العمر
إنكم سر جهله ... وتفانيه في الهذر
إنما يرجع الملام ... عليكم مدى الدهر
واتقوا الله في الألى ... آد مسعاهم القدر
خطر الجهل شأنهم ... فادرؤوا عنهم الخطر
فمن العلم ما أعز ... شعوباً من البشر

والعلم فيه درء للشر، وبناء للوطن، وصلاح للمجتمع، ويختم قصيدته بالدعاء للمسؤولين الذين بادروا إلى افتتاح المدارس:

ومـــن العلـــم مـــا تهلـــل عـــن طيـــب الأثـــر
إن في العلـــم للـــبلاد عـــن الـــشر مزدجـــر
وفـــق الله عـــاملاً بـــذر الخـــير فابتـــذر
ورعـــى العـــصبة الألى غرســـوا ذلـــك الثمـــر
في ســـبيل الحيـــاة تبـــسم والمجـــد يزدهـــر
وجـــزى الله محـــسناً نـــصر العلـــم فانتـــصر[1]

والشاعر المعلم يوسف عبد اللطيف أبو سعد يتحدث عن محو الأمية، في يوم محو الأمية الذي يذكر بها في كل عام.

ومن الجنوب ينطلق الشاعر سلمان بن قاسم الفيفي وهو من الأجيال الأولى، ليدعو إلى تعليم المرأة، ويأتي بالحجج الصادقة، والبراهين الماثلة في أمهات المؤمنين، فمن الإنصاف لها أن تفتح مدارس لتعليمها:

يـسمو الفتـى بـالعلم والإيمـان وكـذا الفتـاة هـي الجنـاح الثـاني
صـنوان في الـدنيا تفجـر منهمـا نهـر الحـضارة لـبني الإنـسان
أيجـوز في الـشرع الـشريف لعاقـل أن يحـصر التعلـيم في الفتيـان
قـد شـرف الله النـساء بـسورة واعـزهن بمحكـم القـرآن
حـواء يحـدوها الطمـوح لعلـها تـبني كيانـاً ثابـت الأركـان
أو مـن يربـي الـنشء أيـام الـصبا ويمـده بالحـب والإيمـان

(1) حسين عرب - المجموعة الكاملة - 2: 226

غير التي بذلت عصارة روحها ... لله في عمل وفي إحسان
أم النبيين الذين تحصنوا ... بالطهر من رفث ومن أدران
أم البنين والبنات وموئل ... عند الشدائد للكسير العاني
أم الملوك وأم كل مجاهد ... أم الحماة القادة الشجعان
أم العباد الساجدين وجوههم ... تعنو لمبدع هذه الأكوان
أم الشهيد يفوح من شريانه ... مسك ومنظره نجيع قاني
وإذا استنارت بالعلوم فإنها ... تسمو بمجتمع عظيم الشان
بالدين والأخلاق تقتحم الردى ... لتقيم صرحاً شامخ البنيان
والعلم ينبوع الجميع ومنهل ... يروي لهيب الظامئ العطشان
والعلم تهذيب ونشر فضيلة ... وحصانة من نزعة الشيطان
فتحية للعاملات بهمة ... مقرونة بالحب والعرفان
ونقول للاتي أنرن طريقنا ... شكراً وتقديراً مدى الأزمان[1]

ويشيد الشاعر الدكتور/ أسامة عبد الرحمن أستاذ الإدارة في جامعة الملك سعود صعود المرأة إلى الفضاء، وقدرتها على أن تكون واحدة من العلماء المكتشفين والباحثين، وهو يرمز إلى تخلف تعليم المرأة:-

طيري إلى الأجواء لا تتمهلي ... أبداً وفي أعلى الفضاء توغلي
وارقي إلى دنيا الكواكب واكشفي ... أسرار ما في الكواكب واجتلي
واحكي لنا قصصاً من المجد الذي ... أفنى أساطير الزمان الأول
سبحانك اللهم نورك آية ... من ومضة منه الليالي تنجلي
إن قدتنا لنطوف أول مجهل ... فاكشف لنا ما وراء المجهل

(1) سلمان الفيفي ، مرافئ الحب ، تحقيق عبدالله الفيفي ، نشر نادي جازان الأدبي الطبعة الأولى 1428-2007

ملكوتـــك الجبـــار لـــيس يحيطـــه عقل وإن طـاف الكواكـب مـن عـلّ
حواء كيف صعدت شاهقة الذرى كيـف ارتقيـت إلى الفـضاء المـذهل؟
كيـف انطلقـت إلى الـسماء طليقـة ونزلـــت الجـــوزاء أعلـــى منـــزل؟
هـــلا نظمـــت مـــن النجـــوم قـــلادة ومـن الهـلال صـنعت أعظـم مغـزل
هـــلا نقلـــت لنـــا مـــشاهد مـــن عـــلّ فيهـــا نـــشاهد صـــورة المـــستقبل
وبعثـت في العقـل الطمـوح لرحلـة جبـــــارة في أي يـــــوم مقبـــــل
وحملـــت لـــلأرض الـــسنا متالقـــاً وغمـــرت بالآمـــال كـــل مؤمـــل
لنـــرى الحيـــاة وقـــد تبـــدل وجههـــا والـــورد أينـــع في مكـــان الحنظـــل
والنـــور مـــزق كـــل أقنعـــة الـــدجى والبـــوم ولى بعـــد شـــدو البلبـــل[1]

و الشاعر محمد جدع و هو من شعراء الجيل الأول يدعو الرجل ليتخذ المرأة قرينة له في الحياة العلمية و المعرفية، فهما متعاونان، يشد كلاهما أزر الآخر :

ألـــست تـــرين بحـــق الفتـــاة وأنـــت الفتـــاة لعهـــد جديـــد
ألـــست تـــرين صـــروف الزمـــان تهـــبّ علـــيّ بوقـــع شـــديد
ألـــست تـــرين بـــأني وحيـــد أشـــق طريقـــي لـــسير بعيـــد
ألـــست تـــرين كفـــاح الحيـــاة بعـــصرك هـــذا خطـــير شـــديد
ألـــست تـــودين أن تمنحـــي مـــن الجهـــد قـــسطاً لحـــب وطيـــد
ألـــست تـــودين أن تـــسعدي بنيـــل البـــنين بعـــيش رغيـــد
أم الجهـــل يـــسلب منـــك الحجـــى فـــلا تـــشعرين بقـــولي الـــسديد
فكـــي قيـــودك قبـــل الفـــوات فمـــا القيـــد إلا لـــذل العبيـــد
وســـيري بجـــنبي لمجـــد الحيـــاة لنعمـــل جمعـــاً لعهـــد جديـــد[2]

---

[1] أسامة عبد الرحمن – شمعة ظمأ–ص98-99 الطبعة الأولى 1403 1983 جدة تهامة

[2] محمد جدع – المجموعة الشعرية الكاملة دار البلاد نادي جدة عام – 1404 هـ – 1984م

ولم تلبث الفتاة السعودية بعد تعليمهن أن تفتقت مواهبهن بالكتابة والشعر، فكتبن في الصحف، ونشرن إبداعهن الشعري، فقد قال عبد الله عبد الجبار: "وللسيد إسحاق عزوز – وهو مدير مدرسة الفلاح بمكة، وأحد المؤثرين في الحياة الفكرية والاجتماعية بقلب الجزيرة – ابنة في السادسة عشرة من عمرها واسمها ليلى، تفتحت مواهبها الشعرية، بعد أن قرأت ما وقع في يدها من دواوين الشعر قديمها وحديثها بمكتبة والدها ومكتبة غيره، وانطلقت تناجي ربة الشعر بالقصيد، ومن شعرها قصيدة نشرت بجريدة الندوة في ركن زاوية الشعر بصفحة رواق السيدات، ننقلها فيما يلي صورة من إسهام المرأة في حياتنا الأدبية:

فتـــاة عروبتنـــا أســـرعي لركـــب الحيـــاة ولا ترجعـــي
هلمـــي إلى حاضـــر مـــشرق وفي ظلمـــة الليـــل لا تهجعـــي
تفـــاني لإرجـــاع مـــا قـــد مـــضى وروي الفـــؤاد بـــه واجرعـــي
ولا تـــصبحي صـــورة قـــد بـــدت تماثيـــل أشـــباحها لا تعـــي
فـــإن الزمـــان زمـــان العـــلا فـــسيري إلى الهـــدف الألمـــع
أرى الكـــل ذاق رحيـــق الحيـــاة وخـــاض الغمـــار ولم يقنـــع
وأنـــت تـــذوقين مـــر الحيـــاة أمـــا تنظـــرين إلى المطلـــع
فهـــبي ابنـــة المجـــد واســـتيقظي لـــداعي الفـــلاح ولا تجزعـــي
وهيـــا اقـــشعي عنـــك تلـــك الغيـــوم بعـــزم وجـــد ولا تفزعـــي

ويرى عبد الله عبد الجبار أن قبول التعليم في مدينة بريدة وعنيزة يمثل حدثاً مهماً، واختراقاً لحاجب الصد ضد تعليم الفتاة، وفي رأيي أن أهم حدث تعليمي في منطقة نجد هو إنشاء أول مدرسة ابتدائية منظمة في عنيزة، وبريدة، وغيرهما من البلدان[1].

---

(1) المجموعة الكاملة للمفكر، عبد الله بن عبد الجبار – 1 . 184

كان المجتمع وكثير من طلبة العلم في ريبة من تعليم الفتاة، وقد حدث في ذلك جدلا كبيرا في الصحافة، وفي مجالس الملوك والأمراء، ومداولات بينهم وبين العلماء، وحاول ولاة الأمر إقناع العلماء بذلك حتى تم ذلك علي يد الملك فيصل رحمه الله.

وفي ربيع الثاني عام 1379هجري صدر مرسوم ملكي كريم يقضي بوجوب فتح مدارس لتعليم البنات في المملكة العربية السعودية، وقد نص المرسوم الملكي الكريم علي ما يأتي: "الحمد لله وحده وبعد، فلقد صحت عزيمتنا علي تنفيذ رغبة علماء الدين الحنيف في المملكة في فتح مدارس لتعليم البنات العلوم الدينية من قرآن وعقائد وفقه وغير ذلك من العلوم التي تتمشي مع عقائدنا الدينية، كإدارة المنزل، وتربية الأولاد وتأديبهم، مما لا يخشي منه عاجلا أو آجلا أي تغير علي معتقداتنا؛ لتكون هذه المدارس في منأى عن كل شبهة من المؤثرات التي تؤثر علي النشء في أخلاقهم وصحة عقيدتهم وتقاليدهم، وقد أمرنا بتشكيل هيئة من كبار العلماء الذين يتحلون بالغيرة علي الدين لتشرف علي نشء المسلمين في تنظيم هذه المدارس، ووضع برامجها بمراقبة حسن سيرها فيما أنشئت له، وتكون هذه الهيئة مرتبطة بوالدهم حضرة صاحب السماحة المفتي الأكبر الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، علي أن تختار المدرسات من أهل المملكة وغيرهم، اللواتي يتحقق فيهن حسن العقيدة والإيمان، ويدخل إلي هذه المدارس ما قد سبق فتحه من مدارس للبنات في عموم المملكة.

وتكون جميعا مرتبطة في التوجيه والتنظيم بهذه اللجنة، تحت إشراف سماحته، مع العلم أن هذا التشكيل يتقدم الوقت الكافي بتهيئة وسائل التأسيس، ونأمل أن يكون ذلك في وقت قريب، والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا بالله"[1].

ولعدم وجود تعليم عالي من المرحلة الجامعية إلي المراحل العليا وكذلك لا وجود لتخصصات الطب وغيره؛ فإن عدداً من وجهاء البلد الذين علموا فتياتهم ابتعثوهن للخارج.

والدراسة الجامعية في الخارج لها دورها في حياة الدارسة، لاسيما إذا كانت متزوجة ولها أطفال. على نحو ما رأينا في معاناة الدكتورة مريم البغدادي التي تشكلت ملامحها في جزء

---

[1] عبد الله صالح عبد الله – تاريخ التعليم في مكة المكرمة دار الفكر ، الطبعة الاولى 1392هـ-1973 –ص 288

من ديوانها الشعري، فتحدثت عن غربتها الدراسية الجامعية في لندن، و لهفنها على ابنها عدنان و هي في منأى عنه و غربة :

عـدنان أهـلا قـد أزهـرت وادينـا قـد جئـت نـوراً في الأركـان يهـدينا
يا من ملأت علينا البيـت يـا ولـدي مـا عـاد شـيء يـا عـدنان يبكينـا

وتقول عنه في الغربة

متــــى يـــا رب ألقـــاه واهنـــأ مـــن محيـــاه
لقـــد طـــال الزمـــان ولم يعـــد للحـــضن يرعـــاه

وننقل للقارئ قصيدتها (نداء القلب) التي تصف لنا عواطف الأمومة تجاه الأبناء التي تماثل عواطف الآباء تجاه البنات:

ســـيأتي اليـــوم عـــدنان حيـــاة الـــروح والقلـــب
ســـيأتي كـــي يـــشاركني حـــديث الـــسعد والحـــب
سأحـــــضنه وألثمـــــه ويهنـــا القلـــب بـــالقرب
منـــى نفـــسي فيـــا ولـــدى تعـــالى امكـــث علـــى الرحـــب
حبـــيبي أنـــت تمـــنحني ســـعادة قربـــك العـــذب
ألـــست ابـــني وجـــوهرتي بـــل أنـــت النـــبض في قلـــبي
صـــغيري يـــا ضـــيا عـــيني فـــدأبك في الهـــوى دأبـــي
وهـــا أنـــا ذا أجـــد الـــسير كـــي ألقـــاك في الـــدرب
فـــسر نحـــوى وخـــذ عمـــري فعمـــري أنـــت يـــا حـــبي
لأنـــت البهجـــة الكـــبرى بقربـــك يختفـــي كربـــي

وإن داء ألم بنـــــــــــــا أجـــــد في قــــربكم طـــبي
صـــغيري جـــوع وعجـــل لا تحـــد عـــن درب ذا الــصب
ينـــادى القلـــب هيـــا اسمـــع نـــداء القلـــب للقلـــب[1]

والتعليم الجامعي لم يكن له مجالاً نظراً لقلة المتقدمات، مما جعل الشاعر محمد المغربي يبعث بابنته أميمة إلى جامعة جنوب كاليفورنيا، والقصيدة تفيض بوجدان الأب، فهي بعض من القلب، بل هي دائمة الحضور:

أستودع الله مـا أغنـى وديعتـه بعـضا مـن القلـب مواجعـه
لم يعـرف البين لم يخـبر مواجـده حتـى استحر فمـا ترقـى مدامعـه
فارقتـه وهـو مـلء المقلـتين رضـا ومـلء قلـبي ومـا ضـمت نوازعـه

هذا القلب الذي ينفطر وجداً على ابنته، والذي تثقله غربتها وبعدها عنه، وما تحمله من إرهاق، ما تعانيه الفتاة البعيدة عن والديها، فهذه الأبيات تمثل قلب الأب المشفق على ابنته، ولولا الأمل الذي يعقده عليها لتكون رائدة لبنات جيلها في ميدان العلم لما بعث بها إلى تلك الديار النائية، وهو يوصيها بتقوى الله وطاعته، والمحافظة على إيمانها وسلوكها:

كـم نـازح وشـغاف القلـب مـسكنه وحاضـر كـاللقى لم يـدر موضـعه
يـا مـن تحملـت منـه بعـد فرقتـه شـوقي إليـه وأشـواقاً تنازعـه
ومـن تمنيـت أن تـشفى مواجعـه لـو كـان يحملـها قلبـى وتنفعـه
يـا حبـة القلـب يـا أغلـى لآلئـه هـذا الـدعاء لبـاب الله نرفعـه
يـصونك الله ترعـاك عنايتـه تهـديك في الـدرب عينـاه ومـسمعه

---

[1] مريم البغدادي - عواطف إنسانية - 248 - تهامة - جدة - الطبعة الأولى - 1402هـ

تقـــوده يمنـــاه يمنـــاك وراحتـــه مبـــسوطة لـــك بـــالتوفيق أروعـــه

فـــلا تراعـــى وعـــين الله ســـاهرة مـــن ذا يـــراع وبـــاب الله يمنعـــه

يا زهـرة في ريـاض الـدرس ناضـرة تهفـــو إلى العلـــم تـــصيبها روائعـــه

عـــي مـــن العلـــم أروى مـــن مناهلـــه فـــؤادك الحـــر – إن العلـــم ينفعـــه

شـــقي إلى المجـــد دربـــا أنـــت رائـــده لنخبـــة مـــن بنـــات العـــرب مـــشرعة

حتـــى تعـــدن إلى أحـــضان أمـــتكم فتحـــاً يـــدل بـــه الرائـــي وســـامعه

تنهـــضن بـــالوطن الغـــالي عـــن ســـنن مـــن الفـــضائل تهـــدينا مطالعـــه

الـــدين والعلـــم والأخـــلاق أعمـــدة ثلاثـــة وعمـــاد البيـــت يرفعـــه

فاستمـــسكي بعمـــود الله واســـتبقى إلى المكـــارم – هـــذا المجـــد أجمعـــه[1]

الابتعاث:

والشاعر إبراهيم السبيل يصور الفتاة الشرقية المبتعثة للخارج، فهو يحكى حشمتها ويحكى ضعف لغتها، ولكنها سرعان ما تنطلق لتنافس قريناتها، يقول عن ابنته وفاء المغتربة حين التحقت بمدارس اللغات :

خرجـــــت وفـــــاء بـــــسرعة وتوجهـــــت للمدرســـــة

وتكعـــــبرت بحجابهـــــا ملفوفـــــة متدسدســـــة

كـــم أرعبـــت مـــن حولهـــا مـــن طالـــب ومدرســـة

قـــد خـــذرفوا مـــن خـــوفهم وبـــدا علـــيهم وسوســـة

وبلكنـــــة شـــــرقية وبلهجـــــة متحوســـــة

قـــد كـــان بـــدء كلامهـــا في الفـــصل مثـــل البربـــسة

أن خوطبـــت مـــن بيـــنهم بـــدأت بـــضحك ممرســـة

(1) المنهل العدد 5 السنة 35- ج 30 – جمادى الأولى – 1389هـ - ص708

عنـــد الجـــواب شـــفاها | مقفولـــة ومدبـــسة
لكنهـــا والحـــق أضـــحت | في الدراســـة كيـــسة
وتطـــورت بحـــديثها | فحـــديثها مـــا أسلـــسه
حتـــى اســـتحقت أن تكـــون | علـــى الجميـــع الريـــسة[1]

نظام تعليم الفتاة

وقد قام تعليم المرأة على أنظمة تدعو إلى الحشمة والحيطة، ونظمت لهن المباني الساترة، ووضع لهن ألبسة موحدة متماثلة، حتى تتساوى البنات الغنيات والفقيرات، والجميع يلبسن الملاءات السوداء مع الخمار الأسود، وهو منظر يدعو إلى احترام المرأة وصيانتها وحمايتها في أمن وأمان.

وقد رصد هذا المنظر طاهر زمخشري وكشف ما وراءه من همة وعزيمة وطموح يدفع بالفتاة إلى طلب العلم والمعرفة، وأن تنال حظها وتبنى وطنها وأولادها، وذلك في قصيدته "مطلع الفجر" الذي أهداها إلى فتيات بلادي في الكليات ودور العلم:

مـــن وراء الخمـــار ألمـــح نـــورا | فـــاض بـــين الـــسطور يجـــرى نمـــيرا
في "حـــراء" الغـــراء في الأمـــل | المـــشرق أهـــدى إلى الحيـــاة بكـــورا
والتباشـــير في المـــلاءات لفـــت | في الثنايـــا مـــن الخرائـــد حـــورا
ســـكبته حرائـــر تخـــرس الـــورق | ومنهـــا الـــصدى يـــروى البحـــورا
والقـــوافي مرجعـــات لمـــا نمقـــن | ســـحراً ورونقـــاً وزهـــورا

وهو يدرك أن الغاية هي طلب العلم النافع الذي يصلح الحياة، ويدعو إلى الفضائل والقيم، ويبنى منهجاً تربويا وفكريا، وتزداد به المعرفة العلمية والتقنية الحديثة:

---

[1] إبراهيم السيل – نقش يسمو على صفحة المجتمع - 106

مـــن وراء الخمـــار المـــح إشـــعاعا أعـــاد الماضـــي إلينـــا مـــنيرا
مـــشرق الـــصفحتين يزهـــو بمـــن قمـــن ينافـــسن بـــالعلوم الـــذكورا
مـــا تـــزين بالـــذي يكـــسب الإثـــم مجونـــاً وبهرجـــا وغـــرورا
بـــل تحلـــين بالـــذي يجعـــل الـــدور جنانـــا والمحـــصنات بـــدورا
وتمـــنطقن بالـــذي زان أسمـــاءً فكانـــت أولى الـــشموس ظهـــورا
عرفـــت دورهـــا الخطـــير وأدتـــه فكانـــت للـــصالحين نـــصيرا
تتـــوقى العـــداة قـــد أشـــهروا المـــوت، وتخطـــو علـــى القتـــاد وثـــيرا
ثـــم تمـــشي للغـــار في قمـــة التـــل، وتجتـــاز بالثبـــات الوعـــورا
تحمـــل الـــزاد للـــنبي وخـــدن عـــاش بالحـــب عنـــد طـــه الأثـــيرا
وهـــو أصـــل لهـــا فـــأكرم بفـــرع طـــاب منـــه الجنـــى، وطابـــت جـــذورا
والحمـــيراء أختهـــا، وهمـــا الـــصنوان طهـــراً وعفـــة وعـــبيرا
شـــرفت زوجـــة وأمـــا وبنتـــا وبهـــا المكرمـــات تـــشدو عـــصورا
هـــي كانـــت أمـــاً لأسمـــى البطـــولات، ومـــازال قولهـــا مـــأثورا
عـــش كريمـــا أو مـــت و أنـــت كـــريمٌ مبـــدأ قـــام بيننـــا دســـتورا
فهـــي تـــورى الزنـــاد بالعزيمـــة البكـــر، وتزكـــى بـــين الحنايـــا الـــشعورا
ليمـــوت الهـــوان مـــن صـــيحة الـــوغى، ويـــسمو إلى الـــسماء نـــسورا
وعلـــى الـــدرب أمهـــات يبـــاركن خطانـــا، وقـــد أقمـــن الجـــسورا
ببنـــاء قوامـــة العلـــم والـــدين، يتغنـــى بـــه الزمـــان فخـــورا [1]

المواهب الشعرية مصحوبة دائما بالتوتر نتيجة قوة الأحاسيس عند الشاعر أو الشاعرة، فإذا سلك الشاعر أو الشاعرة سبيل العلم أو اهتزت جوانحه بالطموح، وازداد تنويراً بالعلم فإن الأفكار تؤثر تأثيرا كبيرا على الخواطر والهواجس المستقبلية، مما صير

(1) طاهر رمحشري – مجموعة البيل – 497.

الشاعرة القرني في حالة من التبرم مع حصولها على الدكتوراه، فبدل أن تفرح بهذا التحصيل العلمي الممتاز انشغلت بماذا يكون بعد؟. وهذا من أثقال العقلانية والانفعال واستعادة الذكريات المرة لمعاناة الطلب، سهراً وسفرا وقلقا

عسكرة..!
دكترة..!
دكترة..!!
مرهق هذا القلب
قبل أن أحمله..
أشعر حقاً بالتعب
دكتره.!
لي مع الليل حكايات
مع الشعر غوايات
مع الطفلة في روحي أمانٍ غافيات
في وساد الثرثرة
أتراني أجرؤ الآن على حفظ عهودي
السالفات المنكَرَة؟![1]

في أول حياة تعليم المرأة كان هناك اندفاع قوي، عملت وسائل الإعلام، لا سيما التمثيل على بلورة هذه المغالاة، حيث أخذت ترسخ فكرة الجامعة أولاً، ثم الزواج ثانياً، فطفقت الفكرة تنغرس في النفوس، يقول إبراهيم خليل علاف :

(1) فاطمة القرني - ديوان مطر 73

وشـــيكة التخـــرج　　　تنـــأى عـــن التـــزوج
بكفهـــا حقيبـــة　　　ربيبـــة التـــدرج
كطفلـــة عزيـــزة　　　بـــصدرها المـــبوج
هـــي الربيـــع موكبـــاً　　　قـــد عـــفّ عـــن تـــبرج
يغنيـــك حـــسناً بعـــضه　　　وملتقـــى التـــأرج
أجمـــل بهـــا مـــن طلعـــة　　　تـــسلحت بـــأدعج
فيهـــا الحيـــاء حـــالم　　　بخـــدها المـــضرج
والطهـــر هـــبّ شـــامخاً　　　بأنفهـــا المـــدرج

ويقول أيضاً:

مـــا أنـــت إلا واحـــة　　　محاطـــة بعوســـج
أزهارهـــا أثمارهـــا　　　تعـــصى علـــى التـــدحرج
موفـــورة مـــذخورة　　　لمـــستطاب المـــنهج[1]

فنحن لا نشك في نزاهة الجامعية ولا ريب في ذلك إذا أتيح لها دراسة منفصلة، في كليات وجامعات تجعل تدريس المرأة منفصلاً، أما إعجاب الشاعر بإعراضها عن الزواج في عام 1384هـ في مستهل التعليم، فكان نتيجة ذلك أن برزت ظاهرة العنوسة؛ لأن مجتمعنا يحرص على الزواج المبكر، والجامعية لا تنهي دراستها إلا بعد أن تتجاوز العشرين، الأمر الذي أوجد عدداً من العانسات. والذي أراه أن لا تعارض بين الجامعة والزواج، فالأولى أن الفتاة إذا بلغت سن الزواج فإنها تُزوج لمن يُرضى دينه وخلقه، مع المحافظة على مواصلة الدراسة. أما إذا وقفت مواصلة الدراسة في طريق الزواج فهو أولى. وقد طُرحت القضية

---
(1) إبراهيم علاف – الديوان - ص233

على بساط البحث مراراً في الصحف المحلية، فمنهم من يرى أن سبب العزوف عن الجامعيات يتأتى من جانبهن، لأنهن يرغبن في الكفء الثقافي، ولأن نظرة التعالي عمن لم يحصل على مستواهن تتبلور فيهن.

لكن الواقع أن هذه حالات فردية، فقد أقبل الشباب على التزوج لكثرة المتكافئين ثقافياً، ولأن الجامعية لم تلزم نفسها بالجامعي، وللوعي الذي تنامى في المجتمع فقد أخذت المرأة السعودية على عاتقها القيام بالعمل التعليمي للبناء في جل شأنه، والعمل المنزلي، والتربية، فالقادرة على الوفاق بين هذه الأمور هي تلك التي تنال الحياة الزوجية السعيدة.

والشاعر الفيفي يصور لنا حياة الطالبة التي التحقت بالدرس والتحصيل، بافتتاح رئاسة تعليم البنات 1381هـ، وقد دأبن على مواصلة التعليم في مثابرة وجد، وأخلصن لطلب العلم في عفاف وطهر، وهو يوضح روح التنافس والانتماء إلى الدين والعادات السليمة:

جمعـــــــتْ خـــــــير الـــــــصفات وتحلـــــــت بالثبـــــــات

شمـــــــرت عـــــــن ســـــــاعديها فأتـــــــت بـــــــالمعجزات

ومـــــــشت في الـــــــدرب ســـــــعياً رغـــــــم كـــــــل العقبـــــــات

قطعـــــــت شـــــــوطاً بعيـــــــداً بـــــــالجهود الخـــــــيرات

قالـــــــت الجهـــــــل ســـــــأرميه ببحـــــــر الظلمـــــــات

أطلـــــــب العلـــــــم بعزمـــــــي واجتهـــــــادي وثبـــــــاتي

وإذا أهملـــــــت يومـــــــاً في أداء الواجبـــــــات

ومـــــــضى وقـــــــتي هبـــــــاءً في سمـــــــاع الأغنيـــــــات

ودخلـــــــت الفـــــــصل كالعميـــــــاء بـــــــين المبـــــــصرات

دون أن أهـــــــتم بالـــــــدرس اهتمـــــــامي بالـــــــصلاة

فهو يشير إلى فضيلة تعليم المرأة، فقد كانت تقضي وقتهـا في ملـل، أو سمـاع لهـو أو طرب، لكنها اليوم تحرص على تنظيم وقتها، فهي تثابر في حل الواجبات، وحفـظ المطلـوب، ومعاودة استذكار المادة من أجل الامتحان، خشية الرسوب الذي يهز كيـان الفتـاة وأسـرتها، وما أشد وقعه عليهن، وكذلك تتعلم أمور دينها ودنياها.

وأتـــــى يـــــوم امتحــــــاني	في عـــــــداد الراســــــبات
وبكـــــت أمــــي وفي عـــيني	مثـــــــات العــــــبرات
ورأيــــت الحــــزن في وجـــه	أبــــــي والأخــــــوات
اي معنــــــى لوجــــــودي	وأي معنــــــى لحيـــــاتي
غــــير أنــــي ســـوف أبقـــى	قــــــدوة للطالبــــــات
وأريهـــــــن بــــــأني	مــــن خيــــار الفتيــــات
وبـــــأخلاقي وعلمــــــي	وعفــــاف المؤمنـــــات
وحيــــــاتي وابتعــــــادي	عــــن جميــــع الـــشبهات
ســـوف أحظــى بــاحترام النــاس	في كــــــل الجهـــــات[1]

وهو يدرك أن العلم ينمو بجانبه الخلـق الفاضـل، الـذي يقـوم علـى الحيـاء والعمـل الصالح، والابتعاد عن الشبهات حتى تحضي الطالبة بالتقدير والثناء، و قـصيدة الـشاعر بعـد أكثر من عشر سنوات من بداية تعليم البنات، وقد رأى الشاعر معالم نهضة التعليم في الـبلاد، و اقتنع الجميع بتعليم فتياتهم، وازدهرت الأحياء بالمدارس، والآن مدارس البنـات تتنـاثر في أحياء المدن والقرى في تصاميم مطابقة للعمارة الإسلامية وبتنظيم يمنع الاختلاط، فـلا تخـرج الفتاة إلا مع ولي أمرها، ويتفرع من الرئاسة وكالة الكليات، وقد افتتح عدد من الكليـات في مدن المملكة أشبه بالجامعات الصغيرة، و هناك عـدد مـن كليـات إعـداد المعلمـات إيـضاً إلى جانب التحاق الفتاة بالجامعات في أقسام خاصة بهن.

[1] علي حسين الفيفي – رحلة العمر - 19

وقد وصف الشعر صخب الأطفال في المنازل، و التنافس بين الأخوات، و حالتهن في الصباح حال الاستعداد لليوم الدراسي، فهذه تسرح شعرها، و هذه تبحث عن حذائها، يقول الشاعر حمزة شحاتة واصفاً بناته :

وكما تركت البيت ما زالا	قلقاً، وأعباءً، وأطفالا
ومعارك بين الصغار غدا	حلم النظام بهن أطلالا
أخذت كتابي ضيعت قلمي	شدت يدي، قفزت على ظهري
ذات الحياة وربما اختلفت	عما كرهت ونحن لا ندري
فإذا الصباح أطل خضناها	حرباً يكون وقودها أختي
هدى تقول: حذاؤها ضاعا	زلفى تسائل: أين مريلتي؟
وسهام تبحث عن حقيبتها	وتصيح ليلى: لم أجد قلمي
فتجيبها نجلاء بدمعتها:	وأنا صحوت فلم أجد كتبي
فإذا انصرفن تقوم معركة	ويجدّ أهل البيت في الطلب[1]

من المظاهر الاجتماعية الطارئة الترغيب بتعليم البنات، واهتمام الشعراء بتعليم بناتهم واضح، وإذا ثبت تفوق البنات فإنه يؤثر على التجربة الشعرية، غير أن الشاعر إبراهيم السبيل وازن في شعره بين البنات والأبناء، وقد استأثرت ابنته وفاء بكثير من شعره، لما رأى فيها القدرات والمواهب، فقد صدّقت أمانيه، ونالت درجة الدكتوراة، ومما قاله فيها:

هنيئاً لك الفوز بالامتياز	وفوزك بالرتبة العالية
وما ذاك إلا ثمار الجهود	وعنوان عقلية واعية
هو العلم رمز ارتقاء الشعوب	تسامت به الأمم الراقية

---

(1) حمزة شحاته – الديوان – ص338

وبـــالعلم جـــاء رســـول الهـــدى وقامـــت بـــه الـــدعوة الـــسامية
وبالـــضاد جـــاء الكتـــاب الكـــريم فعـــــزت بعزتهـــــا الباقيـــــة
فحييـــــت فارســـــة للكـــــلام وحقـــــق آمالـــــك الغاليـــــة[1]

بعد الممانعة عن تعليم البنات في الرياض، لم تلبث أن تكون قبلة للعلم بجامعاتها وكلياتها، فهذا هو الشاعر عبد الله الجشي، يبعث بابنته يمامة لعاصمة اليمامة الرياض، لكي تواصل تحصيلها العلمي. قالت للشاعر ابنته (اليمامة): يا أبي قصيدة أعتز بها، فكتب قصيدته "بين اليمامتين"، وقد نشرتها جريدة الرياض بتاريخ 30-5-1994م:

طـــــوفي يمامـــــة بـــــالجزيرة حلـــــوة الأنغـــــام نـــــشوى
طـــــيري يمامـــــة لليمامـــــة فالـــــذرى للطـــــير مـــــأوى
عـــــودي لـــــسربك عـــــودة البطـــــل الـــــذي بالحـــــب يقـــــوى
إن الـــــديار لتزدهـــــي بـــــالقرب حيـــــث البعـــــد يطـــــوي

****

طـــــوفي يمامـــــة بالـــــسنين وقطـــــري التـــــاريخ صـــــفوا
ولتقطفـــــي مـــــن كـــــل غـــــصن زهـــــرة كالمـــــسك شـــــذوا
ولتعـــــصري مـــــن كـــــل كـــــرم مـــــا بـــــه الأجيـــــال تـــــروي
طـــــيري فمرجـــــك في اليمامـــــة أخـــــضر الآمـــــال أحـــــوى
المـــــاء يجـــــري كـــــوثراً متسلـــــسل اللـــــذات رهـــــوا
تهفـــــو الثمـــــار علـــــى عرائـــــشها كعقـــــد المـــــاس ضـــــوّا[2]

---

(1) إبراهيم السيل – نقوش على صفحة المجتمع – 105

(2) عبد الله جشي – الأعمال الشعرية الكاملة – ص 450، نشر عبدالمقصود خوجة

وأضحى العلم من أهداف رب الأسرة، فهذا الحشي يستحث ابنته مريم لطلب العلم، وأن يكون مناها وغايتها، وأن تتلبس بالهمة والطموح، ومما جاء في قصيدته عام 1990م قوله:

مريم كوني راية الموكب	طموحة كهالة الكوكب
تعلمي كوني لنا في غد	مواهب وهاجة المأرب
إن فتاة عرفت ما لها	وما عليها في المدى المنجب
لابد أن تبلغ أهدافها	في مقبل العمر فلا تتعبي
مريم يا لمحة آمالنا	مضيئة في فجرنا الأقرب
إنا فخورون بأجيالنا	وأنت فيها قمة المكسب
تعلمي حتى تضيئي الدنى	بعقلك النير في غيهب
لا فرق ما بين فتى رائد	وامرأة تبدع في المكتب
إن بلاداً أنجبت مريما	جديرة بمجدها الأرحب[1]

هذا وقد أدرك المجتمع أن التعليم لا ينافي الوقار والحشمة، بل أخذ الآباء يرقبون أثر التعليم على بناتهم، ويدعون بناتهم إلى التمسك بالدين والقيم ومكارم الأخلاق، وينهونبناتهم عن التبرج، يقول مصطفى زقزوق لابنته (لؤلؤة):

لا تنزعي ثوب الوقار وتخضعي	فرداؤك التقوى فطيبي واقنعي
وتمسكي بالدين فهو وقاية	ومن السفور فحاذري وترفعي
الله صانك بالحجاب تكرماً	فمن العفاف تمكني وتورعي
يا من ينادي والظنون تحيطه	دعواه قد ضاعت بواد بلقع

---

(1) عبدالله الحبشي، الأعمال الشعرية الكاملة – ص66

يا بنت يعرب والأصالة والنهى … قري ببيتك حرة وتمتعي
ومن التبرج فاتقيه لأنه … يرديك ساقطة بأوخم مرتع
لا عز في الدنيا بغير فضيلة … والجهل يقذفنا لأسوأ موضع
والمجد والشرف الرفيع نصونه … ليخيب حامل ريبة أو مطمع
العلم قد حفظ العقول من الهوى … عصر الجهالة قد مضى لم يرجع
ولنا من القرآن خير هداية … وبه النجاة بهديه المتضوع
أما المظاهر في الحياة فإنها … تؤدي بحافل أمة في المصرع
والمعرضون عن اليقين سبيلهم … أني أضيع وأن أبدل موقعي
ما همهم إلا انهيار مبادئي … وبأن أعود بخيبة المتراجع
يا بنت يعرب والدروب مضيئة … آليت أن أبقى وتبقي معي
في عزة وكرامة ومهابة … ولتعرف الدنيا سلامة منبعي[1]

و لقد عرفت الشاعر فهد النفجان مديراً لمستشفى تبوك، وكان رجلاً إدارياً من الطراز الأول، و قد درس في أمريكا، وهو معتز بذاته متباهياً بدراسته الخارجية، وحصوله على الدكتوارة من أمريكا، و قد حدث أن دعوته في أمسية شعرية في المعهد العلمي في حضور الأمير جلوي بن عبد العزيز، فطلب مني بعض المتشددين أن أبعده عن الحفل بحجة أنه غير ملتزم، ولكني رفضت ذلك، فكان نجاح الحفل، وهذه القصيدة تدل على التزامه بالقيم، فهو يوصي بها ابنته:

أبنيتي يا كل آمالي ويا حظي السعيد
يا قطعة مني ورمز هنائي الباقي الأكيد
مني إلى العقل الصغير نصيحة الأب الرشيد
ونصيحتي مني إليك جعلتها نظماً قصيد

---

(1) مصطفى رقروق - مرابع الأنس – 178 الطبعة الأولى – دار العلم للملايين

تبقـــى علــــى مــــر الزمـــــان وكــــل يـــوم في جديـــــد
ولتاخـــــذي منهـــــا عتـــــاد الـــــدهر في يـــوم وليــــد
فلعـــــل فيمــــا تنطـــــوي نجـــواك في اليـــوم الـــشديد
وإذا قـــــسى رب القــــــساوة فاقرئيهـــــــا في مزيـــــد
ثـــم اذكــــريني وافهمــــي مـــا قلتــــه الفهـــم الأكيـــد
فعليــــك بالــــدين الحنيــــف فإنــــه الــــذخر الرصـــيد
وتخلقـــــي أخــــلاق قـــوم مجــــدهم بـــــاقي تليـــــد
جـــــدادك الغـــــر الأماجـــــد رأيهـــــم رأي ســـــديد
تــــاريخهم بــــالحق والأخــــلاق والـــــشرف الوليـــــد
بــــاق علــــى كــــر الـــدهور وشـــعلة للمــــستفيد
وتيقظــــــي فحــــضارة الطــــاغوت تبـــديل المجيـــــد
وحــــذار مــــن تيــــارهم أن يخــــدعوك فــــلا محيــــد
وعليــــك بــــالإخلاص للمــــدن الزاهيـــــة والــــصعيد
وطـــن بــــه كـــانوا بنـــاة الأمـــس والأمـــس التليـــد
آواك بــــبين ربــــاه، بــــين رياضـــــه، بـــين الحـــصيد
ربــــاك بــــين أحـــضانه، فحـــذار مـــن نكـــر الحميـــد
ومــــن المعـــــارف فــــانهلي عـــذباً بـــإخلاص شـــديد
وتـــدرعي بــــالعلم ضـــد الجهـــل في حـــرب الجديـــد
وتحركــــــي بالواجبـــــات ولا تكــــوني كالجليــــــد
وابــــني وكــــوني قـــدوة للجيــــل، للجيـــل الجديـــد
هـــذي الحيـــاة شـــعارها أن دائمـــاً هـــل مـــن مزيـــد
وإذا غـــدوت إلى الأمومــــة فــــاحفظي حـــق الوليـــد
ربيــــه عــــضواً نافعــــاً بــــاللين والـــرأي الـــسديد

قولي له عن دينه عن أرضه الا يحيد
واروي له تاريخه من بداة الماضي البعيد
هذي نصيحة والد يرجو لك الحظ السعيد
دامت لك الأيام في بحبوحة العيش الرغيد [1]

لم يمض ردح من الزمان حتى اقتنع الناس بضرورة تعليم الفتاة، بل أخلص الآباء والأمهات في التربية والتدريس ومتابعة الفتاة في مدرستها، وابتهجوا بنجاحها، وشاركوا التربويات احتفالاتهن، فهذا عبد الرحمن السويداء يكتب لابنته عبر قصيدة للمشاركة في الحفل الختامي عام 1412 هـ، مصوراً كيف كان الاختلاف حول تعليمها، ثم الاتفاق، بل التنافس، حتى أضحى تعليم الفتاة أسطورة من أساطير الزمن المعاصر، وأشاد به القاصي والداني، يقول الشاعر في مقدمة قصيدته: "طلبت مني عبير التي كلفتها مدرسة الثانوية بالاشتراك في حفلة المدرسة الختامية بكلمة أو قصيدة، فأعطيتها هذه القصيدة، لتشترك بها في الحفل بعنوان (فجر) لتلائم تلك المناسبة":

تنفس في سماء الشرق صبح
ذوائبه إلى الأفق تشير
تلون دربها بسحيق تبر
وشقرتها بفرشاة تسير
تنبه من تدثر في نعاس
على صوت يردده البشير
وهب الناس في غلس تباري
لتلبية النداء وهم كثير

---

(1) فهد العجلان – نداء حي – ص48، الطبعة الأولى، دار ثقيف للنشر و التأليف 1978م

وشقــــــشق أنبـــــــه الأطيـــــــار صـــــوتاً
ونفــــــض ريـــــــشة وبـــــــدا يطـــــير
تمايـــــل وهـــــو يـــــرقص فـــــوق غـــــصن
فيـــــــصرخ ويرفعـــــــــه الكـــــــبير
وغـــــــرد أعــــــــذب الأطيـــــار شــــــدواً
الا هبـــــــوا فقـــــــد أزف النـــــــشور
تحفـــــــــزت الـــــــبراعم واشـــــــرأبت
باعنـــــــاق يدغـــــــدغها الفتــــــور
تبجلـــــــت الزهـــــــور بكـــــل لـــــــون
تـــــــداعبنا فتبتـــــــسم الثغـــــــور
تبـــــــث أريجهـــــا عرفـــــاً نـــــدياً
تـــــــضمخه الطـــــــراوة والعـــــبير
قـــــد امـــــتلأت جوانحنــــا أريجـــــاً
نكـــــاد لفـــــرط نـــــشوته نطـــــير
فيحـــــــدونا التحفـــــــز مـــــــن جديـــــــد
ويـــــــصحبنا التوثـــــــب والبكـــــــور
نـــــــسارع نحـــــو صـــــرح العلـــــم وثبـــــاً
يناغمنـــــــا التأهـــــــب والحبـــــــور
ثمـــــار العلـــــم أطيبهـــــا مـــــذاقاً
بهـــــا تعلـــــو الـــــسعادة والـــــسرور
لننهـــــل مـــــن منابعهـــــا زلالاً
أكـــــف الـــــساقيات بهـــــا تفـــــور
ثمـــــار عقـــــولهن يجـــــدن فيهـــــا

جنياً أينعته يد برور

الا يا حبذا ثمرات علم

مواتية وأنشطة تدور

يعج بها التنافس في فنون

وتحظى بالجوائز من تنور

ويبرز مجلس في الحي فذ

لنا ببروزه أمل كبير

ينظم ما ينظم من أمور

مدارس قد تزار وقد تزور

يتم خلاله إبداء رأي

وخيرات ومعرفة ثرور

وتكريم النوابغ في فنون

وتشجيع لمن أضحى جدير

وشحذ مدارك كلت وملت

لتنهض حين يدركها الفتور

فتلك تحية رقت وطابت

تقدمها وتهديها عبير [1]

عجباً لهذا الزمن الآمن في السرب الرخي في العيش كيف تصحبه المعاناة النفسية والفكرية، فقد أثقلت الشباب الهموم والهواجس المستقبلية، وربما الفعل اليومي الذي صير الكماليات ضروريات، وصير العمل يرتكز على الفكر بدلاً من العمل اليدوي، فالأمر لم يقتصر على الذكور، بل حصد معه الفتيات والنساء، ومن أولى ثمرات تعليم الفتاة أنها

---

(1) عبد الرحمن السويداء – أشجان – 75

استطاعت أن تسجل سيرتها الفكرية والنفسية في مرحلة مبكرة من حياتها، فالدكتورة فاطمة القرني سجلت سيرة دراسة الفتاة ومعاناتها في تبوك من خلال قصيدتها (احتفال)، حيث صورت أفراح الطفولة بالأعياد، وتنقلهم في منازل الجيران مغردين بالابتهاج و سرور:

لا مرحباً غافلتني دون أن أدري
يا شيبة أسفرت تختال في شعري
أفي الصبا. في ربيع العمر. والمي
والآن؟! ماذا تركت لآخر العمر؟!
أينقضي بالسواد العمر متلحفاً
وحين أملت كنت بشارة الفجر
خمس وعشرون كالأحلام أحسبها
مرت، فأواه للعمر الذي يجري
نادي زماني (تبوك) نداء والهة
واستخبري دورة الأيام هل تدري
عن طفلة كنتها كالحلم أتبعها
أخال كل المدى يسعى لها إثري
ردي لعيدي الطفولة لا مذاق له
بدونها وأرجعيني طفلة العشر
أزهو بفستان عيدي بين أترابي
وأرسل اللحن في كون من السحر
أين الرفيقات؟! كان العصر موعدنا
تفرق الجمع أضحى مظلماً عصري
وأين تطوافنا في الحي والحلوى

مـــــا فـــــاض مـــــن قبـــــضتي أخفيـــــه في حجـــــري
مـــــن لــــــي بـــــصاحبة كانـــــت تقـــــاسمني
شـــــطر لهـــــا مـــــن حـــــصيلتنا ولـــــي شـــــطري؟!

والشاعرة القرني في قصيدتها التي تمثل السيرة الذاتية تحكي روح البساطة والفطرة، حيث الضفائر والأمشاط، والأمومة الحانية، والابتعاد عن الزينات الدهنية الحديثة، التي أساءت لمعالم الجمال مبكراً، وهي تحكي روح التعاون بين الجيران، إذ يتبادلون مكونات النار والملح والشاي والأواني، وكانت أدوات الولائم والاحتفالات تُجمع من الجيران :

أمـــــاه يـــــا أمـــــن أيـــــامي ويـــــا ســـــكني
ضـــــمي شـــــتاتي أجـــــل قـــــد خـــــانني صـــــبري
عـــــودي معـــــي فـــــصلي للجمـــــع قـــــصتنا
مـــــع العنـــــادي عنـــــادي الجـــــامح الفطـــــري
أيـــــن الـــــضفائر يـــــا أمـــــاه؟ أحـــــسبها
تبكيـــــك شـــــوقاً وتبكـــــيني مـــــن الغـــــدر!
تجـــــدلين علـــــى حـــــرص وأنثرهـــــا
وتنهـــــرين، ولا أهـــــتم بـــــالنهر
أيـــــن الـــــضفائر يـــــا أمـــــاه ويـــــل يـــــدي
مـــــا كنـــــت أدري قصـــــصت بقـــــصها عمـــــري
يـــــا ليـــــل كـــــم خلـــــد الأحبـــــاب مـــــن نغـــــم
في حيّنـــــا عـــــاطر مـــــن ســـــالف يـــــسري
مـــــن لـــــي بجارتنـــــا تـــــأتي صـــــغيرتها
'أعنـــــدكم ملـــــح؟' قالتهـــــا بـــــلا حـــــذر
تلـــــك الـــــصغيرة كـــــم نـــــصبت عباءتهـــــا

في ساحة الدار لي بيتاً من الشعر
تزور فيه، تزار، تصوغ قصتنا
توقاً لعهد الصبا تهويمة الفكر
أيام كانت بيوت الحي مشرعة
للحب، يا تربها أغلى من التبر
ضمن الزمان بجارتنا وبابنتها
فكيف جاد بملح الفقد في نحري؟!

والشاعرة تسجل البيئة المدرسية للبنات ما بين عامي 1380هـ - 1395هـ، حيث السير على الأقدام للمدرسة،، بل إن المدارس وقتها كانت من البناء الطيني، فإذا ما ضاقت الفصول نصبت الخيام، وكانت البيئة يومئذٍ متآلفة متحابة متمازجة، مع وجود التنوع، والذي لم يمنع من التواصل والتعارف

تبوك ما جدّ عهد فيك مؤتلق
لا تداعيت حتى أول السفر
يا صفحة الأمس يا حرفاً يخلدني
هيا انشري كل ما استعصى عن النشر
أين الطريق الذي حتى الحصاة به
أكاد أحضنها شوقاً إلى صدري
فيه العجوز التي كانت بضاعتها
ميدان حرب نبعثرها ولا نشري
وأين مدرسة الطين التي نشرت
من طينها عن صبانا أطيب الذكر
ما فصلنا؟! صدقوني خيمة شمخت
عمودها لم يفارق دفؤه ظهري!

أين الدفاتر والأقلام أجمعها
وأين كراسي مهزوزة السطر
من لي ب (أبلتنا) ما كان أطيبها
يا وجهها ذلك النضاح بالبشر
كانت (عطاف) وكنا والبراءة في
وقع الخطى نغمة مشبوبة الطهر
نحيطها أينما حلت، فما التفتت
إلا وجمع لنا قد خفّ كالطير
عُودوا إلى الفصلْ صاحت، لا نجيب كمن
في سمعه الوقر، لا ننصاع للأمر
فتنثني في حنو أينما يدها
فديتها من يد أندى من القطر!
عشرون عاماً مضت، أدري بخيمتنا
هوت، تلاشت، ولكن ليس من فكري
ما زلت أجري إليها كلما عصفت
بي الرياح، وعز الأمن في الصخر!
أماه ولّى الصبا فاصغي لقافية
تقول مغتصة موءدة الكبر[1]

ويمثل الابتهاج بافتتاح المدارس والمعاهد والجامعات مظهراً عصرياً، نرى معالمه في الجامعات، وعلى صفحات الصحف، وفي إبداع الشعر، وحكايات القص، و لقد مرت علينا حكايات ممانعة تعليم المرأة، وأن أبناء المدينة الواحدة كانوا بين مؤيد ومعارض، وها هو الشاعر مفرج السيد يبتهج بافتتاح مدرسة البنات في مدينة المهد مع أنه يستوطن بلداً آخر، غير أنها بلدته الأولى،.

(1) فاطمة القربي – ديوان احتمال ص 10 نشر نادي تبوك الأدبي عام 1430 هـ

يقول في مقدمة قصيدته "تحية للعاملات والعاملين": "أنشئت ببلدة المهد أول مدرسة ابتدائية للبنات، نتيجة للجهود المشكورة التي بذلها بعض الرجال العاملين المخلصين، وعلى راسهم سعادة الأمير عبد الله السديري أمير المهد، وهذ تحية شعرية أبعثها من الأعماق، لسعادة الأمير، وصحبه الكرام، وللمدرسات والطالبات".

حـــي النـــساء العـــاملات	في حقـــل تعلـــيم البنـــات
وانـــشد لنـــا أنـــشودة	في شـــحذ عـــزم الطالبـــات
واشـــدد بأيـــدي معـــشر	قـــاموا بهـــذي المكرمـــات
قـــل للمدرســـة الـــتي	فتحـــت لهـــن المغلقـــات
أكرمـــت مـــن إنـــسانة	أنـــشأت جـــيلاً صـــالحات
إيـــه بنيـــات العـــلا	يـــا أيهـــا المتعلمـــات
هـــذي المـــدارس أنـــشئت	للطالبـــات الراغبـــات
فـــانهلن مـــن مـــشروبها	فـــالعلم نـــور في الحيـــاة
والـــدين قـــد أوصـــى بـــه	أوصـــى بتعلـــيم الفتـــاة
إيـــه أخيـــاتي أجـــل	كـــن البنـــات الرائـــدات
شـــاركننا في ســـيرنا	وغـــداً تكـــن الأمهـــات[1]

ووقف الشعراء كثيراً عند الممرضات والطبيبات، وأشادوا بلطفهن وأناقتهن وحنانهن وعطفهن، بل أعجبوا بملابسهن وبسماتهن، وهذه الطبيبة تحمل هاجس الطب في مسيرتها، فهي تعنى بالشيوخ و الشباب بالمرأة و الرجل :

دلفـــت بطلعتهـــا المهيبـــة	وبكفهـــا اليمنـــى حقيبـــة

(1) مفرح السيد - فيض الأحاسيس ص33 دار ثقيف للنشر ، الطبعة الثانية 1414هـ-1994م

فتبـــــــسمت لمريـــــــضها	رغمـــاً عـــن الـــنفس الكئيبـــة
ودعتــــــه ثــــم تقـــدمت	تـــواً إلى الغـــرف القريبـــة
فتفقـــــــدت نزلاءهـــــــا	وكانهـــــــا أم حبيبـــــــة
لا فـــرق فـــيهم عنـــدها	إن كـــانوا شـــيباً أو شـــبيبة
فعجبـــت ممـــا شـــاهدت	عينـــاي مـــن دنيـــا عجيبـــة
وســـألتُ مـــن في جـــانبي	عـــن هـــذه الأنثـــى النجيبـــة
وعلمــــت بعـــد جهـــالتي	أنـــي أرى نبـــل الطبيبـــة
أنـــــي أرى مخلوقـــــة	دفعـــت لأمتهـــا الـــضريبة[1]

لا شك أن الانسان ذا القلب الرحيم كثيراً ما يبادر إلى الاعتناء بغيره، و يقف ذاهـلاً عند الطفولة المشردة، كما أن احتضان الطفولة و الاعتناء بها من مظاهر الكرامة و العناية الأهلية لمن رعاها حق رعايتها، فكيف بمن اعتنى بالتعليم و التربية و النفقة،

يقول مفرج السيد في مقدمته لقصيدته "ابنتاي": "إلى الإنسان الذي زرع في قلبي أول بذرة من بذور الحب والخير، الأستاذ (م) صاحب هذه القصة التي رواها لي عن نفسه، وأنا على مقعد الدراسة، وما زالت آثارها عالقة بذهني، أهدي هذه القصيدة"

رنـــت لـــي بأعينهـــا الدامعـــة	ومـــدت لـــي الأيـــدي الـــضارعة
وقالـــت وقـــد خانهـــا صـــوتها	ولكـــن أذنـــي لهـــا ســـامعة
أغـــثني أغـــثني وقيـــت الـــردى	فـــإني مـــشردة جائعـــة
أنـــا طفلـــة فقـــدت أمهـــا	ومـــات أبوهـــا مـــن الفاجعـــة
وقـــد تركـــاني بـــلا عائـــل	ولا مـــسكن إنـــني ضـــائعة
فقلـــت وقـــد ســـاءني مـــا بهـــا	وأبكـــتني القـــصة الواقعـــة

---

[1] مفرج السيد - فيض الأحاسيس – ص32 دار ثقيف للنشر ، الطبعة الثانية 1414هـ-1994م

تعــالي معــي يــا ابــنتي بمنزلــي فلــي طفلـــة حلـــوة رائعـــة

تـــسر إذا مـــا رأت طفلـــة تـــشاركها لعبـــة ماتعـــة

وأنـــت أيـــا طفلـــتي حلـــوة وكلتاكمـــا ســـنها الـــسابعة

وأمـــسكتها حانيـــاً في يـــدي فـــسارت إلى جـــانبي طائعـــة

ولمـــا رأتهـــا ابـــنتي أشـــرقت علـــى ثغرهـــا بـــسمة ناصـــعة

وسُـــرّت بمقـــدمها زوجـــتي وعهـــدي بهـــا زوجـــة وادعـــة

وأضـــحت نـــوال وهـــذا اسمهـــا بنيتنـــا مثلمـــا رابعـــة

وإنـــي ســـعيد بنيـــل المنـــى فبنتـــاي هاتـــان بالجامعـــة

وأحمـــد ربـــي علـــى فـــضله فنعمـــاؤه جمـــة واســـعة[1]

والأطفال مدعاة للتفكير والعناية، فهم ضعفاء في أبدانهم ولغاتهم، وسائر قوامهم، ولكن من يدري لعلهم في قادم الأيام يكون لهم شأن عظيم، و الشاعر مفرج السيد يحكي في قصيدة له عنوانها "طفلة "آمال طفلته، فهو يرى فيها الترقي بدرجات التعليم، و يصورها بأن تكون أستاذة جامعية أو طبيبة أو معلمة أو وزيرة، وهذه نظرة تفاؤل للبنات بعد انطلاقة التعليم، وإتاحة التعليم الجامعي:

حملـــت عرائـــسها الـــصغيرة ومـــضت أعينهـــا قريـــرة

ومـــشت إلى ألعابهـــا وكأنهـــا دنيـــا كـــبيرة

ودنـــت تلاعـــب بعـــضها بـــدءاً بطفلتهـــا سمـــيرة

هـــي طفلـــة محبوبـــة حـــسناء صـــافية الـــسريرة

شـــاهدتها في بيـــتهم وكأنهـــا فيـــه الأمـــيرة

كانـــت وحيـــدة أهلـــها فهـــي المدللـــة الأثـــيرة

---

(1) مفرج السيد ، فيض الأحاسيس ص91

وسرحت عبر خواطري ... فرأيت أشياءً كثيرة

هذي الصغيرة ربما ... أضحت لمدرسة مديرة

أو أصبحت أستاذة ... أو ذات فكر أو وزيرة

لا تعجبوا مما أرى ... فالعلم قد عمّ الجزيرة

والعلم نور واضح ... جعل الدياجر كالظهيرة

وفتاتنا قد حررت ... من بعد ما كانت أسيرة

وسعت إلى نيل العلا ... بخطى موفقة قصيرة

لا غرو إن هي وظفت ... أو أصبحت يوماً شهيرة [1]

من قضايا تعليم المرأة

ومن القضايا التي تكشفت أثناء مرحلة التعليم الرفض للزواج المبكر بحجة إكمال التعليم، وهذا إبراهيم الدامغ يعتذر للخاطب، فالرفض جاء من البنت ذاتها:

أبا العز ما أبعدت نجواك رغبة ... ولكنني سايرت بالرغم مقودي

فقد أقسمت من كنت ترجو لقاءها ... بأن تعقد العامين من غير مُسعد

ولو كان لي في عسفها ما يعيذها ... من البعد عن مسراك ما أتربت يدي

ولكنني حملت ما بين وارد ... وورد بعيد الغور آلام مجهد

وما حيلتي إن أعذر اللوم وانثنى إبائي ... ولم يشرق على السعي مقصدي؟

ولو كان لي محض اختيار لقدتها ... إلى ساحك الزاهي بثوب مجرد

فأنت الذي يزهو بك العرس والندى ... وأنت الذي يمتاحك الوارد الصدي [2]

---

(1) مفرح السيد ، فيض الأحاسيس ص74 دار ثقيف للنشر ط2 1414هـ-1994م

(2) إبراهيم الدامغ أسرار وأسوار ص194 نشر مركز صالح الثقافي في عنيزة عام 1426هـ

ولما رأى المجتمع فضائل تعليم المرأة انطلق الشاعر محمد عبد الله المسيطير 1352هـ-1933م والمتوفي في 1426هـ-2005م، يشدو بفضيلة المعلمات والعلم، ويخلع على المعلمات مكانة عالية:

وطفقت أعدو في الحياة يشدني شوقاً إلى استمرار خط حياتي
وتحقق الحلم الكبير بأن غدا بعد التخيل واضح القسمات
أنهيت مرحلة الدراسة كي أرى نفسي أدرس هذه اللبنات
وأعيش أوقاتي سعيداً بينهم فتمر بي في سرعة أوقاتي
هذا أسائله وذاك أجيبه بالنفي أحياناً وبالإثبات
ما أحسن التدريس لولا الإبتلا بمشاكس أو أحمق أو عاتي
أو ذي غباء ليس يفهم دراسة ولديه نثر القول كالأبيات

لكن المعلم والمعلمة يبتهجون بالنابغين من طلاب العلم وطالباته، الذين يتألقون فهماً ووعياً، ويتقبلون النصح والتوجيه، ويتابعون المدرس بالتدوين والمذاكرة، ويحفظون نفائس الشعر:

أما إذا وجد المدرس فتية فيهم من الأوصاف خير صفات
من رغبة في العلم ثم حماسة للفهم ثم تقبل لعظات
ثم اجتهاد للحصول عليه من شرح المدرس أو من الورقات
ومع التجاوب للمدرس فطنة وترى الذكاء يبين في اللمحات
ويزين ذلك كله عقل فلا صخب ولا رفع لذي الأصوات
فلسوف يرتاح المدرس بينهم ويحس بالإنتاج والثمرات[1]

---

[1] محمد المسيطير - ليالي العمر - 408

وهو يرى أن المعلم مربٍ يصلح الفرد؛ ليكون متشحاً بالعلم النافع، والعمل الصالح، و الشعور الصادق، و أن يحمل راية الإيمان، و الفكر ليصلح به أبناء المجتمع، أو يكون داعية لله، حافظاً للقرآن، مستلهماً سيرة الرسول ﷺ.

ولسوف يحرص أن يكون مربياً ... حقاً لتلك الأغصن النضرات
ولسوف يرعاها ويسقي دائماً ... ذاك الجني منها بكل ثبات
ولسوف يسهم في بناء حياتها ... بحديث خير الخلق والآيات
ويعدها لتكون جنداً للهدى ... والحق والأوطان في الأزمات
ما أعظم التدريس من عمل له ... آثار في الفتيان والفتيات[1]

وما دام المعلم يرث العلم، ويبذله، فهو ينتمي لأشرف مهنة، مهنة الإيمان، ومهنة العقول، ولكي تتم الرسالة فعليه تقوى الله في عمله، ومع كل هذا الفضل، فإن الشاعر يتمنى على المجتمع أن يرفع من شأن المدرس، ويعلي قدره:

إني أرى التدريس أشرف مهنة ... تباعته من أشرف التبعات
فليتق الله مدرس دائماً ... فيمن يدرسهم من الفذات
ولترفعوا شأن المدرس كي نرى ... جيلاً مناه العيش في الجنات
جيلاً قوياً صالحاً ومثقفاً ... مترفعاً عن سيء العادات
وإلى المدرس والمدرسة التي ... تبني لنا جيلاً من الأخوات

---

(1) عبد الله الشبانة الزفرات الحرى - 237

ومن آماني الآباء أن تنال بناتهم أعلى الدرجات العلمية، وأن يتحلين بقيم العلم، وأن تكون سلوكياتهن نابعة من الدين والعلم والمعرفة، يخاطب الدكتور موسى العبيدان ابنته فيقول:

أبنيتي إن الحياة جميلة ... وجمالها علم مفيد قيم
فهو الجمال لمن أراد تجملاً ... وهو الحياة، ونعم فيها القيم
فالعلم يحيي ميتاً بنميره ... وبه على طول الزمان تقدم
والعلم نهر دائم متدفق ... للواردين عليه طاب مخيم
ويضاء داجي الجهل من أنواره ... ويرق طبعاً طالب ومعلم
هيا انهلي من عذبه ونعيمه ... ليقام صرح للحياة مقدم
إن الفتاة تزينها أخلاقها ... ويزينها علم به تتقدم
فإذا خلت منه الفتاة كأنها ... بيت خراب واقع متهدم[1]

لقد طرأت ظاهرة جديدة بعد تعليم البنات تتمثل في كثرة المتقدمات للوظائف، حتى تزاحمت بهن المدن، فأخذ تعليم البنات يوظفهن في القرى، مما جعل الحوادث المرورية تطرأ على السطح، وقد ذهب ضحيتها بعض المدرسات، ومن هذه الحوادث المأساوية حادثة وفاة ست معلمات في الطريق بين تبوك وضبا، وقد كتب عدد من القصص القصيرة، وبعض القصائد الشعرية تعليقاً على هذا الحادث المأساوي، وقد كتب علي أبو هاشم قصيدة يرثي فيها زميلات زوجته عنوانها "مذكرات معلمة": **ابي أول راسمالي كبير**

يحبسني كبقرة حلوب
ليأكل زبدة راتبي الحقير
فيا نساء الأمية اتحدن

---

(1) موسى العبيدان - تباريح وجد 85

فليسقط أبي

وليسقط بند الأجير

** **

أنا معلمة جغرافيا

في قرية من الصفيح..!

أرسم خارطة وطني

وأزرع حبه كما يزرع الفلاح

حبة بزاليا

وبعد الحصة السابعة

فعمرنا كالفراشات

بعد الحصة السابعة

نموت على الطريق

ثمانيا.... ثمانيا[1]

التحولات في شعر ابن إدريس

هـذا بحـث كتبتـه بمناسـبة تكـريم عبـد الله بـن ادريـس في مهرجـان الجنادريـة عـام 1431هـ 2010م.

في هذه الليلة أطل علـيكم مـن خـلال مثقـف عـالي الثقافـة بتنوعهـا، مثقـف يمثـل الوسطية الفكرية التي تتوائم مع تجليات العصر، يحمل فكـراً متنـوراً، وعلمـاً شـرعيا واسـعاً. ويلج إلى عالم الإبداع الحي والواعي، وتـزود بعـالم الاتجاهـات الأدبيـة وتنظيراتهـا، وخـاض غمار التجارب الحياتية المعاصرة، ومزجها بالتاريخية التراثيـة، والأمثـال والحكـم، والتواصـل مع الإبداع العربي قديماً وحديثاً وهو متابع واعٍ بالتكوين الثقـافي العـالمي، والتكـوين الإداري والاجتماعي والصراع الحضاري أو التلاقي الحضاري.

(1) علي حسن أبو هاشم - أنت النساء ص35

وهو لسان حال أبناء وطنه الذين يرفعون راية الدين، ويبنون وطناً شامخاً ويفاخرون بالانتماء القدسي والمكاني للحرمين الشريفين والجزيرة العربية.

لقد كان ارتباطه مع أرباب العلم متواصلاً، وولاءه لولاة الأمر وثيقاً، وإطراؤه لأعمالهم البنائية مشهوداً، شأنه شأن كبار الشعراء والحكماء الذين خلدوا الفضائل في شعرهم، وخلدوا الذكر الحسن للأعمال الجليلة على مستوى الأمة العربية والإسلامية.

نبذه عن حياته

عبد الله بن إدريس ولد في نجد عام 1347هـ-1926م، درس في الرياض وعمل في وزارات متعددة وفي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.جمع شعره في الأعمال الشعرية الكاملة وله مؤلفات متعددة.

القيمة الفكرية

إذا ما تأملنا في المكانة الشعرية التي نصنف ابن إدريس من خلالها لقلنا إنه شاعر القيم الأخلاقية السلوكية، فهو يحتفي بالقيم الإنسانية التي تعلو لبناء الإنسان منفردا وداخل الحلقة الاجتماعية، بل يتنامى فكره، ويتماهى في التكوين البشري، وتبرز في مسيرته الشاعرية القيم الدينية التي تلبس بها، وتمحور شعره في إطارها. والمتفحص لشعر ابن إدريس ينفذ إلى رؤيته الفكرية والفلسفية، بل يدرك التصالح بين العقل الذاتي للشاعر وتلك الرؤى، وروح المثالية الفكرية والأدبية المعاصرتين:

لا تندموا أبداً فلست بنادم   وسواي من تخذ الحطام معوّلا
لي مبدئي ولي عزتي وكرامتي   لا تُستذل لغير حق أنزلا
يُرمى على دربي النضار فأنثني   مستصغراً شأن النضار ومفضلا[1]

---

[1] إبحار بلا ماء ص10

والشاعر ابن إدريس قادر على استكناه الحقائق الفكرية الشمولية التي تنبثق من التكوين الذهني التراثي والمعاصر الذي يدعو إلى تجلي البرهان بالحوار والجدل المنطقي. فالمهمة الإسلامية لا تقف عند فرد أو مكان أو وطن، إنما هي أمنية عالمية؛ فهو يشير إلى الصراع الحضاري الفكري الذي يدير الحروب ويدبرها.

وتنـزل القـرآن وحيـاً خالـداً	يجلـو الأكـوان مـن ظلماتهـا
يـدعو إلى التوحيـد أشـرف مبـدأ	ويحـرم الأسـواء مـن عاداتهـا
ومشت تقيم العـدل في أصقاعها	والأمـن للأوطـان في سـاحاتها[1]

والأنا في شعر ابن إدريس منداحة في خضم القيم الإنسانية السلوكية التي تنشد تصالح البشرية والتزامها بالقيم الخيرية، التي تبني الإنسان والمكان، وتكشف عن الرؤى الموحدة للبشرية التي تخضع لبراهين الكون، وتنطلق من عقلية نبعت من شعور صادق قابلة للتحقيق في عموميتها، فالحب رباط إنساني عقلاني تدعو له الأديان السماوية، والفلسفات البشرية، مثل الوجودية.

فهو يشير إلى المقاصد الإسلامية العامة للبشرية، فكل من تواصل معها فإنه متساوٍ مع الآخرين، ويشير إلى الفضائل والإحسان والتواد، وكلها قيم إنسانية عالمية، تهفو إليها الضمائر الشريفة، وتتعلق بها القلوب النبيلة.

هـي أمـتي وسـدى المحبـة نـسجها	والخـير للإنـسان رمـز صـفاتها
هـي أمـتي أكـرم بهـا مـن امـة	يتنـور الـثقلان مـن صـفحاتها
سـلكت بأبنـاء البـسيطة منهجـاً	يحيي الفـضائل في رسـيس رفاتهـا[2]

---

[1] في رورقي – ص14، 16

[2] المرجع السابق - ص13

ويحكي ابن إدريس جل القضايا الفكرية التي تبتغيها البشرية، وهو يستمطر لها القوة الإسلامية التي تبثها وتحميها، وتغذيها، وتجاهد من أجلها، بل هو رجل يرى أن القوة مبدأ ايجابي إذا هيمن الجور والطغيان. وقصائده في الجزائر وفلسطين وسائر مواطن الجهاد المشروع توحي بقوة انفعال واندفاع، بل يعلن الكفاح ضد الجائر الظالم المعتدي، يقول عن الجزائر:

لا... لن نحيد عن الكفاح
ولن نحار ولن نهون
رغم المقاصل والسجون

وتتراءى العقلانية الفكرية ونتيجة التجارب في شعره كثيرة، تجلوها كثرة الشعر الذي يجري مجرى الأمثال، كقوله:

إذا النفـــوس تجـــردت غاياتهـــا	للخـير لم تحفـل بقـول عـداتها[1]
مـا للتـضامن مـن بـديل نـاجع	في أمـة ضـعفت بطـول شـتاتها[2]
هـــذا يكيـــد، وذا يبتـــز طيبتنـــا	وذا يخاتلنـــا، والكـــل صـــياد[3]
حـق الأمومـة إحـسان وتكرمـة	إن العقـوق لهـا جـرم وإفـساد[4]

حفظـــــت مجـــــدي في يـــــسر وإعـــــسار [5]

(1) المرجع السابق - ص12
(2) في زورقي ص16
(3) أترحل قبلك أم ترحلين؟ - ص55
(4) المرجع السابق ص55
(5) المرجع السابق ص61

إنني أمام مثقف بنى فكره في مرحلة الشباب، في زمن شحت فيه منابع المعرفة من الطباعة ووسائل الإعلام، وندرة الكتب، وصعوبة الوصول إلى قلب نجد، غير أنه لا يفتأ ينهل من الحراك الثقافي العالمي، بل يؤلف كتاباً بديعاً مفيداً يحمل روح العصر، من جوانب ثقافية متعددة : كالدينية والاجتماعية والأدبية والفكرية، وهو مستوعب للاتجاهات الفلسفية والفكرية والنقدية التي تموج بها الصحافة في مصر والشام، ويدرك أثر الحركات الفكرية والأدبية على الواقع الاجتماعي، وبناء الفكر المعاصر، مشيراً إلى تلك القضية بقوله عن الأدباء والمفكرين: "فقد خرجوا من عزلتهم الفكرية، ونزلوا من بروجهم العاجية إلى حيث يعيش الناس، وأخذوا يشاركون بنتاجهم الفكري في بناء المجتمع الجديد تصويراً حياً للواقع..."[1].

وديوانه الشعري سجل حافل بالمسيرة التاريخية الحديثة للجزيرة العربية، بل يكتب للواقع العربي والإسلامي، ويدون المشهد السياسي للوطن السعودي. وهو أيضا يتواصل مع ذوي الجاه والسلطان، فيمدحهم ويشيد بأعمالهم الجليلة، ويحضر المنتديات الرسمية والمناسبات العامة، وهي كفيلة بعزله عن أسباب المعاناة الإنسانية الفردية والاجتماعية.

وأضحى ابن إدريس في مرحلته الأخيرة شأنه شأن الشاعر العربي الذي يسعى لرفع مكانته والترقي في درجات الجاه والمكانة العلمية، كجرير والفرزدق وأبي تمام والمتنبي، ولو أن الشعراء مازجوا بين التأمل الاجتماعي والرقي الذاتي لاستطاعوا تصوير نزعات العصر والمكونات الاجتماعية شأنهم في ذلك شأن الشعراء المصريين، مثل حافظ إبراهيم، وأحمد محرم.

ونحن إذ نتأمل ديوان ابن إدريس الشعري، ونبحر في دهاليز أسطره وأبياته، نجد غياب المجتمع ومعاناته وطبقاته، والأحياء الفقيرة في منأى عنه، وربما يعود ذلك للتباعد بين المكانة الذاتية للشاعر، وحرصه على ملازمة ميادين العلم، وقادة الحراك الديني، ومرافقة العلماء، وهؤلاء في بحبوحة من العيش، ولله الحمد فنحن في دولة أكرمت العلماء وأنزلتهم

---

(1) شعراء نجد المعاصرون - ص47

منازل عليا وهم في معزل عن الأحياء الفقيرة لا يدركون معاناتهم، وابن إدريس انتمى إلى تلك الشريحة الاجتماعية.

وفي رأيي أن الشاعر عبد الله بن إدريس كانت تتجاذبه قوى ثقافية، وكان على مفترق طرق بين ثقافات متعددة، فهو التحق بالشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة ولازمه، والشيخ معروف بعلمه ونفوذه، ويحمل هاجس الدعوة وحراسة الفضيلة، وكذلك استمع لغيره ممن يدعون في حلقات المساجد، ويقرؤون كتباً شعرية حول المذهب السلفي.

ومن العوامل المؤثرة فيه دراسته في كلية الشريعة وتخرجه فيها عام 1376هـ، ومن هنا فإن الشيخ عبد الله بن إدريس أبحر في الدراسات الشرعية، لكن يُسجل له أنه لم يقتصر على تلك الدراسات، فقد أبحر في مكونات الثقافة المعاصرة، وانطلق شعره من هذه المكونات في مستهل حياته، ودرس الاتجاهات الفكرية الأدبية المعاصرة، وربما كانت تلك الثقافات، وتلك الاتجاهات هي ما دفعته إلى الامتناع عن القضاء.

والرجل استصحب الرافدين الثقافيين في حياته، ترنو عيناه تارة الى رافد الشريعة، وتارة الى رافد الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ونجح في أن يحصن نفسه من الوقوع مغبة الانزلاق. وظني أنه ظل مستصحباً تلك الروافد عبر مسيرة حياته العلمية والفنية والعملية، انظر إليه حين يقول:

وثبة الروح بفكر نير ... صفحة ليست تواريها الدهور
فاطرق الباب إلى أسمى المنى ... وانتظر بعد دياجي الكون نور[1]

فهو يجمع في شعره بين الدعوة إلى التمسك بالقيم العليا والدعوة إلى ضرورة الأخذ بأسباب التطور والتقدم، بل إن الشاعر ابن إدريس يتحدث بلسان غيره في أغلب الأحيان استجابة لمكوناته الذهنية أو لمكوناته الاجتماعية أو هما معاً. وأكثر أغراضه في الإسلاميات،

---

[1] في رورقي – ص239

وهي من أهداف مكوناته الذهنية والاجتماعية. ذلك هو الشعر الذي يتحدث عن قوة الأمة الإسلامية، ومحاربة الأعداء، فقد حاز هذا الغرض مكانة فسيحة في شعره:

يا قادة الإسلام مرحى جمعكم	في أقدس الأقداس من ربواتها
متضامنين على المحبة إخوة	كل الشعوب ترومكم لنجاتها
ما للتضامن من بديل ناجع	في امة ضعفت بطول شتاتها [1]

الهوية:

لاشك أن ابن إدريس كان نموذجا للشباب الواعي المفعم بالآمال، المشبوب بوهج الغايات والأهداف للأمة العربية، المتجاوز حدود الوعي الاجتماعي العام، مما يوحي بهجرة فكرية وإبداعية إلى عالم فضائي مشحون بالشهب والأقمار في ظل أفق الواقع المظلم الذي تعيشه الشعوب العربية، وكان يحمل ذاتاً واعية تصطدم بها موجات الواقع المأساوي، فانصرف في شعره إلى معالجة الحوادث الكبرى المؤثرة في الأمة.

بيد أن شاعرنا لم تكن انطلاقته الشعرية من النوع الصادم مع قضايا العصر، وظني أنه كان يؤثر السلامة على المغامرة، صحيح أنه كان مثل طائر مغرد في أجواء وطنه، غير أن انطلاقته كانت محفوفة بالالتزام..! ذلك لأن الناس في بلادنا جارحون كالصقور، على حد قول "صلاح عبد الصبور" والهيمنة الاجتماعية لم تكن حصراً على مجتمع دون آخر، بل هي مسيرة اجتماعية عالمية في كل زمان ومكان، فكل طبقة تصور مصلحتها بوصفها المصلحة العامة لكل أعضاء المجتمع، أي أنها تعبر عن نفسها في شكل مثالي، إن عليها أن تعطي أفكارها شكل العمومية، وتصورها بوصفها الأفكار الوحيدة المعقولة والمشروعة على نحو شمولي. وهذا ما نراه في كل أمة وفي كل دولة.

---

(1) في رورقي - ص17

ألم تر إلى حال الدول الكبرى؟ كيف تبنت أيديولوجياتها الجائرة كالشيوعية أو الرأسمالية أو العولمة، ثم هي في مستنقع المزالق قد هوت، بعد أن تكشف للعالم خطأ معتقداتها وأيديولوجياتها.

على أن ابن إدريس كان طرازا خاصاً، يمثل طبقة مثقفة تدرك تلك المخاطر التي تتوارى خلف هذه المذاهب البشرية الخاطئة. ومن هنا لجأ هو وغيره من المبدعين المستنيرين إلى التوجيه الرباني، وتعاليم الرسل، فقد كان ذلك في رأيهم هو خلاص الإنسانية ونجاتها في رحلة الحياة الممتدة.

إن الباحث عن هوية الشاعرية عند شاعرنا، يدرك أن هناك مؤثرات كان لها كبير الأثر في عقلانية الشاعر منذ طفولته المبكرة، فهو أولا قد عايش البناء الديني المنفرد في مستهل حياته. فبنى معرفته على حفظ القرآن الكريم، في مجتمع اتباعي، ملتزم بظاهرية النص أو الأحكام المنتقاة التي يستنبطها كبار العلماء لمجتمعهم، وثانياً التلاقي مع الفكر المعرفي، والفكر الثوري العربي في فترة حرجة من تاريخ الشعوب العربية، التي ترزح تحت نير الاستعمار الغربي، وطغيانه، وما كان يطمح إليه من تفتيت القوي العربية، واستلاب خيرات الشعوب، وإعادة صياغة جديدة لخريطة الوطن العربي. الأمر الذي أدى إلى نمو الوعي العربي عموماً، حتى بات الأمر يحتاج إلى إحداث ثورة فكرية واجتماعية في البلدان العربية.

وقد صادفت تلك المحطات الفكرية، وذلك الجو العربي المشحون بالثورة ضد الظلم والاستعمار فتى عربياً، تجلبب بجلباب أمته العربية والإسلامية، وحمل الهاجس العربي في عقله ووجدانه، فاندفع يصور هذه القضايا الواقعية أصدق تصوير. ومن شعره الذي يجسد فيه هذا الاتجاه قصيدته (من نهج الحياة). وقد أبدعها وهو في مستهل العمر، أو في ريعان صباه، حيث الشعور المتدفق، والاندفاع الوثاب، والإرادة القوية، وفيها اتضح مبدؤه، وتجلى هدفه، وتبلورت غاياته، فالمبدأ هو رقي الشعب وتطوره، وتفانيه للمعرفة والإبداع، ومناصرة دينه وقيمه، وتلاحم أمته ومؤازرتهم، ليتحرر المجتمع العربي الإسلامي من ذل القيود والخضوع والاستعمار. وظهور (الأنا) في القصيدة ليس معناها مضادة الآخر

والمواجهة معه، إنما هو احترام الذات، ودعوة الآخر إلى احترامها، وإنصافها حقوقياً وإنسانيا.

أنا لا أحفل من دنيا الغناء	بمنال ليس رفاف السناء
أو بجاه ليس يبقى خالداً	في سجل المصلحين الأقوياء
واكبوا العصر وشادوا نهضة	تنشر الميت وتفنى للبقاء
لا يرون المال إلا آلة	تصهر الشعب بروح الافتداء
لفقير معوز أو عاجز	مسه الدهر بأنياب العياء
إن قوما قدسوا دنيا الجيوب	لعمى عن نواميس السماء
همهم جمع حطام زائل	ذاك هم الجاهلين الأغبياء

إن الشاعر يمثل همة أقرانه من الشباب في تلك المرحلة، فهم يبتغون العزة، وينشدون التآزر والتلاحم والعمل الجماعي لبناء الشعوب والأوطان وحمايتها، وعليهم ترك ملهيات الشعوب الداخلية التي تؤدي إلى الفرقة والتضاد.

لا تقل ذاك أصيل أو هجين	فكلا النوعين من ماء وطين
إنما المجد لشهم نابه	أبداً يطمع في سبق السنين
همه الملتاع إشعاع الضيا	ء بليل معتم لا يستبين
يسكب الأنوار من مشكاته	في صدور الحائرين البائسين
ليرى الساري إلى آفاقه	موكب المجد ومغنى الطامحين
فإذا ما انداح في أغوارها	غمر الإحساس فياض معين
من رؤى الحق وأحلام النهى	ومجالي الخير من دنيا ودين

إن الأبيات فيها لمحات تاريخية ومؤرخة لحياة جديدة، تساير حياة الشاعر الزمانية والمكانية والفكرية، وتسطر علاقات متداخلة في التركيبة الاجتماعية، وتؤصل للنظرة الكونية لدى شباب غض يتمنى المثاليات، وربما لا يدرك العقبات أو لا يخشاها.

ما انطلاق الحر في دنيا الشعور	كرسوف العبد في دنيا الثبور
ذاك شهم للمعالي صاعد	يتسامى فوق هامات العصور
ليس يثني عزمه أو يزدهيه	لدى الحق مآسي أو سرور
واخو الجهل رتيب حائر	ومع الجهل قناطير الغرور
هكذا الدنيا وذي أحكامها	في بني الأرض إلى يوم النشور
وثبة الروح بفكر نيّر	صفحة ليست تواريها الدهور
فاطرق الباب إلى أسمى المنى	وانتظر بعد دياجي الكون نور[1]

والقارئ للقصيدة يدرك أنها تشع بمكونات الثقافة الذهنية للشاعر، فهي تصور نبع التقاليد، والتأثير الديني والخطاب الثقافي المعاصر، والقصيدة تتلاحم مع المبدع، فهي تكشف في لغتها وتصوراتها وإحالتها التاريخية والدلالية المعاصرة عن تشابك المعتقد والموروث، مع الحالة الحاضرة والمستقبلية، وتفاعلها كلها مع التكوين الفكري المعاصر، والحوادث القوية الضاربة في عمق الفرد والمجتمعات، كلها تتلاقى في لغة القصيدة نابعة من شعور المبدع وتكوينه، ممثلة لحالة الأفراد والمجتمعات.

---

(1) شعراء محد المعاصرون - ص289

شعراء نجد المعاصرون:

إن الاختيار جزء من العقل، وانتقاء ابن إدريس لمجموعة الشعراء الذين أوردهم بكتابه "شعراء نجد المعاصرون" ينبئ عن فكره، فالشعراء الذين ترجم لهم يمثلون نبض الأجيال الجديدة، يتألمون بألم الفرد والمجتمع، ويتطلعون إلى تحقيق آمال الأمة، وينحتون مسارب الثقافة، ويرسمون طرائقها وسبلها، ويعالجون قضايا تعاني منها الأمة وتعرقل مسيرتها، ولسان حالهم قول محمد بن سليمان الشبل:

يتلـــوى والأغـــاني بـــين جنبيـــه تنـــوح
نغـــم في قلبـــه الخفـــاق يغـــدو.. ويـــرح
كلمـــا فيـــه مـــن الـــشدو دمـــوع وجـــروح

القراءة الشمولية:

إن الذي يلج في ديوان ابن إدريس يدرك أنه أمام مبدع متمكن، ويستطيع أن يحاور متلقيه بقراءات متعددة، عبر مرحلتين رئيستين تميز بهما إنتاجه الشعري **فأما المرحلة الأولى:** فقد تزامنت مع تلك الفترة التي سبقت تأليفه كتاب "شعراء نجد المعاصرون" وامتدت إلى زمن التأليف. وقد تميزت هذه الحقبة الزمنية بإبداعه الشعري الذي سجل فيه نبض الشباب العربي، المكتوي بالظلم الغربي وتمرده على الواقع الاستعماري الجاثم، وصموده ضد الطاغي الجاني، يجمعه ذلك الهدف السامي وإن اختلفت أيديولوجياته. وكانت أنظاره متجهة ضد المستعمرين، ولسان حاله يحكيه ابن إدريس في قصيدته (لا، لن نحيد عن الكفاح)، وهي قصيدة وطنية حماسية توجه بها الشاعر إلى كل مجاهد في سبيل الحق والحرية والسلام، إلى أبطال الجزائر المغاوير، وإلى جميلة بوحريد، وجميلة بوباشا، وأخواتهما في النضال:

لا لن نحيد عن الكفاح
ولن نحار... ولن نهون
او يستبد بنا السكون
رغم المقاصل والسجون
حتى نمرغ طاغياً
طاغ وقاح
في بؤرة الخزي الفظيع
ونذيقه البأس المريع
فشعارنا
لنضالنا:
الا نحيد عن الكفاح
ابداً.. ولن نضع السلاح
حتى نطوح بالغزاة
بالفاتحين
الغاصبين
بحثالة المستعمرين
ابداً سنزحف للفداء
للثأر.. للحق السليب
لنطهر الوطن الحبيب[1]

ونحن نلمح في تلك الفقرات نبضات وجدانية تصطرع في قلب نابض يهتز للمؤثرات الوطنية، ويكتوي مثل أقرانه من بني العروبة لذلك الهوان الذي تكابده شعوب العرب في كل مكان.

---

(1) شعراء نجد المعاصرون – ص295

وأما المرحلة الثانية: فقد ظهر فيها الشاعر في صورة الشيخ المبجل الوقور، الذي عركته التجارب، وخبر الحياة، فتنامى فكره، وأينعت رؤاه، ونضجت خبراته، ومن ثم فقد أطّر فكره، وأصغى لصوت عقله، وغلّب الواقع على عواطفه، وآية ذلك عندي أني أرى قضايا مسكوتاً عنها في شعره، مع أنها لازمة لكل ذي موهبة شعرية، وتتمثل في النظرة التي تخترق مكونات الواقع، فكل شاعر من البشر يتجاوز ما حوله بفعلية ذهنية أو بوحي من شيطان الشعر، والقضايا المسكوت عنها تتمثل في الإنارة الوجدانية الذاتية الغزلية، مع كونه في قوة الانفعال والتوهج الوجداني، وأيضا ما يقع على ذاته من الم وأحزان نتيجة الصراع البشري الحياتي الذي يكابده الإنسان في حياته، وهو صراع حتمي وقدري لا فكاك منه، ثم من أولى بوهج الإحساس من الشاعر.؟!

ونفتقد كذلك الألم الجمعي عند الشاعر في مكونات الحياة التي تسربت على أوطان الأمة العربية من التيارات المنبعثة من الشرق والغرب.

غير أني أرجح أن تكون ثمة تجارب شعرية محجوبة سواء أكانت مكتوبة أم حجبها الشاعر ولم يستطع بثها وبعثها في هذا العمر المتاخر. ربما لحرصه على وأدها مبكراً، ورغبته في تقديم إبداع يعلو فيه صوت العقل لا الوجدان، خشية النقد والتجريح، وربما كان ذلك أيضاً محض وهم وخيال، ولكنه عملاً بالقول السائر: باب يجيك منه ريح سده واستريح..!

التعالق مع الواقع العربي والإسلامي:

يشكل شعر ابن إدريس حكاية الصورة أو الظل للتركيبة الفكرية. فشاعرنا فضاء رحب لثقافات متنوعة، وآمال تجاوز الواقع، وتكشف أشعاره عن تحولات في العقلية الوطنية المعاصرة التي تدلف إلى رحابة التنويع الكوني المعاصر، فهو وليد بيئة تشبعت بالثقافة الشرعية الفقهية التطبيقية، ولم ينكشف لها الثراء الثقافي المتلون والمتنوع، لكن الشاعر قفز على الواقع المحلي، وتعالق مع الواقع العقلاني الذي يشكل الحاضر المظلم للفرد العربي المسلم، ويجسد الحالة المأسوية للأمة العربية والإسلامية، ويكشف عن تطور الثقافة وتماهيها، فهو في زمن لا يحد الوطن فيه حدود إقليمية، ولست أستطيع حصر تلك المؤثرات،

التي وحدت الشباب العربي في تلك المرحلة، وصيرت منه كياناً له مقاصده وغاياته السامية وإن اختلفت طرائقها ومساربها.

ولسان حاله في قصيدة (في زورقي) يجسد أحاسيس المجتمعات والأفراد التي تدرك أن السلام حلم وليس واقع، وأن تيارات الشقاء تضرب أعماق الوطن العربي، متمثلة في التيارات الاستعمارية الانتهازية، وتيارات التمزق والتخلف، وتيارات الفكر المتضاد والمتصارع.

هذا الاستلهام للماضي والاحتواء للحاضر والامتداد للمستقبل يتمثل في شعر المرحلة الشبابية عند ابن إدريس.

ربـــاه بلـــغ بالـــسلامة زورق الحلـــم الجميـــل
فهنـــا أعاصـــير الـــشقاء تفـــح مـــن خلـــف الأصـــيل
وهنـــا شـــراعي لامـــس المـــوج الجـــنح في ذهـــول
وتلفـــت القلـــب الـــشجي فهالـــه المـــس الثقيـــل
فـــإلى الأمـــان لـــشاطئ نتنـــسم الـــريح العليـــل
لعـــب الخـــضم بزورقـــي طغـــى علـــى مجـــرى الـــشعور
أفمـــا اطلعـــت فخلـــتني كـــالطير في كـــف الـــصغير..؟
إن كـــان ذاك فـــإنني مـــا زلـــت أحلـــم بـــالعبور
إن العبـــور إلى الأمـــان لخطـــوة الـــشهم النبيـــل
ربـــاه بلـــغ بالـــسلامة زورق الحلـــم الجميـــل[1]

(1) شعراء نجد المعاصرون – ص290

الأدب والمجتمع:

إن الذي يتابع الحراك الاجتماعي ويدرك تحولاته، ويلج إلى مكوناته الذهنية ويسبر أغوار تفاعله مع القيم والأسس التي تعارف عليها وألفها، ثم يتفحص شعر ابن إدريس يدرك أن شعر الرجل إنما هو صورة عاكسة وظلال للحراك الاجتماعي بمعتقده وتكاتفه وتلاحمه وتآزره حول قيمه، بل يتراءى له من خلال شعر ابن إدريس الالتزام والإقدام، وتارة يتراءى له معالم الشرائح الاجتماعية المختلفة، كما يتجلى له صورة الفرد الحذر الذي يدرك سطوة وسلطة المجتمع من حوله، وتارة أخرى تتكشف له لمحات تضيء جوانب الاتحاد والتعالي في شريحة من شرائح المجتمع، كما تظهر أيضاً نمطية الانتماء بقوة يشترك فيها المبدع مع العالم مع طالب العلم مع سائر أفراد المجتمع، حيث يجتمعون حول منظومة لها اتجاهاتها وقيمها، ولها أهدافها ومقاصدها.

وشعر ابن إدريس يجمع بين الوسيلة والكشف، ولنرى من ذلك جانب الوطنية والطبقية، فهما تتجسدان من خلال التحليل النقدي لشعر ابن إدريس، بل تارة يبلغ به الأمر أن يكون صوتاً إعلاميا اجتماعياً، ولا ضير في ذلك مادام الأمر يؤدي إلى بناء وتلاحم وجمع واتحاد. وهو الأغلب في شعر شاعرنا، يقول عن الجزيرة:

عادت إليك بهيجةً مزدانةً ... وشعارها الإيمان والإصلاح
أم العروبة والمآثر جمة ... أنى لها الإحصاء والإلماح
هذي المكانة ما اعتليتِ سنامها ... لولا جهاد مرعف وكفاح
هذا التراث الحي نسخة ما مضى ... من صفحة التاريخ وهي بياح
هذا التراث الخصب إرث جدودنا ... نسمو به وضميرنا مرتاح
هو لمسة من أمسنا وخميرة ... لغدٍ وريقٍ طيره صدّاح[1]

[1] إبحار بلا ماء – ص44

وحين نمعن النظر في لغة الشاعر ابن إدريس نـدرك قـوة ارتباطهـا بـالمجتمع وثقافتـه، وأنها تحمل ألفاظه وتحمل دلالات الألفاظ الشائعة، والمضامين الاجتماعيـة، ومجتمعنـا يرتكـز على المعجم الديني كثيراً، وشعر الشاعر يـصور كثافـة العلاقـة الاجتماعيـة وتأثرهـا بـالروح الدينية، ويجسد ألواناً شتى من مضامين تتجلى في لغة الشاعر وأسلوبه.

ونحن لو أخذنا نموذجاً واحـداً للاستـشهاد بـه لكفانـا، كقـصيدته (الأبالـسة)، فهـذه اللفظة – العنوان – دارجة على ألسنة شرائح المجتمع بمعنى الأشرار من الناس الـذين ينشرون بذور الفتنة والصراع بين أفراد المجتمع، واللفظة أصلها يعود إلى مركز ديني؛ فإبليس هو زعـيم الشياطين، وهو عدو آدم الذي أخرجه من الجنة، استمع إليه حين يقول في مطلع القصيدة:

تـصارعني بالـشر خـرس أبـالسُ   لتاخـذني أفكارهـا والوسـاوس

فالصراع لفظة لها دلالاتها الاجتماعية، فالعرب في صراع دائم، على المستوى القبلي والطبقي والإقليمي، كما أن الفقر وصعوبة الحياة مصدر مـن مـصادر الـصراع. ولاشـك أن الصرع بين الخير والشر صراع أزلي قائم ودائم بدوام الحياة

وما أنـا مـن يغـشى الـضلال مُيمّمـاً   إلى موقـف فيـه الـرؤوس نـواكسُ
ولكـنني اسـم والى كـل غايـة   تؤطرهـا الأخـلاق والحـق شـامس
فمـا قيمـة الإنـسان إن ذل نفـسه   على مـذبح الأهـواء والليـل دامـس
ومـا قيمـة الإنـسان إن زال خوفـه   مـن الله.. أو رانـت عليـه الحنـادس
فيـا رب البـسنى تقـاك فـإنني   لأربـا بنفـسي أن تـدور الهـوامس
دعوتـك يـا ربـاه والقلـب خاشـع   ببابـك لم يـبرج.. ولا هـو يـائس
فـلا تغفلـن دونـي لفـضلك مـدخلا   فأنت الكريم الحـق والـذنب حـابس

وأطلــق أســاري مــن ذنــوبي تائبــا   عليك اعتمادي لو زتـني الأبـالس[1]

فالألفـاظ "يغـشى، الـضلال، مُيممـاً، الـرؤوس" كلـها مـن المعجـم الـديني المتـداول اجتماعياً، و"نواكس" لفظة اجتماعية لها دلالتها الانكسارية التى تـنجم عـن الهزيمـة، ومـن ثـم الضعف. والنقاد والباحثون لو تأملوا العلاقة الاجتماعيـة وصـورها وتـشكلاتها مـن خـلال الألفاظ، وكذلك لو وقفوا عند التراكم المضموني والمعاني الجزئية لبرزت لهم صور شـتى مـن التلوين والتكوين الاجتماعي.

الشاعر والالتزام الفني:

التزم الشاعر ابن إدريس بالإيقاع الشعري القديم في جل شعره، وكأنه اقتفى الرعيـل الأول من كبار الشعراء، ولكن المغايرة تنهل من وحي المعاصرة. فأنت تعـايش شـعراً ملتزمـاً بالموسيقى، وهو ينـبجس مـن نبـع الأحاسـيس المتأججـة بالانفعـال الوجـداني الـذي يمـوج بمتغيرات العصر، ولا ريب في أن شعره عموماً مرآة صادقة انعكـست عليهـا معانـاة الإنـسان العربي وهمومه، وأحلامه في غد مشرق مزهر.

ومــــضى بــــي الإعــــصار يقــــتحم الحــــواجز والــــسدود
والقلــــب يخفــــق لاغبــــاً والفكــــر يعلــــوه الــــشرود
ومحيطنــــا ليــــل فهــــل نــــور يــــضيء لنــــا الوجــــود؟
ولقــــد ســــئمت وعــــاقني عــــن مطمحــــي الليــــل الطويــــل
فتــــنفس الإصــــباح عــــن نــــور أضــــاء لــــي الــــسبيل[2]

---

(1) إبحار بلا ماء ص116

(2) شعراء نجد المعاصرون ص291

فهو من خلال الأشكال الفنية القديمة استطاع أن يفجر طاقته الفكرية الشعورية ويغدو بحق لسان عصره ومرآة مجتمعه المحلي والعربي، فالشعر ذو الأصالة الفنية يستمد ثوابت المكونات الفنية تماماً كما يلتزم بثوابت المكونات الفكرية، غير أن شعره الذي التزم في قوالبه بنهج القصيدة العربية، كان إذاك يحلق في فضاءات عصره، متناولاً كما أسلفنا قضاياه الواقعية.

ومن صدى وقع الحوادث العربية عليه ثورة أبناء الخليج العربي في عمان:

هي وثبة الوعي الرفيع الباني … تجري على نسق وفي إتقان
هي صرخة الحق المجلجل في الفضا … دوّت لترفع راية الإيمان
هي زأرة الأسد في آجامها … ثارت تصد ضراوة العدوان
هي ثورة الأحرار تنذر بالفنا … مستعبدي الإنسان في الأوطان
السارقي الثروات في رأد الضحى … من دون خوف أو معرة شان
العابثين بكل حق أقدس … والطاعنين كرامة الإنسان[1]

والشاعر يدرك الألعوبة السياسية ومكرها، بل استبان أهدافها ومقاصدها في وعي نابض بالواقع. يقول عن الاستعمار الإنجليزي:

خدعوا الشعوب لحقبة من دهرها … باسم الحضارة والرقي الباني
فإذا الحضارة نزعة وحشية … وإذا الرقي فظائع الطغيان
تبا لكم من أمة مسعورة … عاشت على الأطماع والأضغان

(1) في زورقي ص٦٦

فالشاعر يفجر ذاته مستلهماً روح الجماعة نابضاً بتجربة الحاضر الـذي ولّـد الغليـان إبان الزمن المكون لقصيدته، ويعلق ثورته النارية على المغتصب المعتدي:

وطئـي رقـاب الانجليـز وأحرقـي	برحـاب نُـزوىْ عـصبة الـشيطان
لـك في الجزائـر أسـوة محمـودة	وببورسـعيد وشـعبها المتفـاني
كـم صـارعوا العـدوان في جبروتـه	لم يرهبـوا المـوت الـزؤام الرانـي
شـاهت وجـوه الانجليـز الغـادرين	وطوحـت في عـالم الخـسران[1]

التجربة الذاتية:

ابن إدريس يذيب التجارب التراثية في شعره، ويرسم وعي الحاضر الحياتي في منظوماته وإبداعاته، وتفيض أشعاره بتوالي الحالات النفسية وتنوعاتها وتشكلاتها نتيجة للتيارات العابرة في أمواج النفس البشرية، تأمل قوله الحائر إذ يناجي ليله في لحظة من لحظات الاغتراب القاسية:

يـا ليـل لا أنفـك أكتـب جاهـداً	فيـك القـصيد لبـالي المكـسور
الحظـي المنكـود أرسـل زفرتـي	ويمـوج قلـبي في لظـى وسـعير؟
أم للحيـاة إذ أنطـوي إنـصافها	بـين اللبيـب وجاهـل مغـرور؟
أم للنجـوم إذ ائـتلقن خوافقـاً	مرحـا وطفـن عـوالم الـديجور؟
أم للطبيعـة في مـشاهد جمـة	تغـري الـشجي بحلمهـا المـسحور؟
أم قـسوة الحلـك الرهيـب يلـف في	جلبابـه ألـق الـضيا والنـور[2]

---

(1) المرجع السابق – ص60

(2) في رورقي ص268

ولا ينفك عبد الله بن إدريس يصف شعوره الدافق، ويسجل نبض أحاسيسه المتلاحمة مع المشهد الخارجي، فهو يحمل النفس اللوامة التي تتعانق مع الكون بخيره وشره وبحلاوته ومرارته، ببؤسه وشقائه، وفرحه ومرحه، بنوره وضيائه، وظلامته وعتمته. وينقلنا معه في مناجاة وحوار مع النفس:

يا ليل حظي في الحياة كقطعة منسوجة من وجهك المنظور
لم أجن من متع الحياة وسيبها إلا نقاء سريرتي وضميري

ثم هو يؤوب إلى رشده، ويتحلى بالتفكير العقلاني، وناجي ذاته الداخلية: ليست الحياة دائما كما ترين، ليست هي لحظة ما تشاهدين، وإنما فيها أكوان من عالم الخير والجمال تتكاثف في مكونات أخرى تسر الناظرين.

ويتخذ من اللوحات الكونية صوراً حسية تتراءى للناظر، ويتوحد مع الطبيعة في شعره كشاعر رومانسي مبدع.

فأرى الجمال مرفرفاً ينساب في روض أغن مطرزاً بزهور
وأراه في ملد الغصون يهزها مر النسيم مضمخاً بعبير
وأراه في الشفق المورد بالغروب وفي النجوم كلؤلؤ منثور

دلالات الألفاظ والتراكيب:

ألفاظ ابن إدريس وتراكيبه نابعة من المكونات الذهنية والفكرية التي تضافرت في تكوين أدبه عموماً، ومعجمه الشعري نتاج تمخض من موهبة الشاعر الفطرية، علاوة على اطلاعه وقراءاته، وانفعالاته الدافقة إزاء قضايا مجتمعه.

والقارئ حين يتأمل في معجم ابن إدريس وفي تراكيبه يمتلئ قناعة بأن هذا المبدع الكبير لاشك متأثر على نحو ما بمدرسة الديوان، ومتجاوبة روحه مع شعراء المهجر، ومتيم فكره بالاتجاه الرومانسي...!

وآية ذلك أن القارئ لا يجد في ألفاظه غلظة في الصوت، وتعقيداً في المعنى فالألفاظ واضحة، وسهلة، وجزلة، والتراكيب في نسج من البيان متينة وقوية ومستمدة من صميم الواقعية الحاضرة، ونتاج لثروة فكرية مستقاة من أحداث العصر، تتفجر بالمضامين الوصفية المباشرة في أغلبها، كما تحمل أطيافا من الصور تتجاذبها التراثية والمعاصرة.

ولنتخذ مثالاً على ذلك، قصيدته في الحرم التي تعرض فيها لفتنة جهيمان، حين دخل الجناة الحرم، وقتلوا وفتكوا بالمصلين والطائفين والعاكفين، فإن ألفاظه وتراكيبه كانت كالأمواج المتواترة تندفع برفق واضحة، جزلة، يكتسيها حزن الحدث وبشاعته:

الله أكبر لم تعد مسموعة	فيه.. نداء للصلاة يجاب
حبس المآذن والمؤذن بغيهم	وتكلم الرشاش وهو خراب
هجر المطاف وفزعت رواده	والطائفون تجندلوا أو غابوا
والراكعون الساجدون تشردوا	وخلا المطاف وعُطل المحراب
كم أزهقوا الأرواح وهي بريئة	في موطن فيه الدعاء مجاب
حتى الحمائم رمز كل وداعة	قد فزعت وجلت لها أسراب[1]

ونستطيع في يسر أيضاً أن نقف على ملامح القصيد في شعره الوجداني، على نحو ما نرى في قوله:

معذبتي بالجمال الطري	وآسرتي بالمنى الحالمة
وجارحة كبريائي ارحمي	شبابي وحيرتي الواجمة

---

(1) في زورقي ص23

أنـــا بـــك دون العـــذرى معـــنيّ		وأنـــت بهجـــرك ظالمـــة

ويتجلى اتجاه الشاعر نحو التعبير عن قضايا عصره الشائكة في نماذج الشعراء الذين ترجم لهم، فشعرهم كشعره طافح بالتحدي والرفض والأماني الوطنية حتى التي يرفضها المجتمع. ويتكشف أسلوبه الرائق العذب أيضا في مراثيه التي يستعرض فيها مناقب المرثيّ وأعماله الفاضلة، وما اتسم به من فكر رشيد، ومبادئ سامية. كل ذلك يتشكل في ألفاظه المختارة وتراكيبه وصوره.

ولاشك أن ذلك يلقي بظلاله على جانب آخر في شعره، وهو وظيفة الأدب الأخلاقية، فابن إدريس ابن مجتمعه الذي يعلي من شأن القيم الأخلاقية بدافع ديني خالص.

انظر إلى رثائه في الملك عبد العزيز، ورثائه في الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ سيلوح لك حينئذٍ، كم كان الرجل شاعراً متقد العاطفة، صادق الشعور، محتفياً بالفضلاء. وممجداً للقيم السامية.

كما تناول الشاعر قضايا أخلاقية معاصرة، كان البعض منها نتاجاً طبيعياً لواقع المواطن العربي، الذي قل تمسكه بالقيم الفاضلة، وعزت قيم القناعة والرضا، ومن ذلك شعره عن بيع الذمم من اجل المال إشارة إلى الفساد المالي:

فلقـد رأيـت المـال يُجهـد أهلـه		في جمعـه ممـا أسـفّ ومـا عـلا
ولقـد رأيـت الكثـر خـادم مالـه		لا المـال يخدمـه حفيـاً مـبهلا
مـا المـال إلا بغيـةً ووسـيلةً		لبلـوغ ركـب يقـصدون المنـزلا
لا تحـسبوني داعيـاً لزهـادة		متـصوفاً يرضـى الحيـاة تبـتلا
كـلا.. ولا أدعـو لـرفض متاعـه		ممـا يحـل تنـولاً وتمـولا
أبـداً.. ولـست بكـاره انـداءه		لكـنني أبغـي المـسار الأمـثلا[1]

---

(1) إبحار بلا ماء، ص10

الوضوح والإضمار:

شعر ابن إدريس يطرح سؤالاً قوياً في خاطري، الا وهو: هل يكون الوضوح الشعري وراءه غموضاً، أو يتوارى خلفه تأويل ينبئ عن حراك اجتماعي أو ذاتي داخلي؟! وهل الحذر عند الشاعر يستطيع أن يحجب المحذور منه سواء أكان محذوراً مجتمعياً أو مذهبياً أو سياسياً؟

أغلب الظن عندي أن الناقد المتأمل المؤهل بتكوين فلسفي ومنهج فكري يستطيع أن يتأول ما وراء الظاهر المنطوق، وينشره للقارئ أو المتلقي، وقديماً قال الفيلسوف اليوناني أرسطو: إن الفلسفة هي تحليل الظواهر أو الأشياء".

وهل نرى من وراء حجب السياقات والصور ثمة أنواعاً من الحوار أو الجدل الباطني المضمر بين الشاعر ومكوناته الذهنية أو تركيبته الاجتماعية؟

إن وظيفة الناقد هنا هو تمحيص ذلك فكرياً تماماً كتمحيص الفيلسوف.

وقصيدته في رثاء شاعر لم يمت، إنما هي إسقاط لذات الشاعر، لأن الشاعر المرثي مات وهماً بحادثة سير قسراً، لكن الشاعر يقول إنه ملّ الحياة، واستماله روح النبوغ، والنبوغ جف، وقراءتي للقصيدة توحي لي أنها إسقاط على حياة شاعرنا ابن إدريس وطموحه الذي يرى أن لم يبلغه:

أتراه ملّ السير في ترحاله	حدِباً يروم السعد في إخطاره
أم صرّم الشؤم المرين بساحه	خيط الرجاء فحط في أوكاره؟!
ملّ الحياة تلفه بقتامها	وتذيقه الآلام في أطواره
أغرت به روح النبوغ سهامها	فتحطمت لما هوى بجواره
غنته آخر مقطع لقصيدة	فغفا شرود اللحن في أوتاره[1]

1 في روزقي ص216

والشاعر يبث فكره عبر الدلالات الظاهرية والخفية للغته الشعرية، بل تتكشف المفارقة المضمونية، مصوراً للحراك المجتمعي أو ناقداً له من خلال التضادية الظاهرية أو القبول الذي يوازيه رفض للتضاد

أبـنيّ إن أباكمو لم يستطب	أن يستهين بعلمه متوسلا
أو يستهين بعزة موروثة	تأبى المروءة أن تُذل وتُخذلا
أو يستهين بفكره وبحسه	ومواهب تبني الجادة والعلا
كلا.. فلست ببائع أو مشتر	بمبادئي نزل الطماع أو اعتلى
فرجولتي تأبى النفاق تقرباً	وكرامتي تأبى الهوان تحولا[1]

تلك نزعة وجدانية متأثرة بالمدرسة الرومانسية التي ترفض القهر والظلم وترفض التوسل.

عنصر الإيقاع:

التشابه الكوني ظاهرة يدركها المتأمل بين سائر مكونات الكون؛ بين البشر، وسائر الموجودات الحية، فلا عيب في التشابه، والتقليد نوع من المحاكاة والتشابه، والتقليد يولد الإبداع، ومن هذا الإتباع: ظاهرة موسيقى الشعر العربي، والوزن العروضي لا يحجب الإبداع، بل هو مضماره، ومغذٍ له، ومعين عليه، وحافظ له، وهو ليس معناه رفضاً للشعر الحر، فالإبداع لا تحصره حدود ولا قيود، وكل اتجاه يستوعب الانطلاق والتجدد والتغاير.

والتزام ابن إدريس ببناء القصيدة العربية في جل شعره، إنما هو تشابه وإتباع، لنهج في القصيدة العربية انتهجه كبار الشعراء العرب، وقد تفرد فيه شاعرنا وأبدع. متصرفاً في اللغة في سهولة ويسر، مؤتلقاً في تجاربه الشعرية، مبدعاً في سياقاته التركيبية محلقاً على جناح

(1) إبحار بلا ماء ص13

القصيدة العمودية التي تلتزم الوزن الواحد والقافية الواحدة. وابن إدريس وظف الأوزان توظيفاً متميزاً، واتخذ من الفعل الموسيقي الداخلي عوناً له.

فالقارئ لشعره أو السامع يجد أن الألفاظ تحمل دلالة موسيقية من ناحية بنائها اللغوي، وتجاور حروفها، وكذلك تكوين الجملة القصيرة وتجاور ألفاظها، فالألفاظ ذات إيقاع والجمل ذات إيقاع. وهي متلاحمة مع التدفق الفكري المهيمن على الشعور. وقد استثمر ابن إدريس بلا تكلف تلاحم الجرس الصوتي لعوامل البناء الموسيقي، فالعلاقات الصوتية عنده تعانق أحاسيس المتلقي بهدوء.

يا سارق الأحلام من بين جفنيا
وزارع الأسقام من نبع عينيا
طف بي مع الأنسام في الروض والزهر
لعلني أسلو...
رجع أغانينا في سكرة الروح
وأندب أمانينا بلحن مجروح
واذكر مغانينا في هدأة الفجر
آه.... متى أسلو؟
يا لوعة حرى في قلبي الباكي
أوقدتها جمراً بلحنك الزاكي
فاستوجبي أجراً وسرحي فكري
فربما أسلو..!
ها أنت يا قلبي ومجتلي فكري
وقفت في دربي لتوثقي أسري
بثغرك العذب ولحظك السحري
فالآن لن أسلو

يا وردة عذراء لم يجنها جان
شممتك عطراً فهجت إشجاني
أعدت لي ذكرى ماض من العمر
فالآن لن أسلو[1]

فأنت ترى جرس الحروف الياء والألف، والنغم المتآلف في (بين جفنيا)، ثم لين الألفاظ وحسن تجاور حروفها الذي منحها إيقاعا ذاتياً للكلمة مما جعل مجاورتها للألفاظ الأخرى يبني سياقاً متآلفاً، وهكذا لو واصلنا التحليل لكشفنا عن موسيقى متلاحمة من مكونات اللغة وجزئياتها

ثم إن الشاعر قد استهل القصيدة بالتنويع في أبياتها، فالقصيدة وردت عنده متنوعة، فتارة ثلاثة أبيات ثم مقطع آخر مكون من بيتين، ثم يعود لثلاثة أبيات

ويمثل هذا البناء قصيدته المشهورة (في زورقي)، وفي قصيدته (سلوان) يأتي بثلاثة أبيات ثم بخاتمة مفصلية مكونة من كلمتين. والأبيات عنده مجزوءة، فهو يميل إلى الرقة والسهولة كما يتضح من القصيدة السالفة.

وهو يقترب من التنغيم الأندلسي الذي تجسد في الموشحات مع أن ابن سناء الملك يدعي سبقه وأوليته

بل هو ينظم قصيدة مكونة من مقطعات أكثر من رباعيات أو مخمسات، فبلغت المقطعة عنده سبعة أبيات، وجعل القصيدة مكونة من أربع مقطعات، وليست موحدة في قافية واحدة، وهذه القصيدة هي (من نهج الحياة) في مستهل حياته الشعرية.

وفي تلك المرحلة من إبداعه الشعري دلف إلى عوالم شعر التفعيلة كما في قصيدته (صوت الجزائر)، ولكنه في المرحلة التالية، حينما تجاوز مرحلة الاندفاع، إلى مرحلة النضج الفكري والثقافي، والتركيز في شعره على الموضوعات الفكرية والسياسية والاجتماعية، التزم

---

[1] شعراء محد المعاصرين ص292

حينئذ البناء الموسيقي الذي يقوم على القافية الواحدة، وإن كتب القصيدة مقطعات كما هو في القصائد الرثائية وقصائد القضايا الإسلامية.

وملخص القول:

إن الإيقاع عند ابن إدريس متنوع، فالشاعر زاوج بين عمود الشعر القديم وقبس من الشعر الحديث، إلى جانب تعلقه بالموشحات وتقسيم القصيدة وإن قصرت.

ونهجه هذا يوحي بالانسجام بين المضمون والانفعال ودورهما في تشكيل اللغة والصورة والإيقاع.

كما استطاع أن يوجد التلاحم بين المكونات الشعرية لإبداعه؛ لينقل للقارئ العربي تصوراته الإنسانية الذاتية، وحسه الجمعي المعبأ بالهاجس القومي والوطني.

قراءة في ملحق "إبداع"

(المسائية/العدد 1413/3368هـ)

"أقترح على الملحق أن يعني بقضية التشكيل، لاسيما في الشعر فهو يُعين على تذوق القراءة، ويساعد على مران اللسان ويصحح مسار المضمون..."

زكي قنصل والعصامية:

إن العصامية إذا تألقت تخطف بصري، وتستحوذ على كياني، فكيف إذا كانت أول زهرة ألتقي بها في إبداع المسائية هي عصامية (زكي قنصل)؟!

وزكي قنصل هو ذلك المهاجر الشامي الذي ذاقت نفسه مرارة الغربة، فأخذ يعمل ليكسب ويعيش، وطفق يتعلم ليبني فكراً، ويتألق إبداعاً.

والعيش في بلاد لا مكتبات فيها ولا علم إنما تعتمد على النذر اليسير من إصدارات الصحافة، وعدد محدود من الأدباء، ورغم ذلك فإن نجمه الصاعد يعلو ويسطع شاعراً وكاتباً، مما يدل على كونه رجلاً عصامياً بنى نفسه رغم ما اعترضه من صعوبات وعراقيل، ولعل ممارسة الشاعر للتحرير قد صقلت موهبته وعصاميته معاً.

وزيارة هذا الشاعر الكبير للوطن السعودي وإعجابه به تذكرني بسياسة استقطاب العقول التي انتهجها الملك عبد العزيز في مستهل النهضة، وهي سياسة لا ريب أخالها تعود بالنفع على بلادنا؛ فتشجيع مثل هذه النخب المثقفة واستقطابها لزيارة الجزيرة، تمكث بها زمناً تدون خواطرها، وتتفاعل مع ثقافتنا، وتمنح آراءها النيرة إذا استشيرت لاشك سيعود بالنفع العظيم على بلادنا من ناحية، وتتداخل ثقافتنا في تكوينها المعرفي والشعوري من ناحية أخرى. وهذه مسألة لن تتحقق على النحو المنشود إلا إذا نشطت ملحقاتنا الثقافية في البلدان العربية وغيرها، واضطلعت بهذه المهمة الجليلة، مهمة استقطاب المثقفين، ونشر ثقافتنا،

وكتبنا، وأدبنا الغزير الذي حاز إعجاب شاعرنا زكي قنصل نفسه خارج حدود الوطن السعودي، ولاشك أن الأمر سيجر نفعاً عظيماً أيضاً على المؤلف السعودي عينه.

قبسات من الملحق:

- على الصفحة التاسعة من الملحق مقطوعة بعنوان (بوح) لعبد الله بن سليم الرشيد، وفيها تعاتب المعشوقة الشاعر فيما هو ظاهر من الأبيات، ولعل هذا العتاب صادر عن وجدان الشاعر نفسه، حيث يقول:

بعض هذا العتاب فالقلب واه وحروفي تود أن تستريحا

وقد يكون الشاعر متوسلاً الرمزية حيث يقول:

بعض هذا العتاب لا تجعليني الفظ الأمس والجمال القبيحا

فهذه الحضارة البراقة التي تدعوه تؤدي به إلى تذوق الماضي المرّ، ولكنه سرعان ما يلفظه كأنه لقمة غير مستساغة، ولست أدري كيف يكون الجمال قبيحاً؟! اللهم إلا إذا كان الخطأ في تمييز الجمال من القبح كامناً في الذهنية الأولى التي لا تملك القدرة على التمييز بين ماهو حسن، وماهو قبيح؟!!

- وهذا هو الشاعر يحيي السماوي ينقلنا إلى ماضيه البعيد في قصيدته (رانيا) التي تتدفق نبضاتِ شعورية تلتقي وشكل القصيدة الفني، فهو يقف معها مباشرة في تفعيلة واحدة:

أخال بيوت قريتنا تغازلني وتفتح لي نوافذها حقول التين

والقصيدة تحكي حكاية الأمس للشاعر وجيله، وبيئته، وذلك التعلق النفسي الفطري بالدور والمنازل ومهد الطفولة والصبا، ومواطن الذكريات البريئة الحلوة، فالقصيدة في جملتها خاطرة عابرة، أو موجة لطيفة من موجات الذكريات.

غير أننا لا نشاطره المضمون حين جعل كفي "رانيا" منديلين، فهل هما لإزالة العشق وتباريح الغرام؟ أم أنهما لغرض لم يستبين؟

كفّا رانيا للعشق منديلين ... ولي من رانيا أحلامها الخضراء

- يطالعنا الشاعر إبراهيم خليل إبراهيم بقصيدة تفيض عذوبة ورقة، ناهيكم عن كونها تثير مشاعرنا نحو قضية اجتماعية أسرية وإنسانية، وهي قضية اليتم الذي يعانيه النشء الصغير من جراء فراق الأب أو افتقاده، وهي قضية تلقي بظلالها السوداء على نفسيات الأبناء لاسيما عندما يكونون في فترة الطفولة المحتاجة إلى الرعاية والحنان الأبويين. يقول الشاعر على لسان الأم الملتاعة:

ماذا جناه الطفل حتى يكتوي ... بسياط بعدك والفراغ الملهب؟
ماذا جناه الطفل إن بعد الهوى ... سيعيش كالطير اليتيم الأزغب
بالأمس قال وقد بدا متألماً: ... إن مت يا أماه هل يأتي أبي؟!

والقصيدة تكشف عن بعد اجتماعي مأساوي آخر هو الهجران بين الزوجين وانفصالهما بعد قصة حب تقطعت خيوطها بمُدية الحياة الصعبة، أنها قصة الأمنيات والأحلام الجميلة والرومانسية الواهية التي لا تستند على أرضية ثابتة من الواقع، فيلتقي الحبيبان زوجين قد ركبا سفن الأماني، لا يحسبان للواقع حساباً، فإذا الأحلام تغدو خيالات، والحب سراباً..!

وعن ذلك عبر الشاعر بقوله:

أو لم تكــن أنــت الــذي نــاديتني فــسبحتُ بحـرك والأمـاني مراكـب
وحملـتني في هــودج الحــب الــذي زانتــه أحلامــي ونــدى مــراكبي
وعلى بساط ساحر فـوق الـسحاب رفعـتني وعلـى الـسنا أبحـرتَ بـي

والقصيدة تفيض بالشعور الخصيب، فالشاعر استلهم حياة تلك المرأة، وتحدث عن معاناتها بضمير المتكلم، فكأنما قد عبر عن مأساة المرأة أصدق تعبير، وتلك القصيدة الرائعة في نظري هي تاج في مفرق ملحق (إبداع) لهذا الأسبوع، انظر إلى عذوبة الفاظ القصيدة في هذا الموضع:

تــوجتني في موكــب فكــأنني قطـر النـدى تختـال بـين الموكـب

أقترح على الملحق أن يعني بقضية التشكيل لاسيما في الشعر؛ فهو يُعين على تذوق القراءة، ويساعد على مران اللسان، ويصحح مسار المضمون، ولنضرب مثلاً بقصيدة (أنا وأنت) لمعيض العسيري فالعنوان به لبس وغموض لافتقاره إلى التشكيل في لفظة (أنت). والقارئ لمقدمة القصيدة يتبادر إلى ذهنه من الوهلة الأولى أن الشاعر لا ريب يتحدث عن علاقة تربط بين صديقين حميمين من الشباب الذي ينبض قلبه بواقع المسلمين المتهالك، غير أن الأمر يحتاج إلى قرينة إذ الأبيات اللاحقة تعرض لقضية عشق وقصة غرام، ولو أن التشكيل كان قد صُفَّ على حروف (أنت) لكان اللبس قد زال

أنــا وأنــت رفيقــان يمــور بنــا مـوج مـن الحـب في بحـر مـن القـيم
ننـساب مـن شـفة الآفـاق أغنيـة تهـزّ قلـب الربـى قدسـية الـنغم
جرحـان نحـن فجـرح كلـه شـعب مـن الـدماء وجـرح غـير ملتـئم

فاقرأ لفظة (أنت) بالفتح، ثم أعد قراءتها بالكسر ستجد المعنى مختلفاً لكن القارئ إذا واصل القراءة في أبيات القصيدة سرعان ما يكتشف أن الحديث عن حب عذري ملتهب يخنقه الصمت، ومارد الشيطان يخترق مسارب الدماء:

والريح تعصف رغم الصمت في دمنا كأنها مارد ينسل في الظلم
ما أجمل الحب والأهواء صادقة كالماء في الجدب أو كالنور في الظلم

حسين عرب

شعره نبض لمشاعر الأمة في آمالها وآلامها

(جريدة الرياض 30 ذي الحجة 1414هـ)

"ثم هو يعيب على عدم الوضوح في قصيد الشعر الحر، ولا يعترف بدعاوي التجديد التي تدعو إلى التحرر من القافية، وما الشعر الحر في رأيه سوى ضحالة في القول، وتقليد جاهل للغرب...

الشاعر حسين عرب مازال عطاؤه الشعري متواصلاً ومتنوعاً حتى توفاه الله عام 1430هـ، فمنه ما يمثل تطور شعره، ونظرته إلى المجتمع وتقاليده، ومنه ما يرتدي عباءة الحس الوطني ويتلبس بقضايا الأمة العربية والإسلامية، ومن ذلك قصيدته في حرب الخليج، التي أعلن فيها رأيه في جرأة وصراحة:

قد سمعناك أيها المتجني ... وعصيناك أيها الهدّام

ورأيناك والجنون فنون ... تزدهيك الدماء والآلام

لا تعد للصواب لا ينفع النصح ... لمن لا يفيده الإكرام

وشعره متعاطف مع أحداث الأمة العربية وقضاياها الجسام، فهو متألم للفرقة العربية، يرصد الحروب الداخلية للعالم الإسلامي، ويقف حزيناً أمام قضية فلسطين، ذلك الجرح العربي الذي لا يريد أن يلتئم، يدون ذلك النضال النبيل من أجل الحرية، وسعياً وراء تخليص هذا البلد الشقيق من دنس بني صهيون، ومن ذلك الرصد الأليم ما كتبه الشاعر عن

الفدائية (سناء المحيدلي) التي فجرت عبوة ناسفة في حصن إسرائيلي، واستشهدت عام 1405هـ في قصيدة يقول فيها:

اكـتبي تاريخنـا باللـهب	وطمـى السيل ومـا مـن معتب
وارسميـه بـشظايا الغـضب	حلـف مـارون وصـهيون غـدا
واتركـي كـل جبـان غـادر	غـدرة الـذئب ومكـر الثعلـب
يمـضغ الأقـوال باسـم الغـضب	شـايعتهم حيزبـون وجههـا
طفـح الكيـل ولا مـن منـصف	كـالح المنظـر والمنقلـب

والشاعر واحد من الشعراء الذين تغنوا بوصف المكان، وضمنوا أشعارهم أحاديث عن مدن المملكة وحواضرها، نجد ذلك واضحاً عند شاعرنا الذي أفرد قصائد بديعة تحدث فيها عن مكة والمدينة والرياض.

وبناء القصيدة عند حسين عرب كثيراً ما يرتدي عباءة الحوار، يحكي خلاله أفكاره وينثرها على لسان مفكر أو رجل حكيم، يقول الشاعر في إحدى قصائده:

قال الحكيم: رويداً أيها الرجل
أضنيت نفسك فيما ليس يحتمل

وهو يستهل به بيتاً بعد جملة من الأبيات

قال الحكيم: تأمل كل ما حكمت
به المقادير أو دالت به الدول

وقوله:

قال الحكيم: وخير القول أصدقه
وليس في الصدق إسراف ولا جدل

أما مذهبه الشعري فإنه يعبر عنه في قصيدة عنوانها (الشعر الحر)، إذ يـرى أن الـشعر الحق له بحـور، وأن التفـاوت إنمـا يكـون في الزحافـات والعلـل في الموسـيقى الداخليـة، وأن الالتزام ببحوره هو سر جمال الشعر، وعنوان سحره، والوزن هو القيـد الـذي لا يتجـاوزه إلا الموهوب.

قال لي صاحبي: أفي الشعر شعر
غير حر؟ وفيه شعر حرّ؟
قلت: كلا، وإنما الشعر فن
ذو بحور، لهن مد وجزر
قال: في وزنه يقولون:قيد
مستبد، وفي قوافيه حجر
قلت: في وزنه جمال وإيقاع
وأسر، وفي قوافيه سحر
إنما الشعر آية الله في الفصحى
ولا يفهم الفصاحة غِرّ
بل هو الذروة المنيعة، لايسمو
إليها إلا المنيع الأغر

ثم هو يعيب على عدم الوضوح في قصيد الشعر الحر، ولا يعترف بدعاوي التجديـد التي تدعو إلى التحرر من القافية، وما الشعر الحـر في رأيـه سـوى ضـحالة في القـول، وتقليـد جاهل للغرب.

والذي ظنه الدّعيون شعراً
غمغمات من الكلام وهجر

خلاصة القول: إن الشاعر الوزير حسين عرب قد أخلص لوطنه، وأمته العربية والإسلامية؛ فشعره نبض الأمة العربية والإسلامية، يتحدث عن أمنياتها، وآمالها، وجهادها، إلى جانب إيثاره وطنه بكثير من إبداعه، ناهيك عن كونه واحداً من أولئك الشعراء الذين التزموا الأصالة الفنية، واستوعبوا في حللها المضامين المعاصرة.

والشاعر حسين عرب ولد في مكة المكرمة عام 1338هـ، نشأ في بداية تكوين الدولة السعودية الثالثة وهو من السابقين الأوائل الذين كانوا رواداً في الصحافة وفي الشعر وبل من أولئك المثقفين الذين يحملون فكرا حديثا إلى جانب علمهم الاسلامي والعربي فهو جمع بين التراكم الثقافي وهو شاعر نفث في شعره حركة البناء السعودي وتطور المدن بل تطور الحياة وهو عاش في البناء السياسي الفكري فعمل في الوظائف الحكومية والوزارات وكل ذلك الفيض من التجارب يفيض به شعره الذي صدر في الأعمال الكاملة للشاعر حسين عرب في حياته قبل سنين وفاتة عام 1430هـ.

الشاعر محمد حسن فقي

وهو يتلبس فلسفة الشك الدائم حول هذه الحياة، وبكل أسى يصف مجتمعه، وما فيه من الأحقاد والشرور، يعتمل في ذاته إحساس بأنه غريب في مجتمع لا يبادله مشاعره وأحاسيسه المرهفة....!"

لعمري ماذا يتاح لي من القول في وقفة عجلى عن شاعر عظيم في عقليته، وجدانه، وفكره، وعمره المديد الحافل بالعطاء الذي تجاوز التسعين، أمده الله بالصحة وحسن الأعمال. تلك العوامل التي جعلت من شاعرنا محمد حسن فقي المولود عام 1331هـ شاعراً عظيماً، وكانت حصيلة إبداعه مثل أكبر ديوان في العربية وما ذاك إلا لأن الشاعر عاش عصراً زخر بالتطورات والنكبات التي أثرت القصيدة الشعرية، وصبغتها بروح العصر شكلاً ومضموناً.

وشاعرنا من أكثر شعراء زماننا تفاعلاً بالأحداث، فكثر نتاجه الشعري، وتوهجت إبداعات قصائده، تعرض للقضايا الاجتماعية، والتطلعات الوطنية، تتلون بتلون الحياة المتغيرة، فينطلق الشعر نابضاً بالشعور، دافقاً بالإحساس مصوراً للحياة أصدق تصوير.

والشاعر محمد حسن فقي شاعر مرهف الحس، يتسامى على مكدرات الحياة الحبلى دوماً بالابتلاءات، والمحن، وقد صيرته التجارب من فرط الحس المرهف طائراً يحلق في الفضاء غير عابئ بعواصف الزمن الهائجة، ولكنه رغم ذلك يستشعر الغربة في داخله، ويعيش محنة المنفى في ذاته:

فأنا والهزار في روضنا الضحاك	هذان على الهوى ثائران
وإذا بي كأنني ذو جناحين	تجوبان كالهزار المغاني

فهو طائر لا يستقر له قرار ولا تهدأ له نفس إنما يتخبط على غير هدى:

وتخبطـتُ في الظـلام وفي الوحـشة   طيفـاً يجتـازُ حُزنـاً فحزنـاً

ويقول:

احـس بـأني أعـيش في متاهـةٍ   غريـبٌ مـا اسـتقرُ علـى حـالِ

حتى الألفة البشرية المتولدة عن الأهل والصحاب لم تستطع أن تجذب شاعرنا لفترات استقرار وإنما تدفع به إلى التحليق بعيداً:

ولـي بينهـا أهـلٌ وصـحبٌ ومنـزلُ   لكـنهم طُـرّا بعيـدون عـن بـالي

فهو شديد الفرار من الذين جعلهم الله مهداً للسكنى والطمأنينة والمودة والرحمة وهو يقيل عثراتهم لكنه ينأى عنهم:

ومـا أنـا بـالزاري علـيهم فإننـي   بعيـد بروحـي المستريب وأوصـالي

بل إنه زهد الدنيا وعاف الكون كلّهُ، فلم يعد يأنس بهما، مدركاً أن الحياة يوماً ما ستنتهي، وأن الكون مجبول على حتمية الصراع، فضاقت نفسه الشاعرة بالدنيا الفانية، وعزفت روحه المرهفة عن الكون الملول:

بعيد عن الـدنيا عـن الكـون كلـهِ   كبعد النجوم الزهر عن ربعنا الخـالي

وربما كان عزوفه هذا مبعثه رؤاه الفكرية التي يقرر فيها اشتعال جذوة الشر، وانـزواء مظاهر الخير، رغم إيمانه بأن الصراع بين وجهي الحياة الخير والـشر مـسألة حتمية، ارتـضتها مشيئة الإله الحكيم، غير أنه يغضب غضبة شعورية لانتصار الشر على الخير في مواطن شتى.

قــد يكــون الــشرُّ في نــصبٍ ويكـون الخـيرُ في كــســـلِ

وشعره يكشف عن غموض النفس الـتي انغمست في فلسفة فكرية عميقة متأثرة بالنظرة الدينية للحياة الدنيا؛ فهي دار ممر لا دار مقر، وهي ابتلاء واختبار، ومصيرها للزوال، والفناء طال عمرها أو قصر. والإنسانُ عرضةٌ للنكبات والويلات، بـل إن حظه مـن الـشقاء الدنيوي أمر حتمي، إذ لا راحـة في الـدنيا، وشـاعرنا يـدرك تلـك الحقيقـة، ويمطرنـا بأبيـات غامضة غموض مشاعره يبث القصيدة شكايته، وينثر في ثناياها أسئلته الحائرة:

أيها النفسُ كـم شـكوتُ ومـا كنـت صـــدوقاً فـــردعتني الـــشكاوي
لم تكـوني لـــوامة..ولـئن كنـتِ فلــن تكـسبي علــيَّ الدعـــاوي
أنا كالـــذئبِ استلذُّ مـن الفتـك فلـــو شـئتِ كفّـه لتــــعاوى

وتتميز تجربة الشاعر (محمد حسن فقي) بتبلور ناحيتين مهمتين ممتزجتين هما التأملية الفكرية ورقة الأحاسيس الشعورية، فالشعراء الوجدانيون تهفو نفوسهم إلى الطبيعـة ويـرون فيها ملاذاً تسكن إليهـا أرواحهـم، وتـأنس بهـا قلـوبهم، تنـزع نفوسـهم إلى الهـروب إليهـا، والتعانق مع مفرداتها: طيوراً، وأزهاراً، وأريجاً ونسمات هواء منعش أسير..

لكن شاعرنا وإن شاركهم هذه النزعة، وهذا التعانق، إلا أنه تجـاوز ذلـك إلى الـيقين بأن ذلك كله إنما صائر إلى الفناء، وأن شدو الطيور إنما هو ترنيمات حزينـة تحمـل في طياتهـا إدراكاً خفياً بتلك الحقيقة.

يـا هـزاري الـذي يغـرد في الـرو ض شـجياً بعـشه المهـجور
مـا أرانـا إلا التـعيسين لـكن أنـت شـادٍ شـاكٍ بجنـب صـبور

إذن تتعانق وتتلاحق مكونات الشاعر الذهنية والوجدانية في تجربته الشعرية وقدرة الشاعر على تصوير هذه التجربة تنبثق من توالد هذه التجربة عن فلسفة فكرية، ومشاعر وجدانية ذات طابعٍ تأملي أكثر منها ميلا عاطفياً، وكم كان صادقاً في التعبير عن تلك المكونات الذهنية والوجدانية حين قال:

يـا ضـميراً..يُجِلُّـهُ الحسُّ والفكـرُ لأنـت الـضمير يعلـو الغماما

إن الترقب والخوف يملآن وجدانه الحزين، ويصيرانه كائناً يسكن الحزن في أعماقه، ولكنه ذلك الحزن النبيل، الحزن الذي يحمل في داخله معرفة بالحياة.

وتطلعـت للحيـاة بمقـتٍ خائفـاً مـن سُـعار هـذا الجنـونِ

والشاعر يدرك أن الحياة الخادعة هي السراب الكبير، وأن التعلق بها، وعقد المقاصد والأمنيات عليها حماقة كبرى.

أعطنيها وخـذ بريـق الأمانـي فهـذا البريـقُ بعيـشي عيونـي
أنـت تجـري خلـف الـسراب وهـذا ثمـري يـانع وهـذي غـصوني

وهو يدرك بعقله المتأمل أن لا بصيص أمل يُجنى وراء السراب، ومن هنا فهو يصور الحياة مثل الفاتنة العابثة الساخرة ذات الكبر والدلال التي تحتقر الآخرين:

إن هـذي الحيـاة تـدعو إلى السُّخر وحـينا تـدعو إلى الإشـفاق
قـد تبينـتُ في ملامحـها الـغلفِ صـنوفاً مـن الأذى والـشقاقِ

وهو يتلبس فلسفة الشك الدائم حول هذه الحياة، وبكل أسى يصف الشاعر مجتمعه وما فيه من الأحقاد والشرور، يعتمل في ذاته إحساس بأنه غريب في مجتمع لا يبادله مشاعره وأحاسيسه المرهفة.

ورأيـت الرفـاق ينـأون عنـي ويـشدون كالزمـان وثـاقي كـل ودّ
منـهم يجـيش بـه الـصـدرُ ريـاءً طـوق مـن الأطـواق
ينقـضون الميثـاق في سـاعة العـسرةِ واليـسرُ مبـرمُ المـيثاق

وتوشك فلسفة الشك الدائم عنده أن تتغلغل في السلوكيات البشرية أمام عينيه، فتمسك به الحيرة، ويصرخ بهذا التساؤل الحائر:

مـا الـذي يرتجيـه عـان مـن الـدهر ومـن أهلـه سـوى الإرهـاق

تلك الحالة أسلمته للحيرة الدائمة بل صحبته في تكوينه الذهني والوجداني، وكانت مورداً ثرياً لتجربته الشعورية فهو يدرك مصداق الحياة حين تحدث بلسانها:

أنـا مـن حـير القـرون ومـن سـاد عليهـا وعـاش عـبر القـرون

والمبحر في شعر محمد حسن فقي لاشك يلتقي مع عبقرية استطاعت أن توجد التلاحم بين الفلسفة والفكر في أسلوب سهل ممتنع.

وكذلك فإن القارئ يعجب أيما إعجاب بقدرته اللغوية التي نسج من خلالها عصارة فلسفة إنسانية في ألفاظ قريبة التناول، بعيدة عن التعقيد، بل هي ألفاظ حيّة نابضة بالشعور الراقي والألم النبيل.

والمتفحص لديوان محمد حسن فقي يقف على عبقرية شعرية فذة، غزيرة في إنتاجها، عميقة في معانيها، متنوعة في أغراضها وموضوعاتها، فليس ثمة باب في الشعر لم تطرقه.

الجاسر الشعلة المضيئة:

انطلق الجاسر من قريته

والظلام مدلهم في الآفاق

والأمراض تفتك الأجسام

تمرد هذا الجسم النحيل

والتحق بأجمل جادة، جادة العلم والعمل

أرانا عزما عجيبا وسعيا حثيثا

يحصد النور حصدا

يجلو به أهداب الظلام

تفلت الجاسر من القيود التي صنعها الرجال والجهل

فأخذ يجوب الجزيرة كالرياح التي تحمل البذور، وتجمع السحب، وتنزل الغيث

وأخذ يشدو: تعالوا معي نسبر الأغوار، ونرتقي إلى الأقمار

تعالوا معي نكشف الغمة عن جزيرة الأمة

نكشف مكنونات سهولها ووديانها وتلالها وجبالها

ونعلن للملأ تاريخها ومجدها

ننفض غبار الظلام والبهتان عن أهلها، ونكشف زيف الرحالة والمؤرخين عن أبناء الجزيرة

....

الجاسر في شبابه هدهد يجوب الآفاق ويجلو الأخبار

الجاسر في شيخوخته بلبل يغرد في قصره

ينثر بمزامير المعرفة الأزهار في حقول العقول

إنه يهز أدواحاً معرفية يتساقط منها ثمرا جينا

أراك في العلوم الشرعية تنهل من بحر، وتقدح فكرا

أراك في التاريخ تستخرج اللؤلؤ والجوهر

أراك في علوم الأرض كاشفاً منيرا

أراك في اللغة متمكناً قديرا

أراك في الأدب تجلو الفكر وتستهوي الشعور

أراك في علم الأنساب باحثاً منصفاً تنشر وتبهر

أراك على قمم المعالي ترفع شعلة الأنوار

....

تنامت بذور العلم فأضحتْ إكليلك الدائم، حتى أبصرتَ ما وراء الستور والستائر

تسعون عاما تستقي الأمطار، وتنبت الأزهار

فيا علامة الجزيرة:

بموتك أيها العلم جفت الينابيع

بموتك أيها العلم تقرحت القلوب، وتفجرت الكلوم

بموتك أيها العلم صمتَ الصوت الندي

....

فيا علامة الجزيرة، العلم بك كثير، والقول ينثال في الصدور، واليراع ينفث بك سحرا. لكن الموقف يطفو عليه وهج الشعور مما يؤجل الرصد والتحليل عنك يا أبا محمد إلى حين

الشاعر محمود عارف

'شعره في الغزل يجنح إلى العفة والطهارة، يكاد القارئ يستشعر حين يقرأ له هذا الفن الشعري أنه أمام شاعر من شعراء العرب العذريين، الذين لا يندفعون وراء عواطفهم المشبوبة..'

هناك عدد من المفكرين والأدباء كان لهم دور الريادة في بناء الفكر الوطني الذي يقوم على استلهام الشريعة السمحة، والنظرة المثالية التي تحمل القيم الإنسانية التي تتفاعل مع البناء والتطوير، ومن هؤلاء الذين استلموا قيادة الصحافة والرقابة الفكرية في ربوع الجزيرة، وشمروا سواعدهم، وشحذوا عقولهم، ووجهوا أقلامهم تجاه القضايا الاجتماعية والفكرية والأدبية والنقدية العامة في سائر أوجه الحياة شاعر المملكة الكبير محمود عارف.

والشاعر محمود عارف أديب وشاعر سعودي رائد من منطقة تهامة. ولد في جدة عام 1907م، ترقى في الوظائف الحكومية، حتى عُيّن في مجلس الشورى بمكة. عمل رئيساً لتحرير جريدة عكاظ في بداية قيام المؤسسات الصحافية في المملكة. وهو عضو سابق في النادي الأدبي الثقافي بجدة.

وهو من أولئك المبدعين الشعراء والكتاب الذين خاضوا غمار الحياة الفكرية، والحياة الصحفية أيضاً، فقد كان دائم الحضور مبدعاً، وكاتباً، وناقداً، ومحاورا، وحياته حافلة بالعطاء، لم يثنه تقدم عمره وامتداد زمنه عن أن يكون حاضراً منجزاً، مجالساً لأصحاب الفكر والقرار حتى وافاه الأجل.

وشعر محمود عارف يتواصل مع حياة الجزيرة فهو ابن بيئتها وابن تكوينها الاجتماعي، يمثل شعره تطور البناء الحضاري بجوانبه المختلفة في المملكة العربية السعودية، بل إنه يسجل مراحل هذا التطور، ويدون لكثيرٍ من صور الحياة على أرض الجزيرة، ويشيد ببناء المدارس والمعاهد والجامعات ويؤصل لكل حدث اجتماعي، بل إنه أهم الشعراء الذين

عايشوا البيئة القروية والريفية وكتبوا عن ملامح الحياة في أنحائها، ووصفوا إبلها، ومزارعها، وحياتها الرعوية، وصحاريها الممتدة.

ولعل أهم ملمح يتبينه القارئ في قاموسه الشعري أن ألفاظه قريبة المأخذ، متداولة شعبياً وصحفياً، وهي مع ذلك ألفاظ سليمة الفصاحة، باهرة التأثير، رقيقة المعنى، جزلة الأسلوب.

ومن ذلك قصيدة كتبها الشاعر يحيي بها الشيخ أبا تراب الظاهري في حفل تكريمه، يقول فيها:

يــا منجمــاً فــوق الــتراب	كنــتَ الفقيــه مــبرزاً
تنــضو النفــائس والــذباب	ومعلمــاً لغــة الكتــاب
مــا كنــت أحــسب أن باعــك	خــضتَ الخــضم مــن اللغــة
طــال واخــترق الــسحاب	واجتــزت تيــار العبــاب
وتعلــم اللغــة الفــصيحة	للكهــول وللــشباب

وفي قصيدة رقيقة اختار لها اسم (عيون الليل) يقول فيها:

نـسيتُ دنيـاي لكـن لـستُ أنـساك	أغــازل البــدر أغريــه بعــاطفتي
يـا حلـوة، ألهمـتني الـشعر عينـاك	لعلــه فيــك يلقــاني ويلقــاك
كم كنتُ أسهر في ليلي على أمل	يـا ليتني عـشتُ في أحـلام عـاطفتي
والـسهد بـين عيـون الليـل يرعـاك	اغفـو وأصـحو علـى أحـلام دنيـاك
عينــاك نافــذتا دنيــا مرفهــة	وأشــرب النبــع آمــالاً مشعــشعة
دنيـاي في مـا أعـاني غـير دنيـاك	تجـدد الـصبر في وجـدان مُـضناك

كما أن شعره يميل إلى التصوير الحي لمشاهد الواقع دونما محاولة إلى التأنق والمبالغة في نسج خيال تركيبي يجهد ذهن القارئ في تلمس معانيه. إنه كفنان تشكيلي يعمد إلى الواقعية الفنية في أعماله، ويرسم اللوحات التي تُنتزع من الواقع انتزاعا، ومن هنا كان شعره أكثر ميلاً إلى الشعبية وسهولة المضمون. إن شعره في مجمله لوحة من واقع الحياة لا غرابة فيه، وقل أن تجد عنده الولوج إلى تركيب الصور ذات الإيحاء والتأثير.

ففي قصيدة له يعبر فيها عن روحانيات شهر رمضان، وتلك اللحظات النورانية الشفيفة التي يقف فيها المسلم بين يدي خالقه في صلاة التراويح خاشعاً منقاداً يدعوه المدد والعون، حيث يقول:

فيه التراويح المضيئة مسبح ... للقلب للإيمان يعمر مرفقاً
ساعاته عمر الزمان مليئة ... بالذكر حيث العمر عاد محلقا

وفي مقدمة ديوانه عاصفة الصحراء الذي ضمنه قصائد عذبة في أغراض شعرية متنوعة، كتب الأستاذ عبد المقصود محمد سعيد خوجه: "تلك الروائع التي عطر بها الأستاذ محمود عارف حياتنا الأدبية، وأثبت من خلالها أن الشاعر لسان قومه ومرآة مجتمعه" ثم أردف يقول واصفاً شعره أصدق وصف: "شعره رقيق جزل طروب، حالم الموسيقى، هادئ الإيقاع، عذب الكلمات، رشيق المعاني". وفي قصيدته التي اختار اسمها عنواناً لديوانه، يقول:

سوف تحيا الكويت أرضاً ودارا ... حرة في الورى بلا استعباد
حرة في الورى بلا استعباد ... للعلا للبناء... باستعداد

كما أنشد في فلسطين قوله:

عاشت فلسطين الحبيبة بالفدى ... والانتفاضة في حماس أشعلت
بسيادة.. والقدس للمتغلب ... حرب الحجارة كالشواظ الملهب

كما أن شعره في الغزل يجنح إلى العفة والطهارة، يكاد القارئ يستشعر حين يقرأ له هذا الفن الشعري أنه أمام شاعر من شعراء العرب العذريين الذين لا يندفعون وراء عواطفهم المشبوبة، ليصوروا خلجات وجدانهم تصويراً حسياً في جرأة وتهور. إنما هو ذلك الشاعر الذي يدلف إلى هذا المضمار على استحياء وخجل، ومن ذلك قصيدته الشعرية الرقيقة التي يقول فيها:

صفراء كالتبر تستوري مشاعرنا ... حتى ثملت وما سكري بصهباء

باللطف تسكبه من عين حوراء ... تسبي القلوب إذا مرت مهفهفة

شربتُ من عينها كأساً معتقة ... كأنها روضة في قفر صحراء

ولم يخلو شعره كذلك من الحكمة، فقد نثرها في كثيرٍ من أبياته، حيث يقول:

صاحب العقل ناجح بالتروي ... وأخو الجهل فاقد المعيار

ويقول:

ومصير الجبان لابد يلقى ... منتهاه في ساعة الانهيار

كما يقول أيضاً:

شرف البطولة في الحياة شهامة ... تحمي الذمار وترفع الأحنافا

ومن هنا فإني أقرنه بمعاصره (أحمد قنديل)، فكلاهما شاعر المجتمع بكل أطيافه وألوانه، ناهيك عن أن شاعرنا حجازي الحياة والإبداع، فرقة الحجاز وظُرفه تبدوان في إبداع

الشاعر، وقد أفرد في شعره قصائد صوّر فيها الحياة في مدينتين كبيرتين في المملكة، هما: مكة المكرمة وجدة، لذا كان من الواجب على الدارس لشعره أن يقف على خصائص الحياة المعاصرة في هذا الجزء من وطننا السعودي.

إن محبي الشاعر محمود عارف يعرفون له الدور البارز الذي أسهم به في الحراك الثقافي والأدبي والإعلامي، كما كانت له إسهاماته الرياضية البارزة، حيث شارك في تأسيس لعبة كرة القدم بالنادي الأهلي بجدة.

كما كان الشاعر مكثراً في شعره الذي جمعه في ثلاثة عشر ديواناً، فضلاً عن نتاجه المقالي الذي يربو على أربعمائة وست مقالات، والذي لم يخلو من الهم الإصلاحي، والشعور الوطني الصادق.

ومن دواوينه الشعرية: ديوان المزامير 1380هـ، وديوان على مشارف الزمن 1385هـ، وديوان مدينتي جدة 1387هـ، وديوان الفردوس الحالم 1395هـ، وديوان عاصفة الصحراء 1395هـ ومن مؤلفاته النثرية: حصاد الأيام، وأصداء قلم، ليل ونهار، أوراق نثرية.

منوعات الغزّاوي تكشف عن مواهب متعددة
(جريدة البلاد 14 جمادى الأولى 1408 هـ)

"حينها جادت قريحة الشاعر الغزاوي بهذه القصيدة الرائعة، التي أعلن فيها ثورته على العقل الغربي المتخم بالغرور والكبر.."

وسط الجدل الدائر في الساحة الأدبية في بلادنا أُلصِقتْ بأدبائنا بعض التهم، وطفق فريق من النقاد يرددها، الأمر الذي جعل بعض الشوائب تعلق بأدبنا وأدبائنا، من هذه التهم تلك التي أُلصقت بشاعرية الغزاوي، ونسجت حوله سحباً ضبابية حجبت أدبه عن الطليعة من شبابنا، وأخص بالذكر هنا حصرهم شعره في غرض واحد هو "المديح"، والإدعاء بأنه لم يتجاوزه إلى غيره، ورغم أهمية هذا الغرض الشعري في أدبنا العربي، فإن الغزاوي في رأيي لم يكن حبيسه، وقد عارض هذه المقولة صاحب مجلة المنهل الأديب (عبد القدوس الأنصاري) رحمه الله، وكان صديق الغزاوي الحميم، العليم بأسراره، حيث صرح بأن الغزاوي لديه الكثير من القصائد التي لا تمت إلى المديح بصلة.

وفي رأينا أن الغزاوي شاعر قدير، استحوذ على كثير من أغراض الشعر، وجمالياته الفنية، وهو كغيره من الشعراء تتأثر تجاربه الشعرية بالأحداث التي تحدق به وتحاصره، فتلامس شعوره، وتثير كوامن نفسه، ومن ثم يتدفق عطاؤه، ومن خلال رحلتنا وسياحتنا الطويلة المتأملة في أدب الغزاوي تكشف لي قدرته الشاعرية المتعددة الجوانب، وتسخيره هذه القدرات الفنية لخدمة دينه ووطنه، فروض نفسه على هذا الاتجاه، وكثر في شعره، وفاض على غيره من الأغراض الشعرية، غير أن ثمة أغراضاً كثيرة تجلت في ديوانه الشعري.

لقد تبين لنا أن الرجل شأنه شأن شباب زمانه الذين أخلصوا في طلب العلم على نحو عصامي، وتفاعلوا مع الأحداث العربية والإسلامية والوطنية، وقد غلب الجانب

الفكري على الجانب العاطفي على جيل الغزاوي نظراً لطبيعة الظروف الحياتية التي نشأوا فيها، وقصيد الغزاوي في هذا المضمار أكثر منها في جانب الوجدانيات، والرومانسيات الذاتية.

فالغزاوي شارك الأمة العربية والإسلامية آلامها وأحزانها، ونزف الجرح العربي في قلبه، واصطلى مع الأمة بنار الحروب التي أشعلها الغرب، ورغم حداثة سنه، وندرة قنوات تواصله مع الأمم الأخرى إلا أنه استشرف الواقع المأساوي لشتات الأمة وهوانها، وطحنها بين فكي الاستعمار، وعاصر استنجاد العرب بعصبة الأمم وخذلانها لهم في مناصرتهم وتخليصهم من أغلال الاستعمار.

ففي قصيدة عنوانها (نحن وجمعية الأمم) عام 1342هـ - وهي قصيدة بمنأى عن غرض المدح - يقول فيها:

نعم قد استسمن الأقوام ذا ورم
واحسنوا الظن في جمعية الأممِ
وأمّلوا أنها تسعى لصالحهم
سرعان ما خاب فيها الفأل من أمم
عنت لأغراض أوروبا وأنطقها
ضد المواثيق من حادوا عن الذمم
تربعوا في منصات وأروقة
لا يشعرون بما نلقاه من ألم
كفاكم يا دهاة الغرب موعظة
ما يوم غليوم عن أبصارنا بعمي

واستلهام الغزاوي للأحداث يتبلور في هذه القصيدة حيث أطلق على (عصبة الأمم) جمعية الأمم، وهو الاسم الذي أطلق عليها عام 1945م.

ومن القصائد الوطنية الخالصة تلك القصيدة التي نشرها في مجلة الإصلاح عام 1347هـ، وفيها يقول:

إلام نلوم الحظ نوسعه عتباً
وما هو في الدنيا بمقترف ذنبا
ويبهتنا ما قد نرى من تزاحم
نسف به شرقاً ويسمو به غربا
نصد فلا نعني بغير سفاسف
ونرضى ولو كانت ضمائرنا غضبى
ونقنع بالإطراء يبدو مموهاً
ونقبع مستملين من جهلنا سبا
إذا جال المرء العيان أصابه
ذهول يمس الحس والنفس واللبا

وفي العام ذاته يتبعها بقصيدته المشهورة (هذا هو الشرق)، قالها بمناسبة زيارة الشاعر الإنجليزي (كبلنغ 1865م-1936م) إلى مصر وفلسطين، والذي احتفت به الصحف وقتها، وهو المشهور بعبارته التي تناقلها الكتاب: 'الغرب غرب والشرق شرق، ولن يلتقيا'.

حينها جادت قريحة الشاعر الغزاوي بهذه القصيدة الرائعة، التي أعلن فيها ثورته على العقل الغربي المتخم بالغرور والكبر:

لا (الشرق شرق) إذا ما ثارت الهمم
كلا ولا (الغرب غرب) يوم يصطدم
ولكنها سنن التكوين ثابتة
على العصور فلم تحفظ لها ذمم

أجل تقهقر هذا الشرق ما نغمزت
قناته بعد أن طالت بها الأمم

ولاشك أن القصيدة تبرهن عن مدى الوعي الذي يتسم به العلماء والمفكرون والأدباء، فيما يطرحونه من آراء وتوجيهات ونظرات ملهمة للمستقبل، وتكشف القصيدة كذلك عن إدراكهم الكامل للمخاطر والانحرافات التي تحيق بالأمة، فيطلقون صرخاتهم التحذيرية، انظر إليه وهو يقول:

وخالفوا فطرة الخلاق وافترقوا
فسامهم كل خسف من رقى بهم
واسترسلوا في غطيط النوم فاندحروا
منذ استوى فيهم الأحياء والرمم
تسمم الشرق بالأدواء فاتكة
بجسمه واعتراه الجهل والعدم

ويسجل إعجابه بالمناطيد التي سبقت الطيران في الرحلات الجوية عام 1929م، غير أن الطائرة كان لها السبق والتطور فيما بعد، وفي ذلك يقول:

تعلو المناطيد بالركاب حافلة
متن السحاب وتدنو حيث ترتسم

ويقول أيضا:

يا شرق حسبك ما لاقيت من عنت

أفق، فإنك بعد اليوم مقتحم
وواصل السعي في التعليم مقتبساً
خير الفنون وإلا مضّك الألم
وقل (لكبلنغ) إما جاء معتذراً
هذا هو الشرق لا ما قلت أو زعموا

تلك كانت لمحات سريعة عن فترة زمنية محدودة من عمر شاعرنا الغزاوي، لا تتجاوز عشر سنين، وفيها إشارة واضحة إلى تنويع الغزاوي في شعره، وإرهاصاته المستقبلية الصائبة، وسأتناول الحديث بنوع من التفصيل في مقالات أخرى إن شاء الله.

الغزاوي والشباب

(جريدة البلاد 24 جمادى الأول 1408هـ)

"وفي القصيدة تصوير نابض بالحالة النفسية للإنسان في مكة المكرمة يومها، إزاء ذلك السيل العظيم الذي غمر الكعبة، وشعاب مكة....."

والغزاوي لا عيب فيه غير أنه اندفع بعمق يبحث عن جواهر اللغة، والتمس أصالتها، واستخلص منها جمال الكلمة، وتعانق معها بشعوره، وأودعها تجاربه التي تفيض بالحب الإنساني الخالص، وتنأى عن المواجهة والعداء مع الواقع الخارجي، وتربأ بنفسها عن عقوق الماضي المجيد، أو مغازلة الحاضر الخانع للفكر الغربي الوافد، على عكس ما فعله غيره من شعراء عصره، حين تمردوا على واقعهم، فاحتقروا موروث الأجداد، ورفعوا القبعة إجلالاً لما أسموه الحضارة الغربية..!

لقد واكب تيار الغضب والتمرد في الشعر العربي التيار المحافظ، الذي اتسم بالالتزام والاعتدال في نظرته للأصالة والمعاصرة، فلا هو نبذ الماضي، ولا هو وأد الإضاءات العالمية الأدبية، بل مدّ جسور الصلة والتواصل بينهما، فأفرز تلاقحاً مختاراً، وأنجب توالداً نجيباً.

ولقد كان الغزاوي واحداً من أرباب ذلك التيار المحافظ، وأفرد له كبار الكتاب والأدباء والنقاد أحاديث وكتابات سلطت الضوء على إبداعاته، من هؤلاء الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين. والأستاذ عبدالله القرعاوي والشيخ الأستاذ أحمد جمال، وكثيراً ما كان الغزاوي يأخذ مساحة شاسعة من ندوة معالي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي، وليس أولى من الدكتور عبد العزيز النهاري من أن يستقطب الكُتاب، ويثير الهمة فيهم، ويدفعهم إلى البحث عن أصداف الغزاوي الكامنة التي يُخشى عليها من تعاور الرياح، وفيضان الماء، وتعاقب الليل والنهار، وفاءً لأديبنا الكبير الذي تفانى في سبيل الحياة الفكرية التي تقوم على

شرف الكلمة وخدمة الحق والخير والجمال، ولاشك أن في الساحة الأدبية رجالاً مهتمين بالغزاوي، غيورين على لغتنا، حريصين على إحياء أدبنا الذي ظل رفيقاً للصحف السعودية ردحاً من الزمن. من هنا كانت المحاولات الدؤوبة لإحياء تراث الغزاوي، الباسق طلعه، المثمر فكره، المبهر شاعريته. فهلموا إليه أيها الأدباء.

وقد أشرنا في مقالة سابقة إلى الوطنية في شعره التي تفيض بحب الوطن والأمة العربية الإسلامية، وذلك في مواجهة التهمة التي حصرت فنه على المديح وبينّا أن الذين يطعنون في شعر الغزاوي، ويقصرونه على غرض واحد قد جانبهم الصواب؛ لأنه قد جسد تجاربه الحياتية في قصائد شعرية مطولة، شأنه شأن شعراء العربية الأوائل، الذين اعتمدوا على القصيدة الطويلة في الحديث عن أغراضهم المتنوعة، على نحو ما نجد في قصائد الفرزدق وجرير والأخطل، الذين لم تنالهم معاول النقاد، ولم يوجه إليهم تهمة اختزال شعرهم في غرض واحد، فقد تناثرت في ثنايا قصائدهم الطوال أغراض الغزل، والمديح، والهجاء، والحكمة، ووصف البيئة. إذن فلم جنح بعض النقاد إلى وصم شاعرنا الغزاوي بشاعر المدائح، فيما شعره في الحقيقة يفيض بالأغراض الشعرية المتنوعة؟!

لقد جادت قريحته بعشرات المقطوعات الشعرية التأملية والقصائد المطولة في الغزل، والإخوانيات، والحكمة، والتأمل الذاتي والاجتماعي، والأحداث العالمية والإسلامية، وكانت خلاصة تجاربه التي تتألق في شعره تمثل الصراع الحياتي، بل إن شعره عينه هو ديوان الحياة الثرية الخصيبة في ربوع الجزيرة، وسجل لأحلام إنسان هذه البقعة من الأرض.

والغزاوي دائم التواد والتحاب للشباب، وله نظرة أمل فيهم، كثير التواصل معهم يسمع تغريدهم، ويستمع لهمومهم ويتغنى بأحلامهم، ويدفعهم إلى المعرفة،

انظر إليه وهو يخاطبهم في احتفال المعهد العلمي السعودي وتحضير البعثات عام 1360هـ في قصيدة بعنوان ((من بني مدرسة أغلق السجن وراءه)) يقول فيها:

أنـــتم اليـــوم شـــباب	يتهـــــادى في صـــــباه
وغـــدا مـــنكم رجـــال	ورعـــــاة وقـــــضاة

ونجـــــــوم ورجــــــوم	وبنـــــــاة ودعــــــاة
وجنــــــود وبنــــــود	وأســــــاة وحمـــــاة
وعلــــيكم واجبـــــات	هـــــن أســـباب الحيـــاة
إنكـــــم أمـــــال شـــعب	قـــــدس الله حمـــــاه

وكثير من الأدباء والشعراء الذين تواصل معهم الغزاوي في بداية مشوارهم الأدبي مشجعاً لهم، وحاضناً إياهم لم يزالوا يحفظون له هذا الجميل ويقدرونه، وقد أشار إلى هذه الخاصية الأستاذ القرعاوي الذي أخذ يردد على مسامعي ذات يوم بعض أبيات الغزاوي التي مازال صداها يجوب أنحاء الذاكرة، رغم بعد العهد وامتلاء المسافة الزمنية بصخب الحياة ومشاغلها.

وقد سطّر الغزاوي نشيدا وطنيا متحدثاً فيه بلسان الشباب، يقول فيه:

نحن أشبال العرين
نحن أصحاب اليمين
نحن أبطال اليقين
كلنا نفدي حمـــاه

وجادت قريحته بشعر رقيق في استقبال كشافة العراق والشام، كما خاطب شباب وطنه بقصيدته ((تحية الجيل الجديد)) في رجب عام 1369هـ، وقال عنها محرر جريدة البلاد السعودية: إنها ذوبان قلبه، وتجارب عمره، ينثرها للشباب؛ ليجد فيها ضوءاً ينير له السبيل، وظلاً يفيء إليه من هجير الحياة، استهلها بقوله:

مـــا هـــو المجـــد التليـــد	مـــن هـــو الـــشعب المجيـــد
كيـــف نـــسمو ونـــسود	وبم الماضـــــي يعـــــود

كلمينـــــا يـــــا صـــــلاح وأجـــــيبي يـــــا بطـــــاح
مـــا هـــو الحـــق الـــصراح خاننـــا الـــوعي التليـــد
وبـــودي لـــو حرصـــتم أن تفـــوزوا بالفعـــال
وتحـــوزوا كـــل مجـــد يتـــسامى في جـــلال
ثـــم غنـــوا وأغنـــى كـــل صـــبح ومـــساء
فالمجزونـــا مـــا وعـــدتم مـــن دواعـــي الخـــيلاء

والغزاوي دائم الارتباط بالطبيعة الملاصقة لإنسان الجزيرة، وتحس حين تلج إلى عالمه الشعري أنك أمام شاعر شديد الانفعال والحساسية أمام القدرة الآلهية التي تُصرف الطبيعة كيفما تشاء، فكل شيء عنده بمقدار، وكل أمر وراءه حكمة لا يعلمها سوى علام الغيوب، إنه ينظم قصيدة شعرية في سيل الأربعاء الذي حل بمكة في 6/ 3/ 1360هـ، ذلك الحدث الذي يعد قدراً من أقدار الله التي يجب على المؤمن أن يتقبلها بكامل الرضى والتسليم.

وفي القصيدة تصوير نابض بالحالة النفسية للإنسان في مكة المكرمة يومها، إزاء ذلك السيل العظيم الذي غمر الكعبة وشعاب مكة، حتى لكأن القارئ يشعر أنه في قلب الحدث العظيم:

شـــهد الـــوادي غـــداة الأربعـــاء صـــلة الأرض بآفـــاق الـــسماء
أســـفر الفجـــر مـــن الغيـــث معـــا يـــوم ســـت في ربيـــع كالـــدلاء
كلمـــا أجلـــى وأهـــوى برهـــة عـــاود الكـــرة حينـــا وأفـــاء
وكـــان النـــاس فيـــه رهبـــة أهـــل أجـــداث يغاديهـــا الغنـــاء
لا تـــرى مـــنهم ســـوى مـــضطرب قـــابع في كـــسره يخـــشى الـــبلاء
ومـــشى الـــسيل كبحـــر زاخـــر بـــالروابي الـــسود مـــن رمـــل ومـــاء

في دوي الرعـد يعـدو موجـة بـين هـدم وعويـل ونجـاء
غمـر المسجد منـه لجـة حـاذت البيـت إلى بـاب النـداء

ويتحدث عن تدفق المياه العذبة إلى جدة، بعد معاناة طويلة، في قصيدة طويلة بعنوان (لكنما هي تجري بينكم ذهبا) في عام 1367هـ:

رؤيا بها العين تصحو بعد إغفاء أم أنها العين رأى العين للرائي
أم أنها النهر يجري من منابعه سبائكنا من (لجين) ذاب في الماء
أم جدة هذه أم دجلة نشرت بها الحياة ودبت بعد إقواء

وكثيرا ما يمد بصره وبصيرته في الكون والطبيعة، فتمتزج نفسه بألوان من المفارقات والتواصل أحيانا، فيصف ذلك التضاد العجيب، وتلك المفارقة الكونية المثيرة إذ يشهد في تجربة شعورية لحظة احتضار الشمس حال غروبها، وانبثاق البدر وسط العتمة في إحدى أمسياته على الشاطئ:

أطـل يـنص في خفـر العـذارى وتلـك تغـص تقلقهـا الغيـوب
وخلـف كليهمـا الألـوان شـتى يرقرقهـا الـشمال والجنـوب
لجـين حيثمـا اسـتقبلت يجـري وتـبر فـوق أمـواج يـذوب

قال الغزاوي هذه القصيدة وهو مطرق على كورنيش جدة في عام 1367هـ فكيف لو أطل عليه اليوم في بهائه وجماله وروعة تنسيقه وتنظيمه على أية حال إن لجدة اليوم شعرائها الذين يرسمون لوحاتها الجميلة في كل زمان ومكان إن شاء الله.

بين الغزاوي والعواد
(1408/04/25هـ)

"وقد أبدع في شعره وأجاد، حتى قرن اسمه بكبار شعراء العربية من أمثال: مسلم بن الوليد، والبحتري.."

نشر الأديب الأستاذ عبدالله القرعاوي مقالا في صحيفة البلاد بتاريخ 14/ 04/ 1408هـ بعنوان (الشيء بالشيء يذكر)، تناول فيه الحديث عن أحمد إبراهيم الغزاوي، ذلكم الشاعر القدير والعالم اللغوي، الطاغي الحضور في الساحة الأدبية، وفي الصحافة السعودية منذ عام 1401هـ.

ورغم التفاعل الفكري في الواقع، والحضور الدائم في وسائل الإعلام الصوتية والمرئية للشاعر إلا أنه ظل مجهولاً بين أبناء وطنه لأسباب كثيرة، ربما يعود جُلّها إلى أن الرجل لم يطبع ديوانا ولم يؤلف كتابا، ولم يجمع مطالعاته وتعليقاته في (أم القرى) و(البلاد السعودية)، ولا مقالاته اليومية في (الندوة)، ولا شذراته في (المنهل) لم يجمعها في كتاب، وقد بلغت أكثر من ألفي صفحة حينما جمعتها.

وإنتاج الغزاوي لو نشر كله لوجد فيه القارئ علماً وافراً زاخراً بالمعارف القديمة والحديثة، وتصويراً صادقاً لمراحل التطور التي شهدتها الجزيرة في عقودها الأخيرة. وفي فترةٍ كثر فيها الحديث عن الفصحى وغرائبها كان هو المدافع عنها، الذي اشتهر بمحاولته الجادة لنشرها وشيوعها بين المجتمع والدعوة إلى نبذ العامية ومجانبتها، إضافة إلى كتاباته الغزيرة المتنوعة التي تعالج القضايا الاجتماعية، وتطرح الاقتراحات البناءة.

وأذكر منها ذلك الاقتراح الذي ضمنه إطلاق اسم (العزيزية) على الحي الحديث في مكة المكرمة، وكان يُعرف آنذاك باسم (حوض البقر). إن أدب الغزاوي وإنتاجه الفني الغزير

أكثر من أن يُحصى في بحث واحد، أو رسالة يتيمة، وحينما شرعت في دراسته اضطررت لجمع الكثير من شعره ونثره الغزيرين من الصحف السعودية.

وقد أثار الاستاذ القرعاوي في مقالته قضيةً لازمت الغزاوي، ولازالت عالقة بأذهان فريق من النقاد، وهي أن الغزاوي مجرد ناظم مقلد للشعراء، وتلك تهمة نسجها بعض النقاد المعاصرين حول شعر الغزاوي، الأمر الذي جعله ينطوي على نفسه، ويُعرض عن قول الشعر، وكاد أن يثنيه عن مواصلة المسيرة الأدبية الحافلة. وليس أدل على ذلك من تلك المحاورة التي دارت وقائعها بين الغزاوي وصديقه الأديب محمد حسن العواد رغم اختلاف المذاهب الفنية والاتجاهات المنهجية، لقد ابتدره الأستاذ حسن العواد قائلا:

أيها البلبل المغرد بالشعر، ألا أين ذلك التغريد؟!
لم أثرت تنزوي الشهر تلو الشهر مستعصيا عليك القصيد؟!
أدلالاً هجرته عساك أم ملالاً؟
فلقد كنت والنظم شقيقين، وسيان منشد ونشيد.

فرد عليه الغزاوي رداً يوحي بالتأثر النفسي من جراء النقد الموجه إليه قائلاً:

أي هذا الذي تواضع شكراً إنما أنت في (البيان) المجيد...
كيف لا أوثر السكوت وأصغي لشعور يصوغه (التجديد)..
أنا ما قلته تضالع ضعفا والذي حكته الضليع الشديد...
قد عصاني وما تجافيت عنه محكم النظام والنتاج المفيد
وتعالى جد (الإله) فماذا بعد (فرقانه) يحيط النشيد..
مازج الروح وحيه فهو حي وهو الرشد والهدى والخلود.

وكان الشاعر محمد حسن العواد قد أعاد إلى الغزاوي الثقة بنفسه، وقدراته الفنية الفريدة، فعاد الغزاوي إلى محراب شعره وفنه أشد توهجاً وبريقا.

والأبيات تعطينا صورة عما كان عليه الرعيل الأول من الأدباء، وما اتسمت به علاقاتهم من حسن الحوار، ودماثة الأخلاق، وصدق المودة، حتى وإن كان الخلاف في الرأي قائماً، فالأديب النبيل الذي يحمل رسالة سامية في الحياة لا يحمل في ذاته شراً لمن يشاركه القضية والرسالة، إنما يقف إلى جواره في لحظات المحنة والانكسار، يشد أزره، ويمد إليه يده مساعداً ومناصرا.

والأبيات تذكرنا أيضاً بقضية (الأقواس) في شعر الغزاوي، والتي تحدث عنها الأديب الأستاذ عبد العزيز الرفاعي، وكان له حوار مع الغزاوي في صحيفة البلاد. وعلى شاكلة هذه المحاورة نرى الكثير منها عند شاعرنا، والذي لا ريب فيه أن الغزاوي جمع بين الحسنيين، إذ حافظ على الأصالة الفنية والسياق الفني للقصيدة العربية، فلم يحد عنهما، ولم يتجاوزهما، وقد أبدع في شعره وأجاد حتى قُرن اسمه بكبار شعراء العربية من أمثال: مسلم بن الوليد، والبحتري، كما أن أصالته الفنية هذه لم تمنعه من التواصل مع الجديد الحديث، فقد احتضن المعاني الحديثة، والمضامين المعاصرة، وسخّر لهما البحور الشعرية العربية في غير تكلف ولا تعسف. فهل يكون عيباً أن يكسو الشاعر تجربته الشعرية بالسياق الذي يمثل الأصالة؟

وعلى شاكلة هذه المحاورة الراقية يلتقي الغزاوي مع عدد من الأدباء والشعراء، فله محاورات عدّة مع الشعراء السعوديين أمثال ابن خميس والأنصاري، والسنوسي، وهناك محاورات بينه وبين عدد من شعراء البلاد العربية من الكويت، وفلسطين، ومصر. كما أن له – رحمه الله – كثيراً من الرسائل التي يحتفظ بها بعض الكتاب والأدباء.

وهناك قضايا آثارها الأستاذ القرعاوي في مقالته سأتناولها إن شاء الله في مقالات نبعث بها إلى (البلاد) لعلها تجدد العهد بالشاعر الكبير أحمد الغزاوي رحمه الله وتلبي رغبة الأستاذ الفاضل عبدالله القرعاوي.

والشكر الموصول له على حرصه الخالص، وسعيه الصادق نحو تخليد ذكرى العلماء الأفاضل، فجزاه الله خير الجزاء.

الغزاوي بين جامعتين
(الرياض 1417/05/24هـ)

أهداني أخي الدكتور عبد العزيز الشعلان قصاصة من جريدة الندوة، كتب عليها ع11510 في 3/ 5/ 1417هـ، والقصاصة تحوي مقالاً للأستاذ فهد محمد علي الغزاوي، وفيه يزف لنا البشرى بالإفراج عن تراث الغزاوي وآثاره ((التي كانت محتجزة في كواليس الجامعة بكراتينها وحقائبها، البعض منها مخطوط بيده والآخر مطبوعاً مصححاً ومشكلاً، ومصادقاً عليه بتوقيعه...)).

فقلت في نفسي منتشياً: إنها لبشرى سارة أن تهتم جامعة أم القرى بهذا الشاعر الكبير فهو ابن مكة المكرمة، والشاعر يمثل ديواناً صادقاً لسيرة وطنه، وإني لأشارك الأستاذ فهد الغزاوي شكره لمعالي مدير جامعة أم القرى الأستاذ الدكتور سهيل حسن قاضي، بل أحترم مبادرته، واقدر له رعايته للفكر والأدب عموماً، وأشكر له هذه المبادرة الطيبة التي جاءت بعد أقل من عام بتكليفه وتشريفه بإدارة هذه الجامعة المباركة. وهي في الواقع دليل ساطع على إنجازه العلمي والإداري، وتصديق لحسن ظننا به. والحق أن كثيراً من الزملاء قد ناشدني بسرعة التوجه إلى معالي الدكتور سهيل كيما أطلعه على نتاج الغزاوي شاعرنا الكبير، وأحثه على هذه الفكرة الطيبة.

وإعجابي بهذا العمل يجعلني أبدي بعض تعليقاتي – أو فلنقل مداعبتي البريئة- لأخي الأستاذ فهد الغزاوي فهو الذي أعلن القضية مشكورا:

- إنك ذكرت عملية الإفراج المتأخرة، وامتدحت بها جامعة أم القرى وهي لعمري جديرة بذلك، لكن لماذا لم تشر إلى عملية الإخراج المبكرة التي أشرفت عليها جامعة الإمام، حيث سجلت الرسالة عن (الغزاوي وآثاره الأدبية) جمعاً ودراسة في عام 1405هـ، ونوقشت الرسالة في ذات العام وقام المؤلف بطباعة ديوان الغزاوي في عام 1406هـ. وللعلم فإن جامعة الإمام ممثلة في كلية اللغة العربية وقسم الأدب لها مبادراتها المبكرة في دراسة الأدب السعودي وتسليط الضوء على أدباء الوطن، أمثال: أحمد الغزاوي، وعبد القدوس الأنصاري، وعبيد مدني، ومحمد السنوسي، والفلالي، وعبد العزيز الرفاعي وغيرهم، فظهرت حولهم رسائل جامعية منهجية.
- كان من حق الذي قام بإهداء تلك الصحائف إلى الجامعة أن تجزل له الثناء والعرفان، فلست أدري متى وصلت لمكتبة الجامعة؛ لأنني في رحلة بحثي قمت بزيارات متكررة لمكة المكرمة، واستعنت بأخي الأستاذ صادق حجازي الموجه بإدارة التعليم، وتكررت زيارتي لمكتبة جامعة أم القرى، وقد كان عميدها آنذاك الأستاذ الدكتور سليمان العايد، الذي سهل لي سبل البحث في المكتبة، وأطلعني على مقصورة مكتبة الغزاوي، فلم أجد تلك الصحائف المدون فيها شعره أو نثره..!، وليتني وجدتها، إذن لكفتني وأغنتني عن البحث المرير، والتدقيق الشاق في تقليب وقراءة الصحف السعودية، لجمع تراثه منها، وإذن لسلمت عيناي من الإمعان المرهق والسهر المضني في قراءة التصوير. أغلب الظن عندي أنه لو كانت تلك الصحائف حقاً في مكتبة أم القرى لما كلفت نفسها عناء تصوير صحيفة أم القرى على الميكروفيلم الذي بعثت به إليّ مشكورة.
- يقول فهد الغزاوي: ((ظل ستار النسيان وكواليس الظلام يغشيان ذلك التراث العظيم)) يعني: تراث الغزاوي، وأنا أقول: لا أعتقد أنه كذلك بعد أن نشرت عنه دراسة كاملة، وتم طبع ديوان شعره في مجلدين منذ عام 1406هـ أي بعد موته بخمس سنوات، بدليل استعانة كثير من الباحثين والمؤلفين في الأدب، وفي مناهج التعليم بتلك الدراسة، وذلك الديوان في رسائلهم الجامعية ومؤلفاتهم، بل إن الديوان عينه

قد تداول بكثرة في المكتبات التجارية، وعُرض في كثير من معارض الكتاب في الداخل والخارج، وقامت وزارة الإعلام مشكورة بشراء نسخ منه لتوزيعها، كما أهديت نسخاً منه للمكتبات العامة، والنوادي الأدبية، التي بعثت تطلب المزيد، كنادي جدة ونادي القصيم.

- ذكر كاتب المقال أن لمعاليه ((اتصالات كثيرة بالأدباء والمفكرين والمهتمين بالأدب))، وذكر قائمة بأسمائهم، ولست أدري لماذا لم أدرج ضمن هذه القائمة؟ ألا يؤهلني تأليفي عن الغزاوي واضطلاعي بنشر ديوانه أن التحق بهذه القائمة..!
- لست أدري ما موقف اللجان والمشرفين عليها من كتاب (أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية) الأجزاء المطبوعة والمخطوطة منه. إنني على ثقة بمعرفة الأساتذة الأفاضل بالدور الجليل الذي تلعبه جامعة أم القرى على الساحة الأدبية في ربوع المملكة أياً ما يكن فإني أقدر آرائهم وأعمالهم البحثية والنقدية.
- ولا يفوتني أن أشيد بالأديب الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين الذي اقترح عليّ (أحمد الغزاوي) موضوعاً لرسالة الدكتوراه بعد أقل من عام من وفاة الغزاوي، وكان له الفضل بهذا السبق، وإنني لسعيد بهذا التوجيه، وزادت سعادتي معايشتي للغزاوي طوال أربع سنوات، كنت خلالها معجباً به، مفتوناً بشعره، الذي نقش حب الوطن في وجداني، وأثرى معارفي وثقافتي، لقد كان رحمه الله بفنه وأدبه الخالد سجلاً راصداً لبناء دولتنا الرشيدة بقيادة الرائد الملك عبد العزيز يرحمه الله.
- وأيضا فإن سمو الأمير عبد المجيد أمير منطقة تبوك سابقا وأمير منطقة المدينة المنورة حاليا قد دفعني إلى المبادرة السريعة بالطباعة، وحين أهديت له المخطوطة بعد المناقشة مباشرة فاجأني بكتابة المقدمة لها إعراباً عن رغبته الأكيدة في إخراج هذا العمل، وهذا تشجيع معنوي شرفني أن يتوج كتابي بمقدمته، مما دفعني إلى المبادرة إلى طباعة هذا الكتاب مهما كانت كلفته وصعوبته.
- خلاصة القول: إنني سعيد غاية السعادة لمبادرة معالي مدير الجامعة الدكتور سهيل حسن قاضي، وأعضاء هيئة التدريس الذين يسهمون بجهد مشكور في إحياء تراث

الغزاوي، والترويج له، والاحتفاء به، فهو شاعر عربي فريد، يستحق منا أن نُعلي قدره، وأن نرفع شأوه. إنني على استعداد في سبيل ذلك أن أقدم ما عندي من مجلدات مخطوطة جاهزة للطباعة إلى جامعة أم القرى - إن رغبت - إسهاماً مني، وعرفاناً لهذا التراث الخالد الكبير.

- تنويه: أما نثر الغزاوي فقد قمنا بجمعه في ثلاثة مجلدات ضخمة، وذلك في أكثر من ألف وستمائة صفحة، وهو مازال مخطوطا.

ابن خميس النجم الآفل
(مجلة الأربعاء 1432/06/22هـ)

"وابن خميس شاعر فذ، متنوع الثقافات، وعالم مفكر، ومفكر متأمل أبحر في التراث، وخبر الحياة كرجل حكيم، يطرح في شعره فكراً راقياً ومضامين سامية..."

يسألوني عن عبدالله بن خميس فأقول: ن الرجل متنوع الثقافات، هو علم عالم متعدد الجوانب، وقمة ذلك كونه مفكراً، متأملاً في الحياة، يطرح فكراً ثقافياً لأبناء وطنه، وتراه وتجده عالماً باحثاً يجوب آفاق التراث ويتعانق مع توصل الحدث عبر الوصف المكاني، والزماني، فمعجمه (معجم اليمامة) يتناول الوصف القديم، و يكشف عن توصيف حديث، موضحاً مسيرة التاريخ و أثرها على المكان، بينما نجد غيره من الباحثين يكتفي بتجميع ما في بطون الكتب، وهو علامة لغوي يجوس عبر كتب التراث والمعاجم، وله أبحاثه وبرامجه الإذاعية التي كشفت عن عمق بحث و فصاحة في اللغة و قدرة بيانية وطلاقة لسانية فكان برنامجه محبباً للنفوس.

وهو أيضاً مبدع شاعر قدير جمع أطراف اللغة، وأنني أسميه فرزدق العصر، فما أشبهه بالفرزدق من ناحية التكوين النفسي الذي يتشكل في التعالي والاعتزاز بالنفس من حيث الشعور والإحساس، وهو يتعانق مع الفرزدق بكونه شاعر أمة يتحدث بلسانها ويقترن بحكامها، ويرصد واقعها وأحداثها فديوانه يسجل الأحداث الإسلامية المعاصرة كأحداث الجزائر وفلسطين وغيرهما يقول عن مذبحة تل الزعتر ص129:

سلهم عن التل كم أفنوا و كم تركوا	أشلاءه كتلاً طيناً على الطين
كم ذا ينادي به طفل وداعة	غير الحصاد الا قومي أغيثوني

إن كـان لا صـلة الإسـلام تنقـذني ولا العروبـة ياللنـاس تـؤويني

وكم من الحوادث التي يتألم لها العربي وهو لا حول له ولا طول و هـو يمثـل الواقـع العربي فهو يصف حال العرب:

مزقـت بـين العـدا أشـلاؤهم لذعـة أسـوأ مـن وخـز الإبـر
و فـشت فـيهم نكايـات آخـر و الأمـاني مـع هـذا جمـة
حـادث في كـل يـوم مـؤلم كـل يـوم هيئـة أو مـؤتمر

وكذلك يسجل التطور في الوطن الغالي. فتارة يقول في جلـب المـاء للريـاض وتـارة يسجل مناسبات وطنية ذات تأثير اجتماعي. ويتضح الاقـتراب مـن الفـرزدق في بنيـة الـنص الفنية، فهو يمنح من الألفاظ القوية الجزلة، ذات الصوت الجهوري التي اسـتمدها مـن المعجـم العربي، بل غير الجارية على اللسان المعاصر، فأثرت تلك الألفاظ المنتقاة على تركيب الجمـل وبناء السياق، وهي تتشكل مع أحاسيسه وتجربته التي نرى بعدها عن الوجدانيات فـشعره إلى نفسه أقرب من شعر الفرزدق إلى شعوره الوجداني.

وربما أن الذي أبعد ابن خميس عن الوجدان صـعوبة الحيـاة الـتي كونتـه فهـو طالـب علم شرعي، ومغترب في شبابه، إلى كونه جـزءاً مـن المجتمـع الـذي شـكلت الـدعوة تركيبتـه الذهنية والوجدانية، ثم إن همته تجاوزت به مرحلة الصبا، فكان حازماً جعـل العقلانيـة أولاً فاختفت العواطف كثيراً.

وهو كاتب له تواصله مع الحيـاة الوطنيـة والعربيـة والإسـلامية فقـد أسـس جريـدة الجزيرة التي ما زالت شعلة تضيء في أرجاء الوطن، وكان العزيمة الصادقة التي تنفـث في روح الكاتب أمطاراً من الانفعالات فكأنها جمعت بين ابن خميس وخالد المالك فكـان لـه أثرهـا في صحيفة الجزيرة.

ولا انسى كثيراً من الأفكار الإسلامية القوية التي خاطب بها ولاة الأمر كالدعوة للجهاد التي خاطب بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (طيب الله ثراه)، ومن مقالاته الوطنية كدعوته إلى إيجاد بحيرة كبرى في صحراء نجد تمد العاصمة بالمياه.

وكثافة نتاج ابن خميس العلمي والإبداعي يفتح الباب لدراسات متعددة. فتاريخ حياته تاريخ وطني متحرك متطور، وبدون مسيرة التعليم في مستهل حياة دولة تنامت حضارياً وهو قريب من الولاة والعلماء والوجهاء، بل مراكز الدراسات العليا فهو عميد كليتي الشريعة واللغة بالرياض.

وكثافة ابداعه وعمقه المضموني والشكل الفني والجمالي يحتم دراسات ميدانية، تكشف عن بنية اللغة، ومصدرها، وتواصلها في مسيرة الإبداع، وتحويلها إلى تكوينات بيانية متقاربة أو متقاطعة تكشف دلالات نفسية واجتماعية وتواصل الموروث في تكون ذهنية الشاعر ابن خميس وأحاسيسه، فالشاعر تتنازعه ثقافات شتى تراثية ومعاصرة، وأحداث واقعياً لها وقعها في مسيرة إبداعه، ونبت في بيئة ذات شموخ نجدي فعمل على حضوره وتجسيد تاريخ وتدوين الواقع بذات الشموخ بل يعلو ذلك في إبداعه الذي يرتفع بع عن أقرانه.

والذي لا ريب فيه أن إبداعه مكون من شبكة معلوماتية تحتاج إلى فرز وبيان وتأمل ومن ثم كشف دلالات.

ونحن لو شرحنا قصيدته في وادي ابن عمار لأدركنا مدى تشعب الموروث وتعانقه مع الحاضر بل هيمنته في المضمون والبناء اللغوي والشكل الفني يقول منها:

وإني وعن شط بي عنه النوي زمناً ... ناء بي عنه ترحالي وأسفاري
لأفتديه وما أبغي به بدلاً ... من شعب (بوان) أو من ربع سنجار
أحب بسفح طويق إنه جبل ... مراع مجد لمعتلم ومشتاري
تفياته (تميم) في فتوتها ... واستقدحت من ذرا زنده الوادي
تمد خفا ببذل الجواد مسجحة ... وأن أهيجت أعدت كل بلتار

إن مَثل المفكر أو المبدع كمثل النجوم المضيئة، يشرق فكره ويشع فنه في الحياة، هداية للحائرين، ونوراً للسالكين. فإذا مات، ورحل جثمانه عن الوجود لم تزل إشعاعات فكره، وقبسات فنه قناديل ومصابيح تنثر الضوء، وتنشر النور في الكون الفسيح. ولقد كان ابن خميس واحداً من هذه النجوم، فارق الدنيا، ولم يزل فنه خالداً كنجم ما إن يعتريه الأفول حتى يعود إلى الحياة لامعاً، وفي صفحة السماء متوهجاً متألقا. وأيم الله إن الأجساد لترتحل وتفنى، بيد أن الفكر النبيل باق، والأدب السامي خالد لا يموت.

والمتأمل في شعر ابن خميس لاشك يقف على ملامح القصيد لديه، ويحس ذلك الفكر الذي يتسامى بالمعتقد، وينتصر للانتماء العربي، وينقش الوطنية في الوجدان. وشعر الشاعر يدور في إطار هيمنة تلك المحاور.

فالشاعر مشحون بالهاجس الديني، والانتماء الإسلامي، يشدو لتراث الأجداد وثقافتهم وتاريخ الأمة الإسلامية، يفخر بقيام الدولة السعودية تحمل راية التوحيد، ولواء العقيدة. لقد كان مشحوناً بالروح الإسلامية التي تنتصر لقيم الدين، وتُعلي قيمة الحضارة الإسلامية المجيدة.

أمة نحن لا نبالي الأعادي أو نحابي مهينة أو مريبة
نحفظ العهد والعلاقة بالله ونبقى لكل جيل حسيبه

أما عن جرح الأمة الإسلامية الذي ماانفك ينزف دماً ومرارة، الجرح الفلسطيني الغائر في صدر العربي الثائر، فلم يخلو شعر ابن خميس من الإشارة إليه، فبمناسبة افتتاح المعرض الفني لصالح رعاية أسر مجاهدي وشهداء فلسطين، الذي أقيم بالرياض عام 1386هـ، أنشد الشاعر السعودي الثائر قصيدته التي يقول في مطلعها:

الثأر يوقظه الحسام المنتضي   تخذ السلام العاجزون تعلّة
والحق كل الحق فيما قد مضى   أين السلام؟ فما أعلّ وأمرضا

قالـــت بـــه (فـــتح) وقلنـــا عنـــوة قلنـــا لعالمنـــــا بنـــــصفة حقنـــــا
يهنيـك يـا (فـتح) الطريـق المرتـضى فأشاح عن سـنن الـصلاح وأعرضـا
رفـــضت محادثـــة الـــسلام وإنهـــا فأشاح عن سـنن الـصلاح وأعرضـا
أيـــن الـــسلام؟ فمـــا أعـــلّ وأمرضـــا واليـــوم نستـــسقي الـــسلاح فإنـــه
قلنـــا لعالمنـــــا بنـــــصفة حقنـــــا أهـدى سـبيلاً نحـو أسـباب القـضا

ويرى الـشكلانيون أن الـشكل هـو العنـصر الاجتمـاعي الحقيقـي في الأدب، وربـما تصدق هذه المقولة إلى حد كبير على شعر ابن خميس، فإبداعـه كلـه يتواصـل مـع التراكيـب الاجتماعية التراكمية المتوارثة، ذات الصلة بالحفـاظ علـى الهويـة الإسـلامية والعربيـة، وهـو نجدي متأثر بمكانه، وهو ابـن الدرعيـة بتركيبتهـا المتعـددة عاصـمة الدولـة الـسعودية وموئـل الدعوة، حاملة التجديد الديني في جزيرتنا العربية منـذ ثلاثـة قـرون، وقـد أشـار إلى ذلـك في قصيدة رائعة يقول فيها:

فآزره آل السعود ولم ينوا لإعلاء دين الله، أبلوا وشيدوا
فأرسوا على أرض الجزيرة دولة يحوط حماها مصحف ومهند
فمن هاهنا سادوا، ومن هاهنا علوا، ومن هاهنا تاج العلى كان يُعقد
ومن هاهنا شوس الملوك تتابعوا إذا مات منهم أصيد قام أصيد
ومن هاهنا تغزو الجيوش جحافلا فكم اتهموا في كل صقع وانجدوا
يروحون أفواجاً إليه كأنما لهم فيه من شطآن دجلة مورد
فعاد إلى الإسلام سابق مجده، ولم يبق من يعشو بظلم ويفسد

ومع التكوين الالتزامي لبنية الذهنية عنـد ابـن خمـيس لم يكـن منغلقـاً عـن الأفكـار الحديثة المفيدة، بل كان الصوت الحر الذي يرفـع رايـة المبـادرة والـدعوة، فهـو أول مـن دعـا وزير المعارف/ سمو الأمير فهد بن عبد العزيز في عام 1373هـ إلى تعليم المرأة. ونحـن نـرى

ملامح ذلك في أسرته، فالكاتبة والروائية والقاصة (أميمة الخميس) من أوائل من كتبت في القصة وتواصلت مع المقالة، وقد حقق الله أمنية الشاعر في عهد الملك فهد، ومما قاله في هذا الحلم القومي الكبير:

يا نصير العلم هل من شرعة تمنع التعليم عن ذات الخبا
إنها في ذاتها مدرسة إن خبيثاً انجبت أو طيبا
فمعاذ الله أن تبقى بنا دمية للهو فينا تجتبي
وإذا ما ثقفت فتياتنا أعلنوا ضد النساء الحربا،
كيف يرضى عالم جاهلة تقلب البيت جحيما ملهبا
يخرج الأطفال منها صورة إن ينالوا العلم ضلوا الأدبا.

ولاشك أن هذه القصيدة تفيض علينا بالدلالات الاجتماعية والنفسية، وتزخر بالصور الموحية في مجمل تكوينها التي تكشف عن عادات الجزيرة العربية وتقاليدها في تلك الفترة الزمنية من تاريخها، وتلك سمات فنية تتجلى في الكثير من شعره، ومن ذلك ما قال في إحدى قصائده:

في مغانٍ من الجمال حديث ومعان من الجلال نجيبة
فهي أسد العرين في سالف الدهر وحصن الولا ومهد العروبة
شربت من عصارة الدهر مرّاً وتحست خبث الشراب وطيبه
كل حين تعدو عليها العوادي من مصاب يعتامها أو مصيبة
كلما خف للجهاد فريق عرف الموت من ذويه نصيبه

ويتولد الخطاب الفكري في شعر ابن خميس من انفعال العنف والغضب الذي يكسو أكثر شعره الوطني لاسيما في القضية الفلسطينية، فهو مشحون بالغضب الثائر ضد الكيان

الصهيوني الغاشم، الذي انتهك مقدسات المسلمين في فلسطين، ودفع بآلته ليدمر كل ما هو فلسطيني، تحت مرأى ومسمع الدول الكبرى لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية التي ترعى ذلك وتشجعه..!

وقد بدا ذلك البركان النفسي الذي يعتمل في ذات الشاعر، بل في أعماق كل عربي غيور في قصيدته (تل الزعتر)، التي يقول فيها:

سل عنهم (التل) كم أفنوا وكم تركوا
أشلاءه كتلا، طينا على الطين
كم ذا ينادي به طفل وودعه
عبر الحصار: ألا قومي أغيثوني

وابن خميس شاعر فذ، متنوع الثقافات، وعالم مفكر، ومفكر متأمل، أبحر في التراث، وخبر الحياة كرجل حكيم، يطرح في شعره فكراً راقياً، ومضامين سامية، ناهيك عن كونه رجلاً مؤرخاً وجغرافياً، يحمل في جعبته العلم الكثير. فمعجمه (معجم اليمامة) مؤلف ضخم يقع في مجلدين، وهو مؤلف موسوعي يعرض فيه شاعرنا تاريخ اليمامة، هذه البقعة الحبيبة من بلادنا، موضحاً مسيرة التاريخ، وأثرها على المكان، وكان الأديب الكبير ابن خميس لا يقف عند ما دونته الأقلام حول الأماكن والبلدان، إنما كان يرتحل ليقف على الأمر بنفسه مخالفاً غيره من الباحثين والمؤرخين الذين يكتفون في تأريخهم للبلدان والأحداث على ما في بطون الكتب.

هو علامة لغوي إذن، يبحر في كتب التراث والمعاجم، وله أبحاث قيمة، ومؤلفات لاشك تثري الفكر العربي المعاصر، ناهيك عن برامجه الإذاعية التي كشفت عن سعة أفقه، وخصوبة معارفه، وفصاحة لغته، وطلاقة لسانه، وقدرته العذبة على البيان والخطابة، لقد كان رحمه الله مبدعاً فريداً، متعدد المواهب والقدرات، وما أشبهه بالفرزدق من ناحية التكوين النفسي الذي يتشكل في التعالي والاعتزاز بالنفس.

وديوانه الشعري يعد ملحمة في الوطنيات، إذ يسجل الأحداث الإسلامية المعاصرة كأحداث الجزائر وفلسطين وغيرها.. يقول عن مذبحة تل الزعتر ص129:

سل عن التل كم أفنوا وكم تركوا	أشلاءه كتلاً طيناً على الطين
كم ذا ينادي به طفل ووداعة	غير الحصاد الا قومي أغيثوني
إن كان لا صلة الإسلام تنقذني	ولا العروبة يا للناس تؤيني

وكم من الحوادث التي يتألم لها العربي وهو لا حول له ولا طول، إن الشاعر هو الآخر يحترق قلبه ألماً لحال أمته العربية التي تمزقت أشلاؤها، وضعف بأسها، وهان قدرها على الأمم، وتكسرت قناتها على شطآن الفرقة والمطامع الشخصية لقد وصف الشاعر حال العرب أصدق وصف حين قال:

مزقت بين العدا أشلاؤهم	وفشت فيهم نكايات أخر
حادث في كل يوم مؤلم	لذعة أسوأ من وخز الإبر
والأماني مع هذا جمة	كل يوم هيئة أو مؤتمر

على أن العقلية الناقدة حين تبحر في إنتاج شاعرنا، سرعان ما يتكشف لها اقتراب ابن خميس من الفرزدق في بنية النص الفنية؛ فكلا الشاعرين يمتلكان قاموساً شعرياً قوامه الألفاظ القوية الجزلة ذات الصوت الجهوري، المستمدة من المعجم العربي، بيد أن ابن خميس أقرب إلى العقلية والموضوعية، فيما الفرزدق يُعلي جانب الوجدان والذاتية في شعره. ولعل مردّ ذلك في شعر ابن خميس كونه نشأ في بيئة عربية تتسم فيها الحياة بالصعوبة والعنت، ويطغى عليها صراع الأحداث الاجتماعية، وطبيعة حياته هو، فقد كان طالباً للعلم الشرعي، وذاق الاغتراب، وعاصر التغيرات الاجتماعية التي شهدها الوطن في فترات عمره الممتد. كلها كانت عوامل تضافرت مجتمعة لتبلور شخصيته المحافظة، وتشكل فكره العقلاني.

لم يقتصر إبداعه على الشعر فقط، إنما كان رائداً في فن الإبداع النثري، لاسيما المقالة الصحفية، ولا ننسى كونه مؤسس جريدة (الجزيرة)، التي كانت ولم تزل شعلة تضيء في أرجاء الوطن، وكان هو نموذجاً للكاتب الوطني الذي لا ينفك يمطر الصحافة بمقالات غزيرة في فكرها، حبلى بالرؤى والانفعالات. من ذا الذي يستطيع أن ينسى دعوته خادم الحرمين الشريفين الملك (فهد) للجهاد، وكذا مقالته التي خاطب بها ولاة الأمر يستنفرهم مقترحاً ضرورة إيجاد بحيرة كبرى في صحراء نجد، تمد العاصمة بالمياه.

ولاشك أن كثافة وغزارة إبداعات ابن خميس العلمية والفكرية والأدبية تفتح الباب أمام الباحثين والدارسين للقيام بدراسات متنوعة تدور عنه، حياةً، وفكراً، إذ إن التأريخ لحياته هو في الواقع تأريخ سيلقي بظلاله على تاريخ الوطن، وعلى مراحل التنامي الفكري والحضاري في ربوع المملكة. لقد كان الرجل قريباً من الولاة والعلماء ووجهاء القوم في الوطن السعودي، وشغل في فترة زمنية من عمره عمادة كليتي الشريعة واللغة بالرياض.

وكثافة إبداعه بما فيه من عمق مضموني وشكل فني وجمالي يستنفر الهمم العلمية، والعقول الفكرية للنهوض بدراسات ميدانية، تكشف لديه عن بنية اللغة ومصدرها، وتواصلها في مسيرة الإبداع، وتحويلها إلى تكوينات بيانية متقاربة أو متقاطعة تكشف عن دلالات نفسية واجتماعية، وتظهر ذلك التلاقح الفني في أدبه بين الأصالة والمعاصرة، وتُبين عن أثر ذلك التلاقح الفني في تكوين ذهنية ابن خميس الشاعرة المبدعة. ألم تر أن قصيدته في وادي ابن عمار دليل على ذلك التمازج المثمر بين حرصه على الأصالة، وتأثره بالمعاصرة، لقد انعكس ذلك واضحاً على المضمون الشعري والبناء اللغوي والشكل الفني في ثنايا القصيدة.

وإني وإن شط بي النوى زمناً	ناء بي عنه ترحالي وأسفاري
لأفتديه وما أبغي به بدلا	من شعب بوانَ أو من ربع سنجار
أحب بسفح طويق إنه جبل	مراع مجد لمعتام ومشتاري
تفياته (تميم) في فتوتها	واستقدحت من ذرا زنده الواري

تمـد كفـاً بـذل الجـواد مـسجحة وان أهيجـت أعـدت كـل بتـار

إن شعر ابن خميس يورد على المتلقي كماً هائلاً من الخـواطر النفـسية والاجتماعيـة. فلو قيض الله له باحثين في اللغة وفي إشعاعات أدبه، إذن لتكشفت لغة الـصحراء وموروثهـا الجزل الفصيح؛ فشعره منحوت من الصخر، ومن وعورة الصحراء ونقاوتها، إذ تتسم ألفاظه بالقوة والحزم والعزم، وتغـشى علـى تراكيبـه وأسـاليبه التراكميـة العربيـة الممتزجـة بـالروح الإسلامية، وبتاريخية المنطقة، وتشيع في لغته الشاعرية ملامح المعجـم اللغـوي العربـي لأبنـاء وسط الجزيرة، مهد العرب الفصحاء، وميـدان الـرحلات العلميـة القديمـة لأجـدادنا العـرب الأوائل أيام انصرفت عزائمهم وانشغلت خواطرهم بجمع اللغة من أفواه العرب الأقحاح.

وابن خميس إذا حلق في أجواء الشعر لا ريب يستحوذ على القارئ ببيانـه وفـصاحته وقاموسه الـشعري الـذي يحتـضن الألفـاظ العربيـة القديمـة، وكأنـه فـرزدق زمانـه. إن لغتـه الشاعرية تحوي ألفاظاً ذات صوتية جهورية، ومفرداتٍ حبلى بالنبرة العربية القوية الـتي تـشع جـرأة، وصـراعاً، وانـدفاعاً، وتراكيـب تكتـسي بملامـح الجبـال والأوديـة، وتحمـل هجـير الصحراء، وترتدي زفير الرياح وهياجها.

وابن خميس واحد من الـشعراء الـذين عاصـروا مراحـل تكـوين المملكـة الـسعودية الحديثة، وواكبوا تطور الأحداث في ربـوع الجزيـرة، فكـان علـى قـرب مـن عاصـمة الدولـة الرياض، وكان مولده في العاصمة السعودية الأولى (الدرعية)، وشهد الفرقة، وقطـع الطـرق، وفقدان الأمن، ثم هيأت له المقادير أن يعاصر مرحلة النهضة الـسعودية، واسـتقرار الأمـن في أرجاء البلاد، ووثبة العلم وانطلاقتـه، كـل ذلـك كانـت عوامـل بلـورت شـاعريته، وجعلتـه حاملا الهم الوطني أينما ذهب، فاندفع يمتدح الملك عبـد العزيـز مؤسـس الدولـة الـسعودية، ويشدو بالوحدة الوطنية، ويغرد لقيام الدولة الـسعودية، وهـو في أثنـاء ذلـك لا يفتـأ يطلـب العلم متنقلاً بين المساجد والكتاتيب، ثم يلتحق بمدرسة دار التوحيد في الطائف، ثـم سـرعان ما ينضم إلى ركاب أولئك المتخرجين الـذين ينطلقـون بـدافع الحـب والوطنيـة مـساهمين في الإدارة السعودية، وفي بناء قواعد تربوية راسخة.

ولاشك أن شعره مرآة صادقة تعكس مراحل بناء المملكة، وتكشف عن هاجس الأمة العربية الحالم بالوحدة والتطوير، الداعي إلى وجوب نبذ الفرقة، والعودة إلى حياض الدين أملاً في استرداد المجد الإسلامي القديم، وأذكر يوم دعا الملك فهد رحمه الله إلى الجهاد، فإذا بصحيفة الجزيرة في صباح اليوم التالي تطالعنا بمقال حماسي للشاعر يبارك فيه دعوة الملك فهد.

هذا والباحث في نثر الشاعر يكتشف أنه لا يقل عظمة وعذوبة عن شعره؛ إن مؤلفه (معجم اليمامة) يرتبط فيه المكان بازدواجية الماضي والحاضر، ويرصد فيه ما قال شعراء العرب القدامى، والقارئ نثرياته في الصحف السعودية يلمس فكره المثقف، ودعواته إلى الإنجاز والابتكار والبناء الطويل الأجل، ومقترحاته التي تكشف حبه لهذا الوطن المعطاء، ومنها ما نادى إليه من ضرورة إيجاد البحرية في وسط صحراء نجد لإمدادها بالمياه.

والشاعر ابن خميس أتيحت له فرصة التواصل مع الملوك السعوديين، والأمراء، والعلماء، والأدباء، وله معهم محاضرات ومحاورات كان هو فتاها المتألق، لما تمتع به من موهبة خلاقة، اشتقت تكوينها من الثقافة الإسلامية، والإبحار في التراث اللغوي والتاريخي، والتزود من أمهات الكتب الشرعية، والاطلاع على التيارات الفكرية الحديثة.

واللغة الشاعرية لابن خميس تمتزج بإيقاع موسيقي أخاذ ساعد على تكوينه وقوف الشاعر على الموروث الشعري العربي، كما أن موضوعاته الشعرية متنوعة خصيبة لكنها متحدة الإيقاع يكاد يشبه في شعره الفرزدق شاعر العربية الكبير، كما بينا سلفاً.

كما أن عناصر التراث العربي بشتى أطيافها تتشكل في شعره، ولم ينساق وراء التنوعات الموسيقية الحديثة بل صهر مضامينه الشعرية في الشكلانية العروضية القديمة.

ولاشك أن ابن خميس يمتلك ناصية اللغة بما اطلع على المعاجم اللغوية، وما امتلك من معرفة عميقة بأسرار اللغة وتراكيبها، وما امتلك من قدرة إبداعية على استمداد المضامين الحديثة التي تدلف إلى مكونات الأحاسيس الانفعالية.

وحياة ابن خميس حافلة بالإبداع والإنجاز، فهو شاعر، ومؤلف، وكاتب صحفي، وباحث متفرد، ومحاضر مفوه، وكان له برنامج إذاعي متميز عن الشعر العربي، وأذكر أيام

كنت طالباً للعلم في قاهرة المحروسة، قد التقيت بولده صالح بن خميس، وقد راعني ما يتمتع به من لغة شعرية فصيحة، فأدركت يومئذٍ كم كان ابن خميس مؤثراً في أسرته..!

رحم الله ابن خميس، فقد كان شاعراً من شعراء الجزيرة الكبار، وكان علماً في ميادين الثقافة المتنوعة، وشهد له معاصروه بالدور الرائد في تأسيس صحيفة الجزيرة، ونجح في أن ينقش اسمه خالداً في ذاكرة الوطن.

لقد فقد الوطن صوتاً ندياً قوياً مدوياً عبر ما يقارب من قرن يشدو للبناء الوطني، ويدعو إلى رفعة الإسلام، ويدافع عن العالم العربي.

إنه يمثل صوت الإنسان العربي وأمانيه وتطلعاته، ويحمل الهاجس العربي بتراكمه لغةً، وديناً، ومكاناً، وزماناً.

نازك الملائكة والمعاناة

(مجلة الأربعاء 1428/05/27هـ)

"وكانت تسود قصائدها مسحة من الحزن العميق، فكيفما اتجهنا في ديوانها (عاشقة الليل) لا نقع إلا على مأتم،ولا نسمع إلا أنيناً وتوجعاً وبكاء"

نازك الملائكة الشاعرة العراقية التي بدأت معاناتها مع الحياة الفكرية في مراحل شبابها الأولى، فاستلهمت الحرية باندفاع الشباب، وتمردت على الواقع الفكري، والواقع السلوكي، وتنقلت في ربوع لندن بكل تموجاتها الفكرية التي كانت تمثل الصراع بين الفكر الشرقي والغربي، والصراع بين الشيوعية والرأسمالية، والصراع بين التدين والإلحاد. وما لبث أن هاجرت إلى أمريكا ذلك العالم الذي كان يمثل حلم المثالية للعالم الحر في تلك المرحلة، قبل السقوط الحالي الذي تتدحرج فيه. وحينئذٍ حدث أكبر تحول فكري ونفسي واجتماعي في حياتها كلها، إذ أعلنت التوحيد، ولم تنقض سنتان حتى التزمت الصلاة، فاستكانت روحها، وهدأت خواطرها، وطفقت ترشق قلمها الإبداعي في صدر تلك الموجات الصاخبة العاتية التي هبت على الوطن العربي ثائرة على كل قديم موروث، وداعية إلى حداثة جذرية في الحياة الأدبية شعرها ونثرها.

لقد وقفت نازك الملائكة في وجه تلك الموجات العارمة، تناصر القديم وإن اصطبغ إبداعها الشعري بأصباغ الحداثة الشعرية، ولكنها أصباغ لا تتنافر مع القديم، ولا تنبئ عن مجافاة لحلاوة الأصل وعذوبته.

ولقد وقفت تناصر قضايا أمتها العربية، ضاربة بذلك مثالاً على أن المرأة العربية لا تقل عن الرجل قدرة على تحمل الصعاب، وفهماً لطبيعة الصراع الكوني بين الخير والشر،

ووعياً بقضايا الأمة في حاضرها ومستقبلها. ها هي تعاني معاناة الشعب العربي، وتصف الجرح الفلسطيني وصفاً صادقاً دامياً.

يا قبة الصخرة من صلاتنا سيرتوي آذار
وتنبت الرايات والثمار
صلاتنا تفجر الأنهار
تعيدنا للموطن المسروق وتمحو العار
وتنشطر أشلاء ممزقة مثل لبنان
جنوب لبنان قرى مروعة
أوصالها مقطعة
سكانها إلى القبور جثث مشيعة
بيوتهم خرائب منشورة أعمدة مخلعة
حرائق مندلعة

والعراق موئلها الأول، ووطنها الغالي، لم يغب عن خاطرها، رغم بعدها عنه، واغترابها الدائم، إنه جرح غائر في وجدانها هو الآخر، ومأساته جزء من مأساتها، فهي لم تكن راضية عن التموجات السياسية في العراق التي أفرزت صراعات على الحكم، وثورات تدميرية، وأجواء اجتماعية تكبت الحريات، وتقيد الفكر، وتغتال الحرية والديمقراطية. الأمر الذي دفعها إلى إيثار الغربة بما فيها من مرارة وشقاء، لا يكاد يجذبها إلى وطنها إحساس بالأمان أو الأنس أو الرضا، وهي إذ ترصد في شعرها مأساة الشعب الفلسطيني أصحاب الشتات إنما ترصد في عقلها الباطني مأساة وطنها العراق.

إن قصيدتها في فلسطين تكاد تكون تصويرا واقعيا لمأساة العراق ومعاناة العراقيين فهل ثمة أصدق قولاً في رسم لوحات العراق الحالية من قولها في فلسطين:

كل يوم تموتين في القدس، كل صباح
يقتلونك، تنقل أخبار موتك سود الرياح
تسقطين شهيدة
في الشعاب القريبة والطرقات البعيدة
ترتدين مخصبة بدماء العقيدة
وتهيمن ظمأى شريدة
في دروب الظلام وحيدة
****
والدموع القديمة تغسلها
كل يوم دموع جديدة

والأبيات اللاحقة أيضاً لا تحتاج إلى توضيح أو تحليل، إنما هي لوحات صريحة واضحة، إذ تنقش عليها ملامح المعاناة العراقية وهي تعود لمخاطبة أمها، وكأنها تخاطب وطنها العراق أو تتحدث بلسان فتاة عراقية إذ تقول:

كثر القتل يا أمي
وتعدد موتك حين رأيت حُمانا
يستباح ونُرمى ولا نرمي
والعدو يصادر حتى تسابيحنا وكرانا
وطفولتنا ودمانا
يسكن منا مزق الم والعظم
وله النصر في كل حرب، ونحن الضحايا
المآذن والعتبات تسابق سبايا

إنها شاعرة ملهمة، وشعرها إنساني عالمي، يتمخض عن مضامين ومقاصد إنسانية فاضلة.

ولدت الشاعرة نازك الملائكة في بغداد العراق، في 23-8-1923م ونشأت في بيت علم وأدب، في رعاية أمها الشاعرة سلمى عبد الرزاق، وأبيها الأديب الباحث صادق الملائكة، الذي اختار لها اسم (نازك) تيمناً بالثائرة السورية (نازك العابد) التي قادت ثوار سوريا في نضالهم ضد الاحتلال الفرنسي في ذات العام الذي ولدت فيه الشاعرة. ومن ثم تربت في مناخ أسري يتسم بالدعة والرفاهية، وبيئة توافرت فيها أسباب الثقافة. وقد قضت أعوام صباها مع أسرتها، ثم فرت من العراق في أواخر الخمسينيات خوفا من تفشي العنف الثوري في تلك المرحلة.

درست نازك الملائكة اللغة العربية، وتخرجت في دار المعلمين العالية عام 1944م، تلقت دروساً في الموسيقى، ثم توجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية للاستزادة من معين اللغة الإنكليزية وآدابها عام 1950م، وهناك أتيحت لها فرصة دراسة اللغتين اللاتينية والفرنسية إلى جانب الإنكليزية، وفي أمريكا نالت الماجستير في الأدب المقارن من جامعة ويسكونسن – ماديسون. ثم قفلت عائدة إلى العراق، وانتقلت للتدريس في جامعة بغداد، ثم جامعة البصرة، ثم جامعة الكويت، قضت عاماً من عمرها في بيروت، وسرعان ما سافرت عام 1990م، بسبب ظروف حرب الخليج الأولى إلى القاهرة، ومكثت مقيمة في مصر في عزلة اختيارية حتى وافتها المنية في صيف 2007م.

لنازك الملائكة قصائد مشهورة، وأعمال نقدية معروفة، وقصص، وبعض نصوص السيرة الذاتية.

مثلت العراق في مؤتمر الأدباء العرب المنعقد في بغداد عام 1965.

ولها من الشعر المجموعات الشعرية التالية:

عاشقة الليل صدر عام 1947.

شظايا ورماد صدر عام 1949.

قرارة الموجة صدر عام 1957.

شجرة القمر صدر عام 1965.

يغير ألوانه البحر طبع عام1970

مأساة الحياة وأغنية للإنسان صدر عام 1977.

الصلاة والثورة صدر عام 1978.

الأعمال الكاملة - مجلدان - (عدة طبعات).

ولها من الكتب:

قضايا الشعر الحديث عام 1962م

التجزيئية في المجتمع العربي عام 1974م

الصومعة والشرفة الحمراء

سيكولوجية الشعر عام 1992م

كتبت عنها دراسات عديدة ورسائل جامعية متعددة في الكثير من الجامعات العربية والغربية، وكانت تسود قصائدها مسحة من الحزن العميق، فكيفما اتجهنا في ديوان عاشقة الليل لا نقع إلا على مأتم، ولا نسمع إلا أنيناً وبكاءً وأحيانا تفجعا وعويلا، وهذا القول لمارون عبود.

نشرت الشاعرة ديوانها الثاني (شظايا ورماد) في عام 1949م، وثارت حوله ضجة عارمة حسب قولها في قضايا الشعر المعاصر، وتنافست بعد ذلك مع بدر شاكر السياب الشاعر العربي الكبير حول أسبقية كتابة الشعر الحر، وادّعى كل منهما أنه أسبق من صاحبه في هذا المضمار، وأنه أول من كتب الشعر الحر وقد ذكرت الشاعرة نازك الملائكة في كتابها قضايا الشعر المعاصر قولها: "كانت بداية حركة الشعر الحر سنة 1947م، ومن العراق، بل من بغداد نفسها، زحفت هذه الحركة وامتدت حتى غمرت الوطن العربي كله، وكادت بسبب تطرف الذين استجابوا لها أن تجرف أساليب شعرنا العربي الأخرى جميعا، وكانت أول قصيدة حرة الوزن تنشر قصيدتي المعنونة ((الكوليرا)) وهي من الوزن المتدارك (الخبب)" ويبدو أنها كانت متحمسة في قرارها هذا ثم لم تلبث أن استدركت بعض ما وقعت فيه من

أخطاء في مقدمة الطبعة الخامسة من كتابها المذكور فقالت: "عام 1962 صدر كتابي هذا، وفيه حكمت أن الشعر الحر قد طلع من العراق ومنه زحف إلى أقطار الوطن العربي، ولم أكن يوم أقررت هذا الحكم أدري أن هناك شعراً حراً قد نظم في العالم العربي قبل سنة من نظمي لقصيدة (الكوليرا) ثم فوجئت بعد ذلك بأن هناك قصائد حرة معدودة قد ظهرت في المجلات الأدبية والكتب منذ سنة 1932، وهو أمر عرفته من كتابات الباحثين والمعلقين لأنني لم أقرأ بعد تلك القصائد في مصادرها".

قبضة من أثر جميل

"وديوانه يسجل مسيرة حياته الفكرية والعاطفية، لكنه لا يكشف عن مسيرة حياته العملية أو المهنية، ربما كان مردّ ذلك كونه من رجال الأمن في المملكة، والأعمال الأمنية تحفها السرية.."

مدينة العلا منبت الحضارات ومستقرها، فقد عاشت فيه بعض إمارات عاد قوم هود، ثم تعاقبت عليها حضارة الثموديين الذين أرسل إليهم النبي صالح ﷺ، ثم حضارة اللحيانين، ثم تدفقت إليهم الأنباط من الشمال، ومن هذه المدينة انطلقت الكتابة الثمودية، وفيها تطورت بعض الخطوط العربية، وقد شاهدها رسولنا محمد ﷺ في طريقه لغزوة تبوك.

واستوطنت منطقة العلا بعض القبائل العربية، مثل قبيلة بلي، وبني عذرة وقد ظهر في المنطقة الشمالية شعراء، منهم: زهير البلوي - الذي عُمر أربعمائة سنة، وهزم الغساسنة، ومدحه النابغة الجعدي - وجميل بن معمر صاحب بثينة، وعروة بن حزام العذري، وكثير عزة، وقيس بن الملوح (مجنون ليلى)، وظهر في المنطقة أكثر من ثلاثين شاعراً ماتوا حباً وهُياما.

وظلت مدينة العلا مهداً للحضارة العربية، وصارعت عبر أحقابها الزمنية المتلاحقة أمواج الجهل والفقر، وعانت خلال تاريخها الممتد من فقدان الأمن، وعزوف الدول الإسلامية عن الاهتمام بدروب الحاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، حتى أشرقت على ربوع الجزيرة شمس العهد السعودي، فوجه ولاة الأمر عنايتهم بالتعليم، فكانت العلا من أوائل المدن التي عانقت أنوار المدارس الحديثة. فتعلم أهلها، وتخرج شبابها في مدارسها وكلياتها، ثم انطلقوا إلى الوظائف الحكومية والخاصة، العسكرية والمدنية.

وقد أجزلت لي المقادير عطاءها إذ تعرفت الشاعر سليمان المطلق، الذي ينتمي إلى مدينة العلا. عرفته حين كنت طالباً وكان هو ضابطاً ممتلئ الحيوية، وكانت الشرطة لها هيبتها في نفوسنا، فكنت معجباً به وقتها أيما إعجاب.

غير أن أمواج الحياة وتصاريف المقادير حالت بيننا، فلم أقابله إلا في حفل استقبال صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان حين تولى إمارة منطقة تبوك، وقد عهدت إليّ اللجنة يومها بقراءة الشعر، فكان رحمه الله شاعراً لطيفاً، متباسطاً في حديثه، وحواره، إذ مضى ساعتئذٍ في حديث عذب وممتع يحادثنا ويناقشنا حول أبياته الشعرية.

ولما ألفت كتابي (تبوك قديماً وحديثاً) كان الشاعر سليمان المطلق في صدارة الشعراء الذين ترجمت لهم، وهو أهل لذلك، لأنه شاعر من الشعراء المجيدين المبدعين في المنطقة، وشعره جدير بالدراسة، وكان أدبه غزير الإنتاج، ووجود ديوانه الشعري عندي صيّره في طليعة الشعراء الذين أستشهد بشعرهم في مؤلفاتي عن الأدب السعودي.

لقد توجني ابنه اللواء أحمد سليمان المطلق بشرف كتابة المقدمة للطبعة الثانية لديوان أبيه، الذي يحمل عنوان (قبضة من أثر جميل).

ولاشك أن ذلك العنوان يوحي بدلالات متعددة، فالشاعر يلتقي مع جميل بثينة الشاعر العربي القديم في جانب من جوانب حياته؛ فجميل بن معمر صاحب بثينة عاش في وادي القرى قريباً من العلا، وتنقل من العلا غرباً إلى تيماء شرقاً إلى حسمى وتبوك شمالا، ثم هاجر إلى مصر، وله قصيدة يصف فيها تلك الرحلة ويذكر تلك الأماكن التي مرّ بها من العلا إلى تبوك إلى مصر ومازالت تلك الأسماء قائمة رغم مرور هذا الزمن البعيد، وقد شاء الله أن يقتفي شاعرنا سليمان المطلق أثر جميل، ويحيا ذات التجربة، فاستوطن تبوك، وتنقل عبر القارات، استمع إليه وهو يقول:

بثينة والهوى العذري وجميل	وروايات دهر شرحهن يطول
ومنازل قوم دارسا رسومها	وآخر تحدين الليالي وهن طلول
ومن شامخات الذرى حمر وغطش	كأن من الليل باق حولهن فلول

يشير إلى الجبال السوداء من الحرات حرة الإبل والرياض، ويشير إلى مكونات البادية من الرعاة فتيانا وفتيات:

وعشار بيض ويمسين شبعا ... وعتاق من الدهم جدهن أصيل
وكواعب قد كان ينظرن خلسة ... ويقلن في نجوى بثينة وجميل[1]

إن الشطر الأخير ملمح رمزي أنيق لسيرة جميل وبثينة، ومازالت متوارثة في المنطقة، وثمة ملمح آخر ربما يتوارى في شعر الشاعر سليمان المطلق، وهو تأثره بهؤلاء الشعراء العذريين، الذين تعذبوا بالحرمان العاطفي، فجادت قرائحهم بقصائد رائعة في الشعر العذري، الذي يتسم بثوران المشاعر، مع عفة الألفاظ، والقارئ المتأمل في قصيد الديوان، يدرك كم كانت شاعرية سليمان رقيقة عذبة، وأن تجربته الشعرية يؤطرها هاجس الحب على نحو ما، وإن لم يصل ذلك الحب إلى الحرمان والبؤس. إن تجربته الشعرية فيض من الأحاسيس الرقيقة العذبة.

أين حبك ينبوع العطاء ... أين أياما نعمنا باللقاء
كيف لا أتذكر أيام التلاقي ... كان حبا فيه عز الكبرياء
كيف كنا في ليالينا طيوف ... تنهل النور بكأس من سناء
أنت شوقي وفتوني وشجوني ... أنت أفراحي وعيدي وهنائي
أنت أيامي وأحلامي وفكري ... أنت أجوائي وأصداء دعائي[2]

---

(1) ديوان قصة من أثر جميل - ص61

(2) ديوان قصة من أثر جميل - ص217

ويقول أيضاً:

أنـــا ابـــن بثينـــة وجميـــل ومـــنهم حـــب خـــالاتي[1]

ويقول في مضامين أخرى عذرية للحب:

لا تقولـوا فتـى قـد ضـاع مـن كمـد لقـد رضـيت بـه إن كـان لـه سـببا
رضـعته في لبـاني فهـو يـشملني عظما ولحما ومنـه العـرق والعـصبا
فمـا أنـا بالـذي عنـه بمنـصرف وما أنـا بالـذي يـصغي لمـن عتبـا[2]

وديوانه يسجل مسيرة حياته الفكرية والعاطفية لكنـه لا يكـشف عـن مـسيرة حياتـه العلمية أو المهنية؛ ربما كان مردّ ذلك كونه من رجال الأمن، والأعمال الأمنيـة تحفهـا الـسرية كثيراً حفاظاً على أسرار النـاس. أمـا رحلاتـه فهـو كـثير الحـديث عنهـا في شـعره، كرحلتـه لبانكوك في شرق أسيا، ورحلته إلى أوروبا ورحلاته الداخلية داخل ربوع الوطن.

وسليمان المطلق شاعر فذ، وحسبه أنه رائد الشعر في المنطقة الشمالية الغربيـة، وهـو شاعر الطبع لا التكلف، يبث شعره ارتجالاً، لا يكاد يقف عنده متأملاً أو منقحاً؛ كيما يجـري تعديلاً أو يدخل تحسيناً على قصائده كغـيره مـن شـعراء الـصنعة، إنمـا شـعره بـوح التجربـة الانفعالية، وعفو الخاطر دونما تكلف أو تصنع.

وتتلون تركيبة الشعر المضمونية عند الشاعر بأطيـاف المـوروث الحـضاري للجزيـرة، وتتـشح بوشـاح المكـان التراثـي، وتمتـزج بـالتكوين الاجتمـاعي الريفـي بـشقيه الزراعـي والأعرابي، فهو يقف عند النخيل متأملاً، ويـصاحب الراعـي بمـزاميره في الفيـافي وفي بطـون

(1) المرجع السابق - ص51
(2) المرجع السابق - ص77

الأودية وعلى سفوح الجبال، وشعره يكشف عن واقعه المعاصر، ويصف عالمنا المعاش بمكوناته العمرانية والحضارية، وطائراته، وملاعبه، وغيرها من ألوان الحياة المتنوعة.

إن شعره شعر اللحظة الزمنية المرتبطة بوحي المكان والحدث المصاحب. وشعره تصوير للنفثة الشعورية، والخاطرة المندفعة، في قوالب شعرية من الألفاظ الفصيحة القريبة المتناول، والمعاني شديدة العذوبة والرقة، والخطاب الشعري الذي لا غموض فيه ولا رمز، والتراكيب الواضحة التي ترصد الواقع والشعور في صراحة دونما تعقيد أو إبهام، ولهذا فشعره ينهج منهج الأدب الواقعي.

والشاعر اللواء سليمان المطلق يتلاحم مع كوكبة من الشعراء العسكريين الذين ظهروا في شعرنا السعودي الحديث، ومنهم: اللواء علي زين العابدين والشاعر اللواء علي الغامدي، والشاعر اللواء فهد النفجان، والشاعر اللواء عبد القادر كمال. والقارئ لشعرهم جميعاً يدرك أن إبداعهم يمثل ظاهرة شعرية لها مكوناتها الخاصة، ولها تشكيلها الفني، وهي ظاهرة جديرة بالدراسة.

الدكتورة مريم البغدادي ورحلة المعاناة

(مجلة الأربعاء 1428/07/18هـ)

"إن عقيدتها في الغرام تستحضر في ذاكرتنا تلك الحركة الأدبية الشعرية التي ظهرت في أوروبا إبان القرنين الثاني والثالث عشر على أيدي مجموعة من الشعراء سموا بشعراء التروبادور..."

رحلة متواصلة مع الفكر والأدب والكلمة الدالة، القوية الإيحاء، تنقلت خلالها الأديبة الشاعرة الدكتورة مريم البغدادي إبان مرحلة الطفرة البترولية العالمية التي حظيت بلادنا منها بالحظ الأوفر، كانت نموذجاً من أولئك الفتيات النابغات اللاتي استمالهن مشوار الدراسة والابتعاث، وشغفن بمواصلة التعليم العالي، وثابرن مكافحات غير ملولات، حتى صرن أعلاماً ونجمات مشرقات.

نشرت لها مؤلفات عدة من أهمها (المدخل في دراسة الأدب) و(مقالات في الأدب العربي القديم)، وديوان (عواطف إنسانية)، بالإضافة إلى مجموعة بحوث أدبية، ودواوين شعر مخطوطة.

ورحلة الشاعرة مع الإبداع في تلك المرحلة رحلة ذاتية وجدانية، كانت فيها نموذجاً للمرأة التي تحلت بالقوة والإصرار، حتى تمكنت من أن تشق طريقها نحو مستقبل زاهر. ورغم كونها تمثل طرازاً للمرأة العربية التي تتسم بالشخصية المثابرة القوية، التي فرضت نفسها على الساحة الأدبية في زمان كانت فيه تقاليد القبيلة الذكورية ترى في مجرد تذييل مقالة أدبية، أو قصيدة شعرية باسم امرأة نوعاً من التمرد والخروج عن الذوق والعرف، إلا أنها لم تنس يوماً كونها امرأة تشعر بما يشعر به بنات جيلها، فالشاعرة تختلج المشاعر العفيفة في وجدانها وتتصارع، شأن غيرها من النساء. تقول في قصيدة "لن أخون":

أنبئت أنك قد وصلت سوانا | وتركت قلبي في النوى عطشانا
واطعت غيري في الهوى وهجرتني | وصرمت حبلي فاشتفى أعدانا[1]

إنه عتاب المحب المجروح قلبه، حين يتوجه بالخطاب إلى الجافي الود، المهاجر الذي أغرته الملامح الجديدة، ودفعته روح الطفرة المادية لتلوين حياته بحسب نزعاته الوجدانية المتحركة، ثم هي تواصل عتابها الحزين بقلب مكلوم، ونفس كسيرة:

وحملتُ أقسى ما يُحَمَلّه الفتى | جرحا عميقا زادني أحزانا
واشتد حزني حين رحت لغيرنا | فينا تُعَرِّض ذِلة وهوانا[2]

إنها القراءة الواقعية للتفاعلات الوجدانية حين تعتلج النفس وتثور، موزعة بين حرارة الود القديم، وعهوده، وتنكر الخل الحبيب وجفائه.

هل يا رفيقي خنتُ عهدك في الهوى | هل في وفائي ما يعيب هوانا
ويلي ويا ويحي لقلة راحتي | وتشتتي بالحب، كم أبكانا
كيف السبيل لقتل شوقٍ قاتل | شوقٍ تفجر في الحشا بركانا[3]

إن استفهامها الحائر ليبين عن عمق المشكلة، وحجم المعاناة، وكلماتها (ويلي، ويحي، تشتتي) الحبلى بالأسى والأسف تكشف عن تلك المفارقة العجيبة، إذ يقابل الحب بالنكران، والإحسان بالإساءة والهيام الصادق بالصد والهجران.!

---

[1] ديوان عواطف إنسانية ص13

[2] ديوان عواطف إنسانية ص13

[3] المرجع السابق ص13

أنـا لـن أخـون ولـن تهـون مـودتي لكـــن ســئمت الـــصد والهجرانـــا
إنـــي وربـــي حـــين أطلـــب ردّه كالطفـل حـين يغـادر الأحـضانا[1]

وألفاظ القصيدة غاية في العذوبة، وموضوعها يدور حول فضيلة العفة والعفاف وصيانة الأعراض، والالتزام بالتوجيه الرباني، والشاعرة توظف (لـن) التي تفيد استمرار النفي في المستقبل في التعبير عن صدق ودّها، وبقاء حبها، ونشدان القلب لمواصلة ذلك الود رغم التنائي، وهجران الحبيب.

إن في شعرها جنوحاً إلى الحب العذري، الذي يكتوي صاحبه بنيران الغرام، ويتلظى فؤاده العاشق بحريق الحنين والهيام، ولاينفك يحلم بالوصال وباللقاء، بيد أن الحلم لا يعدو إلا سراباً وأوهاما، والقلب يهوى في جحيم الحرمان والأسقام. لاشك أن الشاعرة المبدعة تتلاقى مع شعراء العربية العذريين في تجربتها الشعرية المتشحة بالحزن، والممتزجة بالحرقة والألم، الطامحة إلى نشدان وصال متعذر، الوفية لحب مستحيل، المتسربلة بفكرة المحنة الدائمة، والمعاناة المستمرة التي تتشابك خيوطها مع ذات الفكرة عند شعراء التروبادور من الأسبانيين والفرنسيين أولئك الذين يستلذون بحرمان الحب، ولا يتمنون الوصل مع المحبوب حتى لا تنعدم جذوة الحنين والحرمان والمعاناة. تقول في قصيدتها "براني الوجد":

ســـألت عليـــك يـــا أملـــي وكـــان الـــشوق كاللـــهب
يُحَـــرِّق جـــل أركـــاني ولا أشـــكو مـــن النـــصب
برانـــي الوجـــد أرقـــني وصـــنت وذاك مـــن أدبـــي
ســـأبقى الوامـــق المـــشغوف مـــسجوناً مـــدى الحقـــب[2]

---

(1) المرجع السابق – ص13

(2) ديوان عواطف إنسانية – ص15

وتكبر المعاناة في التجربة الشعرية، وتشتعل بوهج الحرقة والألم، ولكن الأيام كعادتها تمضي غير عابئة بانتشاء سعيد أو انكسار حزين، وما تلبث روح الشاعرة المحبة أن يستبد بها الملل، ويجتاحها السأم من ذلك الحرمان الدائم وتلك الحالة الشجية المتواصلة من الحزن والأسف، والمتولدة عن استمرارية الصدّ، وبقاء الجافاة، ولعل ذلك الملل مردّه تعاقب الأيام الذي يسفر عن تغير في الفكر، وتقلب في المشارب، ولا ريب أن التحام الشاعرة بالعلم والمعرفة ودراستها الأكاديمية ربما كان عاملاً من العوامل التي ولدت ذلك الشعور المفاجئ بالملل. تقول في قصيدتها "أنت أقصى غايتي":

يا منيتي قد ضقت ذرعاً بالفراق وبالنوى
إني سئمت من الصدود ومن تباريح الهوى[1]

وهي توظف المعجم الوجداني كثيراً في شعرها؛ فالروح والحب والشوق ونار الوجد، وذوبان القلب، والحنين، والجوى، كلها نفثات الوجدان، وثوران المشاعر

يا روح روحي ذاب قلبي من حنيني واكتوى
والشوق ذرّ بأضلعي نار المودة والجوى[2]

****

يا من أراك بعالمي ولا أرى أحداً سواك
إني وهبتك مهجتي إن شئتَ أجعلها فداك
هذي عيوني ضاحكات لو ترى والقلب باك
منذ النوى أخفى الجراح وتشتفي وقتاً تراك[3]

---

(1) المرجع السابق - ص17
(2) المرجع السابق – ص17
(3) المرجع السابق ص17

وهي تستمد من المدرسة الوجدانية (مدرسة أبوللو) التأنق الشعري، واستمداد الصور الوجدانية وتوظيف الألفاظ التي تعبر عن مكنون المشاعر الداخلية أصدق تعبير كالنور، وعيوني، وخاطري، والنبع، والرقة، والجمال الساحر، والملاك الطاهر.

يا من يعذب في فؤادي ثم يُشغل خاطري	كالنور يعبث في عيوني في جمال ساحر
كالنبع رقته كورد باسم في ناظري	يا حسنه في كل شيء كالملاك الطاهر[1]

وهي تتنازل عن كبرياء الذات التي غالبا ما تقوض أركان الحياة الزوجية، فترسل النداء شجياً حزيناً ملوناً بالآهات تبعث به إلى حبيبها لعله يعود:

عد لي ملاكي كي تجرب صحبتي ومودتي
كيما ترى كيف العذاب وكيف كانت حالتي
إني سقمت من الهوى بل حان وقت نهايتي
ما كان غيرك لي هوى بل أنت أقصى غايتي[2]

ويحتل الوجدان الذاتي مساحة كبيرة من ديوانها (عواطف إنسانية) وهي تدافع عن حبها دفاعاً قوياً، لكن بأسلوب لغوي برهاني، وبمضامين توحي بأن الحب لا يحتاج إلى براهين تدعمه، ولا إلى حجاجٍ تفسره، إنما هو سر الخالق يودعه في قلب المخلوق على نحو مفاجئ، ودونما مقدمات أو تبريرات..!، تقول في قصيدتها "حديث العفة":

قالوا: سُحرت به فقلتُ: لحبه أتطوع
قالوا: جفاك فقلت: إني في النوى لا أجزع
قالوا: سقمت فقلت: راض والمحبة تُوجِع

---

(1) ديوان عواطف إنسانية ص18

(2) المرجع السابق - ص18

إن الملامة في الهوى يا لائمي لا تنفع[1]

إن القضية عندها أنها تحب، وأن ذلك الحب سر غامض يجتاح الفؤاد، وينزل منه منزلاً لا يكاد المرء العاشق معه أن يسأل: لم؟ وكيف؟، وما يزال الحب يسري في الشعور، ويتغلغل في حشايا القلب، حتى يبلغ العاشق في حبه مبلغاً لا يكاد يرى معه عيوب حبيبه، أو نقائص أليفه، بل ويقنع منه بالنذر القليل من الوصال، ويلتمس له المعاذير. وإلى ذلك المعنى سبقها جميل بثينة حين قال:

وإني لا أرضى من بثينة بالذي　　　لو رآه الواشي لقرّت بلابله

ورغم معاناتها مع العشق، وما تجد من وجدٍ وحرمان فإنها مع ذلك ترى أن الحب نعمة من الخالق، وأن الصبابة شعور طاهر عفيف لا يداخله إثم، ولا تعيبه خطيئة، وقد صرحت بذلك في قصيدتها "الهوى نعمة":

يقول بأن الهوى نعمة　　　ومن كان صبّاً فلا يأثم[2]

إن عقيدتها في الغرام تستحضر في ذاكرتنا تلك الحركة الأدبية الشعرية التي ظهرت في أوروبا إبان القرنين الثاني والثالث عشر على أيدي مجموعة من الشعراء سُموا بشعراء التروبادور.

والتروبادور مجموعة كبيرة من الشعراء الموسيقيين الذين اشتهروا في جنوبي فرنسا في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وأصل الكلمة لاتيني تروبير أي يؤلف، لكن كثيرًا من الدارسين يعتقدون أن الكلمة تعود إلى أصل عربي هو طرب، وأن شعراء التروبادور كانوا يصدرون في أشعارهم عن محاكاة وتقليد لشعراء العرب في الأندلس (اسبانيا الآن)،

---

[1] المرجع السابق – ص19

[2] عواطف إنسانية – ص22

وقد نظموا في مختلف فنون الشعر، غير أن الموضوع الذي استهواهم جميعاً هو الحب، فطفقوا ينشدون الشعر في المرأة، واتخذوها رمزاً للفضيلة، وجعلوا يتغنون بمحاسنها.

والشاعرة كما نلحظ في أبياتها السابقة تعتمد منهجاً شعرياً رائقاً في إثبات عقيدتها في الحب، ذلك المنهج الذي يعتمد على المحاورة، والجدال الذي يستدعي سؤالاً وجواباً، وهو طرح شعري راقٍ، يفضي في النهاية إلى إثبات منطقها، ويكشف عن وجاهة قضيتها. إنه طرح هو الآخر يذكرنا بأسلوب الزمخشري البلاغي في كشافه المفسر للقرآن.

لقد سجل موروثنا الشعري القديم معاناة الرجل الوجدانية، ورصد خواطره الشعورية، وقضايا حبه، وصور في القصيد ما كان يكابده من تباريح الهوى، وآلام الغرام، كما أصل لمعاناة الرجل عموماً مع الحياة، لكنه خلا من الحديث عن معاناة المرأة خصوصاً، وأعرض عن وصف ما يعتلج ذاتها من مشاعر وأحاسيس، كأنما يصمّ أذنه عامداً متعمداً، اللهم إلا إشارات طفيفة، تناثرت في كتب التراث عن شاعرات عربيات قليلات...!

لقد كانت المرأة العربية حبيسة أعراف القبيلة وتقاليدها، ضحية الفكر الذكوري الذي ظل ردحاً من الزمن مستلباً حقها في التعبير، ناظراً إليها نظرة دونية.

حتى هبت رياح التغيير في عصرنا الحديث تجتاح الحياة، وتبشر بأن وراء الأفق تلوح رحمة الإله حاملة الخير الكثير للمرأة، فإذا الكيان الأنثوي الذي كان موصوماً بالدونية، مغلقاً دونه الأبواب والأقفال، ينطلق في الحياة على بصيرة وهدى، تعانق روحه الحياة، فيستنشق نسمات التعليم، ويشم عبير المعرفة يمضي في الحياة حاملاً قسمته من المسؤولية، إلى جوار الرجل جنباً إلى جنب، وسواءً بسواء.

وفي أرض الجزيرة لم تكن المرأة بمعزل عن تلك التغيرات الكاسحة، لقد انعكس ذلك عليها أيضاً، ولامس على نحو جذري واقع حياتها، فطفقت تباشر حياتها على نحو جديد، تشارك الرجل في قضايا الحياة المصيرية، تنهل مثله من معين العلم والمعرفة، تقاسمه صنع القرار، وتعينه على مكدرات العيش صابرة، مكافحة، قوية وصامدة.

وعلى صعيد الساحة الأدبية صار القلم الأنثوي يكشف عن نفسه، وغدا الأدب النسوي يقف على أرضية صلبة من الجودة والإتقان. وشرع الشعر النسوي يصور أدق

خلجات النفس الأنثوية بما تحمل من رغبة ورهبة، وحب وكراهية، ورضا وغضب، وأمان تداعب الروح، ومعاناة تكتوي بها النفس.

ومن الرائدات في هذا المضمار سلطانة السديري والدكتورة مريم الغامدي.غير أن القارئ لديوانيهما يجد عند الأولى قبسات تنثرها على استحياء في ضبابية لا تخلو من حذر، وعند الثانية – شاعرتنا مريم البغدادي- يلمس انطلاقة وجرأة في سبرها لأغوار نفسيتها، وتصويرها البليغ الدقيق لخلجات هذه النفسية الشاعرة التي تتلاطم على شطآنها أمواج الحب العذري، وتحتدم في أعماقها صراعات الأماني والأحلام حول فارس الأحلام، التي ترتابها الهواجس والظنون حوله، إذ هي مندفعة في شعورها نحوه فيما هو ذلك الرجل الجافي المهاجر، هي تريد الاستحواذ، فيما هو يتأبى ويستعصي:

أواصله في الهوى مخلصا	ويجفو ويهجر بل يصرم
وحين أكلمه في الهوى	يشير إلى كما الأعجم
بكل الوسائل أفهمته	وعلمته وهو لا يفهم[1]

إن النفس العاشقة ليؤرقها ذلك الهجران، ويضنيها ذلك الصدّ، إذ إن الحب لا يرويه إلا الحب، والعشق لا يزدهر وينع إلا إذا تهيأت له تربة الوصال، ونسمات الحنان، وأنوار المودة المتبادلة، وريّ الرحمة المتواصلة، فإذا أقفرت التربة، وشح الحنان، وانطفأت المودة، وعزت الرحمة، ذبلت أوارق الحب، وخبا بريق العشق، وضاقت النفس العاشقة ذرعاً. ففي قصيدتها "رحيل" أنشأت تقول:

فأزهق بعدكم صبري	وبُدِّد في النوى جلدي
فشوق كاد يفنيني	وشوق زاد في كمدي[2]

(1) عواطف إنسانية - ص22

(2) المرجع السابق - ص26

وفي لحظات الإحساس المرير بذلك التجاهل، والتأبي، تتخذ النفس العاشقة قراراً بالانفصال، والكف عن ذلك الحب الذي لا يجلب لها إلا الألم، والعذاب، غير أنها سرعان ما تعود بدافع ذلك الحب الكبير الذي تولد في نفسها واستقر، حتى لا فكاك منه، أنها تصور ذلك المعنى في خطرات شعورية مثل الموجات الهادئة أحياناً، والهادرة أحياناً أخرى، وقد أنشدت تقول في قصيدتها "الحب اللعوب":

كلما شئت انفصالا	هزني شوقي وقالا
كيف تحيا دون قلب	مُتُّ حباً وانشغالا[1]

وتأتي الثورة النسائية الكبرى حين يتناهى إلى أسماع المرأة العاشقة خبر زواج الحبيب بامرأة سواها. إنه الزلزال الذي يعصف بكيانها، واللطمة التي تبطش بكرامتها. تقول في قصيدتها "بعتني من أجلها":

قد بعتني يا سيدي قد بعتني	وأهنتني من أجلها ونسيتني[1]

وتواصل الشتائم لهذه الضيفة الجديدة:

من أجل ماكرة كذوب لمتني	من أجل سيئة الفعال وصمتني[2]

إنها مرحلة الحرب الكلامية التي تولد قرار الانفصال والتحول إلى مرحلة جديدة مثقلة بهموم الحياة، وتبعات ذلك الانفصام، وآثار ذلك الطلاق، إنها حلقة جديدة من المعاناة ولكن هذه المرة بطعم آخر، لقد أضحت المحبة العاشقة وحيدة تكابد مشاق الحياة، ونظرة المجتمع المتخلفة للمرأة المطلقة. وفي قصيدتها "التلاعب بالحقوق" أنشأت تقول:

(1) عواطف إنسانية – ص27

(2) المرجع السابق – ص49

وحرّقـــت الأمـــاني في فـــؤادي	وشـــطت ثـــم قـــررت اغتيـــالي
حَبـــتني نـــارَ يـــأسٍ في عيـــوني	وأعمـــتني ولم تـــرأف بحـــالي
ظـــلام دامـــس حـــولي ترامـــي	فلـــم أسـعد بـشمس أو هلالـــي[1]

هذه معاناة المرأة الوحيدة المطلقة، فكيف بها وقـد حملـت أثقـالاً علـى أثقالهـا، أشـد وطأة على النفس من طلاقها، لقـد أضـحت كيانـاً متهالكـاً يـسكنه العـذاب، بعـد أن أسـفر الطلاق عن ابتعادها عن أولادها قهراً، إن داعـي الأمومـة في المـرأة ليجعـل هجـران الأولاد أشد نكاية، وأشد عذاباً وألما. أخرى أشد مضضا كانفصال الأولاد، وهجـرهم، فهـي معانـاة الأمومة وهجران الأولاد، تلـك نتـائج الخلافـات لزوجيـة، وقـد رسمـت لوحاتهـا المظلمـة الشاعرة مريم بكل إبداع واقتدار.

وفي قصيدة لها أخرى تتناول فيها مشاعر المرأة الأم تجاه طفلها، وهـي مـشاعر حـب فياض تصدر فيها الأم عن فطرة، وبـدافع غريـزي، إنهـا الأمومـة في أنبـل صـورها، لا تـألو جهداً في إسعاد وليدها، تغمره بالمحبة الخالصة التي لا تنتظر مقابلاً، وترى فيه أجمل الكائنـات. وفي قصيدتها "قلب أم" تقول:

أنـــا أدري أنـــك عـــادي	لا حـــسن يزيـــد عـــن الوصـــف
لكنـــك في عـــيني بـــدر	ومـــلاك يـــسحر لـــي طـــرفي
ربمـــا يعجـــب مـــن هـــذا	بعـــضٌ يتهـــامس مـــن خلفـــي[2]

وربما لاحت على الشفاه منا حينئـذٍ شـبح ابتـسامة، فـذلك المعنـى الـشعري النبيـل سرعان ما يسوق إلى الخاطر مثلاً عربياً شهيراً من التراث الـشعبي يقـول: "القـرد في عـين أمـه غزال"..! ولكن الأم في قصيدة الشاعرة تعلل ذلك الحب، بكونها أم، وذلك يكفي..!

---

(1) المرجع السابق ص101

(2) عواطف إنسانية – ص89

يتعجب من وصفي طفلا بالحسن فقيرا للحسن
لكني أمٌ يا هذا وفؤادي يدرك ما أعني[1]

وهل يمكن للحب الأمومي أن يُبرر، أو أن يعلل؟!، إنه غريزة في النفس لا تحتاج إلى برهنة أو سفسطة كيما تُؤول، أو تُفسر.

والحب ضرير وأصم ينساق لقلبي لا عقلي
فإذا أبصرت محاسنه لا ذنب بأن أعشق طفلي
هو كل حياتي، أحلامي ولذلك كُفَّ عن العذل[2]

لقد وظفت الشاعرة عاطفة الأمومة توظيفا تجريديا، لتعلو فوق وظيفة الحواس، لأنها عاطفة غريزية تستحوذ على كيان الأم تجاه وليدها الذي يمثل لها الحلم والأمل، بل الترجمان الحقيقي الفعلي لوجودها في الحياة.

والأطفال منحة الخالق للأبوين، وأعظم هدية للوالدين، لا تستقيم الحياة للأسرة إلا بهما، ولا تتحقق السعادة إلا بوجودهما. انظر إلى الشاعرة وهي تناجي وليدها عدنان قائلة في قصيدتها "ولدي عدنان":

عدنان أنت هدية الأقدار كالنسمة الزهراء للأزهار
نظرات عينك يا حبيبي سحرها في القلب يملكني فكيف أداري
بدلت حزني يا حبيب هناءةً أسعدتني بل صرت ضوء نهاري
تمشي ببيتي بهجة مزدانة بالحب بالترحيب بالأشعارِ[3]

---

(1) المرجع السابق – ص8
(2) المرجع السابق – ص89
(3) عواطف إنسانية – ص89

وحين يقوض الطلاق أركان البيت، ويغدو الأبوان منفصلين، كل يمضي في طريق وحده، تتشكل أبعاد الأزمة ومكمن المأساة في ذلك الافتراق القاسي بين الأم وأبنائها. إنه الفقد الحقيقي، الذي لا عوض عنه، ولا بديل. إنه مأساة المرأة الحقيقية في مجتمعاتنا العربية، الذي يشكل جرحاً غائراً في وجدانها لا يكاد يندمل على مر السنون. تأمل هذه الأبيات الحزينات التي تصف فراق الأم لولدها، إنها صرخات قلب ملتاع، وعبرات وجدان كسير:

لن يأخذوك ولن أسلم مهجتي	مهما سيغروني بكل نضار
أنت النضار وأنت كنز خالد	أنت الجمال وخاطف الأبصار
طفلي حبيبي يا ملاكا طاهرا	عدنان عد حتى يقر قراري
الكل حولي عندهم أولادهم	إلا أنا لم اقضها أوطاري[1]

إنها سنة الشارع الحكيم، أن يلتحق الولد بكفالة أبيه، ولكنها غريزة الأمومة حين يشتد زئيرها في الوجدان، تقول في قصيدتها "عودة ابني":

أخذوك مني يا بُنيّ فأحرقوا	قلبي وروحي مُت من احزاني
والدمع يحرق لي خدودي والأسى	يدمي فؤادي والنوى أضناني
فكأن قلبي يوم رحت لدارهم	قد طار مني تاركا أوطاني
يهفو إليك بعبرة وتنهد	ويقول أبغي رؤية العدنان[2] (3)

لقد احتشدت الألفاظ العربية الدالة على المعاناة والألم والانكسار الوجداني في ثنايا قصيدها وأبياتها، وجنحت الشاعرة في إبداعها الشعري إلى توظيف الصور البلاغية الدالة

---

(1) المرجع السابق – ص88

(2) المرجع السابق – ص90

على الحزن والمكابدة لإبراز عاطفة الأمومة الملتاعة المكلومة بفراق أولادها على إثر طلاق الأبوين.

غير أن التجربة الشعرية عموماً لا تختزل في ذاتية الشاعر وهمومه الخاصة بل إنها لوحات فنان مبدع، يعكس فيها همومه وهموم غيره، ومعاناته ومعاناة غيره، وإبداع الشاعرة من ذلك النوع الذي يوصف بالأدب الإنساني، الذي يعرض للقضايا الإنسانية، لاسيما قضية الخلافات الزوجية، وما ينجم عنها من طلاق، وانفصام. وما قد يسفر عنها من تبعات وخيمة على صعيد الأبوين، وعلى صعيد الأبناء.

من هنا جاءت قصائد الشاعرة كنفثات قلب امرأة تعاني الوحدة والفقد، وتهفو إلى حياة قوامها المودة والسكن مع زوج محب، ومع أبناء يشيعون البهجة في حياتها.

ومن إبداعات الدكتورة مريم البغدادي قصيدة، رسمت لنا فيها إحدى القضايا الاجتماعية الشائكة التي تعاني منها الأسرة العربية، وهي قضية الخدم.

إن القضية في جوهرها قديمة، بل إن الجاحظ رحمه الله أفرد فصلاً كاملاً في كتاباته عن الجواري والخدم والرقيق، ولكنها في عصرنا الحديث تكاد تأخذ ملامح أكثر تعقيداً؛ فقد خرجت المرأة العربية إلى العمل، تخوض غمار الحياة مع الرجل، وتركت فراغاً في بيتها، يعاني منه الصغار، الأمر الذي دفع بالأسر العربية لاسيما القادرة الثرية إلى استقدام خادمات من داخل وخارج الوطن العربي، ليكنّ بديلاً معاوناً ومؤقتاً للأمهات حال خروجهن من البيت للعمل. وهذا الأمر من الخطورة بمكان، لما يشكل من أثر على سلوك الأطفال، وطرق تربيتهم مع التسليم بحقيقة هامة، هي أن الخادمات المستقدمات من بلاد الخارج مجهولات ولسن كلهن يتمتعن بالثقة والأمانة.

تأمل معنا إحدى قصائد الدكتورة مريم البغدادي، التي تثير هذه القضية الشائكة، وتعرض فيها نموذجاً لخادمة من ذلك الصنف الذي لا يؤتمن، وهي القصيدة التي اختارت لها عنوان "خادم حقود":

وخادمـــةٍ لهـــا طبـــع قبـــيح وقلـــب أســـود ســـاءت ضـــميرا
أكِـــنّ لهـــا الحنـــان بكـــل صـــدق وتكـــتم حقـــدها المـــر الحقـــيرا
وتبـــدي لؤمهـــا المحمـــوم دومـــا وتفتعـــل المـــشاكل والـــشرورا[1]

وتحكي معاناة الأطفال من الخدم الحاقدين في قصيدة أخرى عنوانها "تريد الرقص":

وهـــم جـــنس لئـــيم فيـــه غـــدر أرونـــا مـــن تلاعـــبهم شـــؤونا
وتوســـع طفلـــي المـــسكين شـــدا وقرصـــا نازعـــا منـــه الـــسكونا
ويبكـــي ثـــم يـــأتيني يـــريني علامـــات تُعـــرّي لـــي الكنينـــا[2]

إنها قضية الخادمات من خارج الحدود، وهن يمطروننا كل يـوم بقـضية إنـسانية تـثير الزوابع، وتلقي بذرة الفتنة في البيـوت العربيـة، إنهـا قـضية تحتـاج في رأيـي إلى إعـادة نظـر، وتستحق ردة فعل قوية.

---

(1) عواطف إنسانية ص125

(2) المرجع السابق - ص140

الصدق الشعوري في شعر سلطانة السديري
(1428/07/11هـ)

"ولاجرم أن محنة الاغتراب النفسي في الحياة هي أول ما يطالعنا في شعر السديري، وهي محنة تتولد من جراء المفارقة العجيبة بين ما تطمح إليه نفسها الشاعرة، وبين ما يحيط بها من وقائع صادمة في الخارج...!"

من رائدات الشعر السعودي الشاعرة الأديبة الرائدة المبدعة سلطانة عبد العزيز السديري، فقد انبجس إبداعها الشعري مبكراً وهي بعد في سن الثالثة عشرة من عمرها في قصيدة شعرية رائعة بعنوان "سويعات الأصيل"، ولها محاولات شعرية أخرى مبدعة، كما مارست الكتابة الصحفية عام 1960م وكانت تنشر كتاباتها بأسماء مستعارة، ففي جريدة المدينة كانت تذيل كتاباتها باسم (الخنساء)، وفي جريدة عكاظ عام 1966م كانت تبعث بكتاباتها باسم (عهود).

والمتأمل في إبداعها المنشور يدرك أنه أمام شاعرة مثقفة، استوعبت التنظير النقدي، ونهلت من الإبداع المعاصر، ورسخت مواهبها استناداً على التراث.

كما أن المتأمل في شعرها يلمس بوضوح استيعابها الرائع للماضي والحاضر واستشرافها المستقبل، وإبداعها في الشعر العمودي إلى جانب شعر التفعيلة وهي أيضا أبدعت في الشعر الشعبي. وبين يدي ديوانان لها أحدهما بالفصحى "على مشارف القلب" والآخر بالشعبي "الحصان والحواجز".

وكنت قرأت لها لمحات عن حياتها في المجلة العربية فقد استقطبها الأستاذ الصديق حمد القاضي، كما استقطب الشيخان حمد الجاسر وابن عقيل، وهي من أوائل السعوديات

اللاتي صيرت قصرها "منتدى أدبياً ثقافياً". وأغلب الظن عندي أن في جعبتها سهاماً كثيرة لم تطلقها، وأن بأدراجها قصائد حبيسة لم تنشر بعد عساها يوماً تنشر قصائدها القديمة والحديثة فإن تجربتها طويلة وعميقة وحافلة بالإثارة الشعورية.

والشاعرة ابنة أمير منطقة القريات عبد العزيز أحمد السديري، وهو من رجال الملك عبد العزيز رحمهما الله. وأسرتها من الأسر المشهورة في المملكة العربية السعودية، وكثير من أفرادها تسلم إمارات عدة في أنحاء المملكة، كما نبغ في الشعر منهم كثيرون، فوالدها الأمير عبد العزيز كان شاعراً مُجيداً، وعمها عبد الرحمن السديري كان شعره راقياً في فكره وذوقه. والشاعرة السديري أول امرأة سعودية تطبع ديواناً شعرياً في المملكة العربية السعودية، فقد نشرت ديوانها "عبير الصحراء" عام (1376هـ / 1956م) وديوانها الثاني "عيناي فداك" (1380هـ/ 1960م) وديوانها الثالث "سحابة بلا مطر"، والرابع ديوان "قهر" والخامس "على مشارف القلب" عام 1995م والسادس "الحصان والحواجز" ولها مجموعات قصصية "صورة من المجتمع".

ونشأتها في شمال المملكة لاشك لها تأثير عميق عليها وعلى إبداعها الشعري، فتلك الصحاري الممتدة في أنحاء الشمال موحية، وأجواؤها ملهمة بالتجارب الشعورية والشعرية معاً، وعن هذه الفترة البعيدة من عمرها المزهر تتحدث قائلة: " منذ بدأتُ أول مراحل الدراسة تعلقت بالحرف بشكل كبير، قرأت كثيراً، فقد كان لدى والدي يرحمه الله مكتبة كبيرة، وكانت شقيقتي تحضر لي الكتب من أي مكان تذهب إليه. قرأت للمنفلوطي، وإيليا أبي ماضي، وجورجي زيدان، وقرأت الشوقيات، وكنت حينذاك لا أفهم شعر المتنبي، ولكن بعد أن كبرت أحببت شعره كثيراً. قرأت كتاب الأغاني وأنا في مطلع الصبا، تلك القراءات كلها كانت قبل أن أبدأ الكتابة، وقد شكلت مخزوناً ثقافياً. بدأت كتابة أول قصيدة لي "سويعات الأصيل" وأنا في الثالثة عشرة من العمر".

لقد ظهرت بوادر الشخصية الشاعرة عند السديري مبكراً، ولاح نبوغها من أول قصيدة لها، فقد طالعت الشعر العربي صغيرة، وعاصرت الحداثة في الساحة الأدبية، وكانت على كثب من عمها الشاعر محمد السديري، معجبةً بمحاوراته مع كبار الشعراء وقتئذٍ.

والحق إن شعرها لوحات تشكيلية رائعة لصور واقعية من حياة الشاعرة، وكلماتها الشعرية نفثات شعور حائر، يتجاذبه الألم والوحشة والغربة، وأبياتها الشعرية عالمها الخاص الذي تتوحد فيه مع نفسها ومعاناتها. تقول في قصيدتها "الحكاية الخرساء":

لا تبتئس يا قلب.. وارض مُصابك
فرياء هذا الكون كان عذابك
سارت بك الأيام نحو هجيرها
وسرابها البراق كان شرابك
كانت لنا الأيام نبعاً نرتوي
من فيضه والحب يطرق بابك[1]

فقد نحت الشاعرة منحى التركيب التقريري المدعم بأدوات النهي، والنداء والإشارة، والضمائر المتصلة، ومع كونها جملاً خبرية وإنشائيةً فإنها تحمل مع ذلك صوراً حسية، وتجريدية، تثير في نفسياتنا عواصف وجدانية، وتستنفر خيالاتنا لتجوب عالمها، وتعكس مأساة الشاعرة على صفحات ضمائرنا، فنشعر أن المأساة إنما هي مأساتنا، وأننا نعاني مما تعاني منه الشاعرة.

تقول في قصيدتها "آهٍ يا حبي" معبرة عن مأساتها، مناجية ليلها بأشعارها:

أسقيت المرَّ بكفيكَ
لكني.. أشتاق.. إليك
وقصرتُ الأشواق عليك
لبيك حبيبي.... لبيك[2]

---

(1) ديوان على مشارف القلب – ص31
(2) على مشارف القلب – ص17

*****

أسمعني.. فأنا مجنونة

أشتاق غرامك.. وجنونه

وحديثا عذباً.. وفنونه

فأنا... بحديثك مفتونة[1]

*****

بيد أن الآمال العريضة لا تفارق فؤاد الشاعرة، وهي تقرر أن قضيتها الأولى هي الحب، وأنها مسيرة إليه لا مخيرة، فهو ساكن منها الجوانح، باق رغم المعاناة

اسمعك بأعمق أعماقي

والدمع.. يبلل أحداقي

لا قدرة لي.. حبك باقي

وإليك أسير بأشواقي[2]

ورغم إبداعها الشعري الغزير إلا أن أجواء الضبابية والكآبة تخيم على قصائدها الشعرية في مجملها، ومن ثم جنحت موسيقاها الشعرية إلى الشجن، وحلقت صورها الشاعرية في فضاءات الأسى والحزن. استمع إليها وهي تنشد في قصيدتها "يوم عيدي" إذ تقول:

كيف تلقي بي على درب الأسى والشوك وحدي

في شموخٍ وتحدي؟

---

(1) المرجع السابق – ص18

(2) المرجع السابق ص19

كيف يرضيك طوال الليل سهدي؟
كيف أذللت دموعي؟
كيف يستهويك صدي؟
أنا يا قلبي في صحراء تبدو كالسراب
كل ما حولي تراب في تراب
أفلا يكفيك مني اليوم.. وجد واغتراب؟
وسطور من عذاب؟[1]

إن أهم ما يتسم به شعر سلطانة السديري هو ذلك الصدق الشعوري، وتلك التجربة الشعرية المرهفة، وهي لا تجد عناءً في وصف خلجات نفسها الداخلية وشعرها إنما هو ردة فعلها حيال ما تمر به من أحداث، وما تتعامل معه من شخوص. وشعرها سجل صادق لمراحل حياتها المختلفة، ما بين أمنيات الصبا البريء، والحيرة إزاء الواقع الصادم لخيالها المثالي، والمعاناة من تفلت الوصل، وتفكك عراه، مروراً بلوحاتها الشعرية في وصف الأمومة وعوالمها الشعرية الأخرى. تقول عن الأحلام المبكرة في قصيدتها "تمنيت نجماً":

تمنيت نجماً.. يضيء زوايا فؤادي
ووجهاً.. يدور عليه اعتيادي
تمنيت لو كان لي من يحس أنيني
وعزف فؤادي ونبض حنيني
فأجعل زهري وساداً عليه يبيت
******
تمنيت روحاً أليفاً، وقلباً نقياً
فأعطيه قلبي...

(1) على مشارف القلب – ص23

خميلاً من الورد.. والفل.. والزنبق[1]

إنها دائمة البحث عن معنى جميل، أو مدينة فاضلة، أو حبيب مخلص، وهي في ذلك تنحو منحى المذهب الرومانسي عند شعراء العربية الذين ينبذون الواقع، وينشدون عالماً أكثر براءة وصفاء، عالماً يستحيل فيه المحبوب إلى ملاك طاهر، وقلب حنون..!

ولكن مرارة الانتظار الطويل، وألم الشعور بالوحشة والفقد، يتبلوران في تجربتها الشعرية حين تقول في قصيدة "يا فيلسوفي":

فيلسوفي...
إن قلبي يعبر الآفاق في شوق إليك
يتمنى يتغنى خافقا.. بين يديك
خوفاً عليك
انتظاري طال
طال الصبر
يا لهفي عليك[2]

إن مما يؤكد طغيان الكآبة والشجن على جل قصائدها ما أوردته في إهدائها بديوان (مشارف القلب) حيث تقول: "ستظل أبداً أيها البعيد البعيد، القريب الداني، على مشارف القلب مطلاً، نجماً يضيء وحدتي في الليالي الطويلة، ويشرق بالنور على أيامي، ستظل ذلك النصف المفقود الذي وجدته ولم أجده، تسرب من يدي ولم يتسرب من قلبي، فبقي في أعماق القلب حزن الرضا والسكينة، مبعث الإلهام، بصبغة ألوانه ألون أحرفي، ابتسم وأبكي، أفرح وأحزن، وأعتصم بذلك الحزن الرضي، الذي يدفعني للاستمرار، وللعطاء الخير الجميل".

---

(1) المرجع السابق - ص13

(2) على مشارف القلب – ص26

فشعرها إذن سجل صادق لحياتها، يعبر عن أفراحها وأتراحها، وينحاز في مضامينه الشعرية للجانب النسوي الوجداني، غير أنه فيما أرى يمثل أيضاً وجدان الرجل، ذي الشعور المرهف، الذي تهفو نفسه إلى عالم مثالي هو الآخر.

إن قضاياها الشعرية في جوهرها إنسانية المقاصد، يلتقي في النظرة إليها وجها الحياة: الرجل والمرأة معاً.

ولا جرم أن محنة الاغتراب النفسي في الحياة هي أول ما يطالعنا في شعر السديري. وهي محنة تتولد من جراء المفارقة العجيبة بين ما تطمح إليه نفسها الشاعرة، وبين ما يحيط بها من وقائع صادمة في الخارج. على أن الغربة النفسية لدى الشاعر عموماً يتحكم فيها عاملان رئيسان: أحدهما ذلك الاستمراء الخفي المبهم للشعور بالألم والأسى، والاستسلام لا شعورياً للحزن، بل والتلذذ به أحياناً، وتلك سمة واضحة لدى شعراء المذهب الرومانسي، والآخر هو ذلك التفاوت البعيد بين ما يفترضه الشاعر في خيالاته المثالية وعوالمه الفاضلة وبين واقعه المناقض فكرياً، وسلوكياً.

وغربة شاعرتنا الأميرة سلطانة السديري تتولد من تأثرها بالمدرسة الرومانسية في الشعر، وتنبع من تجاربها الذاتية مع الحياة والناس، ومعاناتها في أجواء واقعية معاصرة. ينساب في شعرها نسيم الشوق، وآهات الوجد، وأنات الحنين، واستغاثات العواطف الساخنة الحارة، وتسري في القصيد شحنات عواطفها، وأحاسيسها الباحثة عن الحب الصادق الطاهر.

وتجربتها رغم مرارة الفراق، وألم الصبابة، وحرارة الاشتياق لا تحمل إلى الحب، ولا تظهر إلا الرضا، وتنأى بنفسها عن الضغائن والأحقاد ولا تنشر بذور الفتنة والتمرد، وتشجب الانتقام، وتتسم بالصفاء والنقاء، والطهارة. وقد عبرت عن تلك المعاني في قصيدتها "خسرتك يا صاحبي":

خسرتك يا صاحبي
وليس لدى القلب حيلة

فبعدك.. قد أصبحت بسمتي مستحيلة

وفرحة قلبي رُدَّتْ إلىّ ذليلة

*****

لقد عشت عمري وحيداً.. غريب

فهيا بنا يا فؤادي نحو المغيب[1]

---

[1] على مشارف القلب – ص11

القصيدة الحديثة

" ولاشك أن دعاة الحداثة الشعرية الأوائل، الذين رفعوا راية التجديد وبشروا به، هم أنفسهم الذين استنهضوا هممهم للدفاع بضراوة عن الشعر العربي ضد ما اعتراه من مظاهر تجديد أقرب ما تكون إلى الفوضى

التجديد في الشعر وفي بناء القصيدة العربية عرف منذ الجاهلية، واستمر إلى عصرنا الحالي، وكان في كل مرة يدخل ذلك التجديد في سجال مع التيار المحافظ، الذي أحاط القوالب العربية المورثة للشعر بهالة من التقديس، غير أنه من الإنصاف أن نقول: إن التيار المحافظ فشل في كبح جماح الحداثة الشعرية، لأن تاريخ الشعر العربي نفسه يشهد محاولات عديدة للانفلات من قيود القصيدة التقليدية.

لقد بدأت إرهاصات تلك الحداثة في الشعر العربي في الظهور جلية واضحة إبان العصر العباسي الذي شهد تطوراً جذرياً في البيئة العربية، وأضحى الانفتاح الاجتماعي والثقافي أهم ما يتسم به ذلك العصر، وكان أبو نواس من رواد التجديد في الشعر العربي، وبرغم ما واجه من اتهامات من نقاد عصره، إلا أن نزعة التجديد في الشعر سرعان ما لاقت هوى عند كثير من الشعراء غيره، كأبي تمام الشاعر العباسي الذي أدخل في شعره موضوعات لم تكن مألوفة من قبل.

غير أن الشاعر العربي بشار بن برد يعتبره كثير من النقاد رائد الحداثة الأول في القصيدة العربية، وقائد مدرسة التجديد.

هذا وقد شرعت القصيدة العربية تستقبل شرايينها وأوردتها دماء التجديد والحداثة حتى ظهرت الموشحات الأندلسية، وكانت مظهراً حداثياً في الشعر لم يُسبق، إذ اعتمدت في نظمها أوزاناً خاصة.

وشاءت المقادير ألا تقف رياح التجديد في الشعر العربي عند هذا الحد، إنما سرت قوية وعاتية، تحمل نسماتها الجديدة إلى عصرنا الحديث، وتطرق الأبواب في جرأة واكتساح. وما لبثت أن تلاقت مع ثلة من الشعراء المبدعين الذين كان يؤرقهم حلم التجديد في الشعر، والبحث عن قوالب شعرية جديدة تتناسب مع طبيعة عصرهم. من هنا برزت ملامح التجديد على يد مدرسة الإحياء والبعث بقيادة محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وأبي القاسم الشابي، ومع ظهور الرابطة القلمية في أمريكا الشمالية عام 1920م، والعصبة الأندلسية في أمريكا الجنوبية عام 1930م، كانت سفينة التجديد قد حلت قلاعها، واستكانت إلى مرفئها الآمن بعد طول السفر، وعناء الطريق..!

ثم ما لبثت أن ظهرت مدرسة المهجر، يقودها روادها الأوائل: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، وكان من آثارها شيوع الرومانسية والرمزية، وتمجيد الألم، والتوحد مع الطبيعة، وإلى ذلك يشير غازي بركس قائلاً: "وقد تجلت في نتاج شعراء المهجر بواكير الرومانسية والرمزية، فعرفت الذات، والعاطفة الجياشة، ومسحة الكآبة والتشاؤم، وتمجيد الألم والهرب من الناس، والاتحاد بالطبيعة".

وقد برع شعراء المهجر في كتابة القصص الشعرية، وجددوا في الألفاظ والموضوعات، ولم يلتزموا بوحدة البيت المفرد.

ولا ننسى مدرسة الديوان بريادة العقاد والمازني وعبد الرحمن شكري، التي أعلنت ثورتها هي الأخرى على القصيدة التقليدية، إذ نادت بضرورة التركيز على التعبير عن مكنونات النفس البشرية، والانفلات من قيود القصيدة الكلاسيكية مع الإبقاء على وحدة الموضوع، أو ما يسمى بالوحدة العضوية.

أما في عام 1932م، فقد ظهرت بوادر حداثة شعرية مع تأسيس حركة أبوللو بزعامة أحمد زكي أبي شادي، وكان من أعضائها خليل مطران، وقد كانت أهم ثمرات التجديد عند رواد تلك الحركة ظهور ما أسماه النقاد بالشعر المرسل، والشعر المنثور، فقد تحرروا من القافية الواحدة، ونوعوا في شعرهم في الأوزان والبحور.

غير أن شعر التفعيلة، أو ما أسماه نقاد العصر بالشعر الحرّ، فلم تظهر بوادره إلا عند نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب.

وعن ذلك النوع الجديد من الشعر أشارت نازك الملائكة بقولها: "إن دعوتي للشعر الحر ليست دعوة لنبذ الشطرين نبذاً تاماً، ولا هي تهدف إلى أن تقضي على أوزان الخليل، وتحل محلها، وإنما كل ما ترمي إليه هو أن تبدع أسلوباً جديداً توقفه إلى جوار الأسلوب القديم، وتستعين به على بعض موضوعات العصر المعقدة".

وفي أعقاب الثورة الشعرية التي قادتها (مجلة شعر) ضد قوافي الخليل بن أحمد الفراهيدي، والدعوة إلى مقاطعتها كلية، ظهر ما اصطلح عليه نقاد العصر بقصيدة النثر، وهي شكل حداثي شعري غير مألوف، الأمر الذي دفع بكثير من الشعراء المحافظين، وحتى من حمل راية التجديد في الشعر أن يكيلوا لأصحاب قصيدة النثر أبشع التهم، وأقذع الانتقادات، لما رأوا فيها من محاولة واضحة للقضاء على الإرث الشعري العربي كلية، والخروج على الذوق العام.

وعموماً فقد شهدت القصيدة العربية خلال مراحل تطورها في العصر الحديث موجات من الفوضى، ودعوات إلى التحلل الكامل من القوالب الشعرية الكلاسيكية، واستنهاض الشعراء لشق عصا الطاعة على قوافي الخليل. بل إن الأمر تجاوز حتى تصورات الحداثة عند روادها الأوائل، ويمكننا إجمال تلك التجاوزات في النقاط التالية:

1- إن الشعر عموماً نابع من الوجدان، ومصور قدير لخلجات النفس البشرية، ومعبر أصدق تعبير عما يعتمل في النفس من شعور، والشعور متغير بتأثير الزمان والمكان، والتيارات الخارجية، والاهتزازات الجوانية. بل تجاوز ذلك بعض المنظرين وأعلن أن القصيدة وليدة اللاشعور، واللاوعي، وقد تعلل المحدثين في الشعر بأن الأهم في الشعر هو وصف الشعور، والتعبير عن مكنونات الذات بغض النظر عن الشكل الذي ينبغي على الشاعر اقتفاءه في نظم القصيدة، وعليه فقد أصبح الشعر المنثور مثلاً مطية سهلة لكل أدعياء الشعر كباراً وصغاراً، حتى صار كل إنسان شاعراً بالفطرة..! وامتلأت الصحف بالغث والسمين مما يدعيه البعض شعراً.

2- استعمل الشعر الحديث شكلاً جديداً يتجلى في استعمال الرموز، والأساطير والصور البيانية الموغلة في الإبهام والغموض، وأحياناً المتنافية مع العقل والمنطق، وقد تناقضت الصورة الشعرية عند شعراء قصيدة التفعيلة مع الصور البيانية في البلاغة القديمة، بل مع صور الإحيائيين والرومانسيين، الأمر الذي أبعد التجربة الشعرية في القصيدة الحديثة عن ذوق عامة الناس، ومنحهم حق وصم تلك التجارب بالغموض والغرائبية.

3- القصيدة الحديثة في جوهرها تنسف القواعد الكلاسيكية المتعارف عليها من حيث وحدة الوزن والقافية، إذ تجنح قصيدة التفعيلة إلى التنويع في القوافي والبحور داخل القصيدة الواحدة، وإهمال وحدة البيت المستقل، واستبداله بالأسطر والجمل الشعرية. ومن ثم فقد باتت الألفاظ داخل القصيدة ملبسة بالغموض، تأخذ دلالات جديدة، ولكنها تحتاج من المتلقي إعمال الذهن وكدح الفكر للتوصل إلى مقصود الشاعر، أما التراكيب فقد حدث فيها بعض التجاوزات من حيث: الفصل والوصل، والحذف والذكر، والتقديم والتأخير، ثم تجاوز الأمر إلى فوضوية أحياناً، والتعلل في ذلك بأن التركيب إنما هو خاضع للتلوين الشعوري، وأن القصيدة تبث شعاعا فكريا في كلمات متجاورة كل منها يحمل مدلولا تركيبيا أو تصويرا منفردا بذاته. من هنا يمكن القول بأن الاستخدام اللغوي في القصيدة الحديثة بعنصريه اللفظي والتركيبي قد اتشح بوشاح من الغموض يحتاج من القارئ العربي إعمال الفكر والعقل، مما أبعد ذلك النوع من الشعر رغم ملامح التجديد التي سرت في أوصاله عن الجماهير.

4- الموسيقى: عنصر جوهري في الشعر، وهي نوعان: خارجية، تتولد أساساً من الوزن والقافية، حتى لقد قيل: إن الشعر موسيقى ذات أفكار، وداخلية تتولد من تناغم اللغة فيما بينها حروفاً وألفاظاً وعبارات، وهو نغم موسيقي خفي عذب، نستشعره جلياً عند القراءة والاستماع، ويتمثل في المحسنات البديعية كالجناس والطباق، أو عن طريق انسجام الكلمات وحسن ترابطها. غير أن المتأمل في شعر التفعيلة مثلاً يجد أن

الموسيقى الخارجية ليست لها وجود، إذ لا وجود للوزن والقافية أصلاً، وقد أضحت الجملة الموسيقية أو المقطع أو السطر بديلاً عن الأبيات.

ولاشك أن دعاة الحداثة الشعرية الأوائل، الذين رفعوا راية التجديد، وبشروا به، وناصروه، هم أنفسهم الذين استنهضوا هممهم للدفاع بضراوة عن الشعر العربي ضد ما اعتراه من مظاهر تجديد أقرب إلى الفوضى، وأشد خروجاً عن الذوق العام، وأبعد ما يكون عن تنظيراتهم وأطروحاتهم المبتكرة التي راودت عقولهم وخواطرهم بشأن التحديث في الشعر..!

فها هو العقاد زعيم مدرسة الديوان الذي دعا إلى الشعر المرسل، ينظر في أسى لما حل في الشعر العربي من ركاكة وفوضى، ويعلن رفضه القاطع لتلك الموجات الحديثة في التي داهمت القصيدة العربية.

ثم تأتي نازك الملائكة التي تُعد من أوائل من دعا إلى الشعر الحر ومارسه في قصيده ونظمه، تعلن على الملأ استيائها مما ترى، ورفضها لما وصل إليه الشعر في بلاد العرب، فقد رفضت إطلاق القوافي دون نسق خاص، كما رفضت تماماً ما يسمى بقصيدة النثر، واعتبرتها بدعة شعرية ظهرت في لبنان، قائلة: 'إنه نثر طبيعي كالنثر، على الرغم من أن كاتبه ينشره مفرقاً على أسطر كما لو أنه كان شعراً حراً'.

وقادت حملة ضارية ضد مجلة شعر التي تبنت هذا النوع الجديد من الكتابة الشعرية التي تفتقر إلى كل مقومات الشعرية، وذلك الشكل الحديث الذي يدعو إلى التدمير وتحطيم اللغة ونقض الثوابت، وتجاوز الأوزان الشعرية وتفعيلاتها، وتحطيم الأشكال الفنية القديمة، ليتمخض ذلك كله عن وليد مشوه، وجنين ساقط ميت..!، وما أصدق قول زهير بن أبي سلمى:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

ثم هي تقول: "وإنما سمينا شعرنا الجديد بالشعر الحر لأننا نقصد كل كلمة في هذا الاصطلاح، فهو شعر لأنه موزون يخضع لعروض الخليل ويجري على ثمانية من أوزانه، وهو حرّ لأنه ينوع عدد تفعيلات الحشو في الشطر، خالصاً من قيود العدد الثابت في شطر الخليل".

والشاعر محمود درويش يعلن هو الآخر رفضه لهذا الشعر في مجلة ((الكرمل)) عام 1982م تحت عنوان ((أنقذونا من هذا الشعر))، حيث يقول: "إن ما نقرؤه منذ سنين بتدفقه الكمي المتهور ليس شعرا، ليس شعرا إلى حد يجعل واحدا مثلي، متورطا في الشعر، منذ ربع قرن مضطرا لإعلان ضيقه بالشعر، وأكثر من ذلك يمقته، ويزدريه".

ثم يستطرد مواصلاً استيائه من الحركة الشعرية المعاصرة التي وطأتها ركاكة الفوضى، وعبثية ذلك الزخم المتواصل من الكتابة التي يسميها الأدعياء شعراً، وواصفاً ذلك العبث بقوله هو: "كل كلام غامض، مشوش، ركيك، نثري، عدمي، قادر على تغطية تطفله على الشعر، في هذه الفوضى العامة".

ثم يستطرد قائلاً: "ولكن مسألة الشعر قد انحطت إلى مستوى الأدوات الأولية، والبديهيات اللغوية، كأن يعرف الشاعر، العامل في حقل اللغة، أبسط قواعد لغته، أفلا نرجوه، ولا نتوسل إليه، بأن يبقي الفاعل مرفوعا إذا أمكن، وأن يحرص بقليل من الجهد، على وضع الهمزة على الكرسي أو الألف أو الياء بدلا من وضعها الشارع".

وملخص القول: إن القصيدة العربية عبر تاريخها المتواصل شهدت موجات من الحداثة والتطوير، بدءاً من العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحالي، وقد لاقت الحداثة الشعرية التربة الخصبة في خلد شعراء العرب على مر العصور، وكانت بمثابة الحلم الذي راود خيالهم حقباً من الزمن، ولاشك أن بها بعض الوجاهة والجمال، من حيث كونها تخلق أجواءً شعرية تُمكن الشعراء من التعبير عن قضايا عصرهم وهمومه، ولكنها لاقت استهجاناً من التيار المحافظ، الذي نظر إليها نظرة تتسم بالريبة والتوجس، لما تحمل في طياتها من التمرد على الإرث العربي القديم، والخروج على بحور الخليل، والاستغراق في الإبهام والغموض.

وأياً ما يكن فإن التجديد نزعة تهفو إليها النفس، ولكنه يجب أن يكون تجديداً خلاقاً يمد جسور الصلة بين القديم والحديث، لا يحابي المعاصرة على حساب الأصالة، إذ إن المنسلخ عن جذوره وأصوله لا يعدو أن يكون كياناً مشوهاً لا أصل له، ولا هوية.

الأيديولوجية الشعرية عند باشراحيل

"وتعظم الحيرة في وجدان الشاعر، وتغشى مسحة الكآبة على أبياته ، ويزداد الشاعر توحداً مع الطبيعة، وتنسل ألفاظ (الجدب، والظمأ، والغربة) من قاموسه الرومانسي في حيرة مفعمة بالضجر....... !"

ولد في مكة المكرمة عام 1370 هـ وهو رجل أعمال وأصدر جائزة باسمة في مصر وله عدد من الدواوين الشعرية.

المتبصر في شعر الدكتور عبد الله باشرا حيل تتراءى له أيديولوجيات متوازية ذات تأثير عميق في إنتاجه الشعري، فقد تعانقت في شعره أصالة التراث العربي، ورح المعاصرة بقضاياها ورؤاها ومشكلاتها المستمدة من الواقع المعاصر سواء ما تتعلق بالتحولات الاجتماعية أو السياسية التي تمر بها الشعوب العربية، فهو لم يدر في فلك الشعراء القدامى في موضوعاتهم الشعرية، وأغراضهم التقليدية، بل كانت له لغته الشعرية التي حافظت على النهج الكلاسيكي للقصيدة من ناحية، ووظفت حروفها ودلالاتها في التعبير عن قضايا العصر وهمومه من ناحية أخرى.

إن نظرته إلى الحداثة الشعرية نظرة تتسم بالتحفظ الشديد، فهي ليست هلوسة، ولا هذيان يسري على الألسن لا ضابط له ولا وازع، وفي هذا الصدد يقول: "الحداثة إذا جاءت بمفهوم التجديد البعيد عن تحطيم مفردات اللغة والمعاني، وإذا عبرت عن هواجس الأمة أو الهواجس والأحلام الذاتية في إطار التجديد، فإنني أعتبرها ظاهرة مهمة في استنطاق الحروف واللغة وإشعال معانيها بالنبض الذهني في العقول، التي تكاد تطبق عليها مسحة من الجمود، والحداثة في الشعر تعني الانفلات من القديم إلى الجديد، كما أنها فكرة آنية تعيش في واقعها ولا تتعداه".

ولاشك أن الدكتور عبد الله باشراحيل ينحو في شعره منحى إنسانياً عالمياً، إذ إن مراثيه الشعرية في قامات وأعلام الأمة العربية والإسلامية، أمثال الشيخ حمد الجاسر، وابن عثيمين، وابن باز، والشاعر حسين سرحان، والكاتب عمر أبي ريشة إنما هو في الحقيقة رثاء لقيمة إنسانية سامية هي قيمة الوفاء، بل إنه لا يكتفي برثاء الشخوص في شعره بل إنه لا ينفك يرثي القيم العليا، والمبادئ السامية، والآمال، والفضائل، لاسيما قيمة (الوفاء)، ومراثيه الشعرية عموماً تستحق التأمل والدراسة، لما شاع فيها من الصدق الفني، والعاطفة المجردة، والحس الوطني.

وفي مطلع قصيدة (كيف لا أتألم) ينعي فيها فضيلة (الوفاء) ويرى أنها قيمة عزت في زماننا كغيرها من القيم الغالية التي زهد الناس فيها، لقد أشار باشراحيل في مقدمته لتلك القصيدة إلى هذا المعنى بقوله: "ابحث معي عن معنى الوفاء، فهو أنبل صديق لي، فإذا وجدته فدلني على مكانه، علّني أداوي آلام الغدر"... يقول في قصيدته:

ضاع الوفاء فكيف لا أتألم	أمر مطاع للزمان إذا رمى
والجرح ينزف والجوى لا يرحمُ	إن القضاء موكل ومحتّم

والواقع أن جملة من المؤثرات الدينية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية تضافرت مجتمعة في تكوين التجربة الشعرية عموماً لدى الشاعر، فقصائده الشعرية في جوهرها صدًى للحس الديني المتنامي في شخصية باشراحيل، وقراءاته المستنيرة لواقع الأمة وهمومها وتحدياتها، وعوامل الضعف والوهن التي تنخر في جسدها، وعوامل الاستلاب والإنهاك والغزو الفكري التي تحيق بها

والحق أقول: لقد عاصر الشاعر أحداثاً جساماً، محلية وعالمية، وشهد آثار ذلك على الإنتاج الشعري في بلاد العرب، وما استحدث في الشعر من بدع لم تكن مألوفة للقصيدة العربية القديمة، وشاهد عن كثب اكتساح موجات الحداثة الشعرية على نحو أربك التيار المحافظ، الذي كان يعلي شأو القديم ويمجد التراث، ولكنه رغم ذلك وقف وقفة المبدع

الحكيم، الذي أثبت في شعره أن القصيدة العربية العمودية قادرة على مجابهة التحدي، وأن القوالب الموسيقية الشعرية العربية التي وضعها أجدادنا العرب القدامى قادرة على احتواء كل جديد، والتفاعل معه، بما يتماشى مع روح العصر ومشكلاته. وما من شك في أن المتبحر في شعر باشراحيل يجد صدقاً يسري في عاطفة، وطلاوة تنسل من أسلوب، وعذوبة تتهادى في جرس موسيقي، وتمازجاً واضحاً بين الأصالة والمعاصرة، حتى لقد نهج النهج الرومانسي، واستفاد من مبادئه دونما إخلال بالبنية الأصلية للقصيدة العربية.

فها هو ذا يتوحد مع الطبيعة مخاطباً إحدى مفرداتها في قصيدته المعنونة باسم (سحابة):

أسحابة مري على زمن الرتابة   واستمطري دِيَمَاً على روض وغابة[1]

وتعظم الحيرة في وجدان الشاعر، وتغشى مسحة الكآبة على أبياته، ويزداد الشاعر توحداً مع الطبيعة، وتنسل ألفاظ (الجدب، الظمأ، الغربة) من قاموسه الرومانسي في حيرة مفعمة بالضجر.

ادعوك صادقة وكاذبة المنى   ادعوك من شغف وانتظر الإجابة
في الجدب تلتهب الرؤى ظمأي إلى   وجهٍ يُذيب المَيْنَ في زمن.. الغرابة[2]

إنه مثقل فيما يبدو بالجراح، يبث شكايته في ثنايا القصيدة، يتأسف في ألم دام من قسوة الحياة التي غشيت كل شيء، وأجزلت عطاءها من الخطوب والكروب، حتى تبدلت الموازين، واختلت منظومة القيم، ووجهت سهامها إلى براءته

---

(1) ديوان الحوف - ص49
(2) ديوان الحوف – ص49

والقـــسوة انتهكـــت رداء براءتـــي   والقلب للخلان يشكو ما أصـابه [1]

لكنه ما يلبث ينكفئ على ذاته:

واظــل اقتــبس الــوميض لبــارق   يبــدو فيمطــر مــن رؤاه المــستطابة
وتمــــــــــــر في عمـــــــــــــري ســـــــــــــحابة[2]

إن الشاعر يـضع موسيقاه في خدمـة نـبض قلبـه، في لغـة شـفافة، وإيقـاع مـوزون، وخاطرة شعورية شـديدة الخـصوصية، ليـصف لنـا مـشاعره الذاتيـة في لوحـة معـبرة بريـشة رومانسية.

سـألت مـن الـداعي يُعذبـه الأفـول   وتلعثمت شفتاي أصـمت أم أقـول؟
أخـــشاك هـــادرة وراعـــدة المـــدى   والحقل صَوَّح واستبد بـه المُحـول[3]

وبرغم شيوع مسحة الكآبة في أوصال القصيدة، كواحدة مـن أهـم سمـات المـذهب الرومانسي في الـشعر العربـي، إلا أن شـاعرنا لا يجـاري الرومانـسيين في قناعـاتهم التمرديـة التشاؤمية؛ إن الحس الديني القابع في وجدانه يفضي به إلى الإقرار بأن الحيـاة دار زوال لا دار بقاء، وأن صيرورة الموجودات وإن طالت أعمارها، واستعظمت أناتها إلى زوال وفنـاء، وكـل ذلك يدعم فكرة فلسفية مفادها أن الـصمت أبلـغ وأحـرى، حـين تـشيع الـسخافة، ويحتـدم الجدل، وتصطرع السفسطة.

وصـــمت فانبتــه الأســى وتحجــرت   خفقــاتي الثكلــى يؤرقهــا الــذهول

---

[1] المرجع السابق – ص49
[2] المرجع السابق – ص49
[3] المرجع السابق ص50

الصمت أجدر من حديث مزيف | يخفي لواعجه ويغريه الفضول
سنعيش دهراً والليالي رحلة | الزاد آهات وأنات تطول
والسر في قلبي يعربد طاغياً | متمرداً يجتاح، يهدر، كم يصول
وكظمت إنِّي لا أقول[1]

إن النزعة الرومانتيكية في شعر عبد الله باشراحيل هي نزعة متأصلة فيه، وإن كتب في أغراض أخرى قد تلوح للقارئ غير المتمرس بأسلوب الشاعر في ثوب غير رومانتيكي. وهي رومانتيكية تتجلى في معظم شعره لاسيما الوجداني، وتبرز خصائصها وسماتها واضحة ناصعة، فهو يعانق الطبيعة بمفرداتها، كالطير والنجم، والنهر والليل، ويتحد معها شأنه شأن الرومانسيين، وتكسو أشعاره مسحة الألم النبيل، وتستنطق الذاتية حروف القصيد وعباراتها. يقول في قصيدته "وهج النور":

ما تعرى لديكَ الخصوم | إذ وصار الفراق بنا أطولا
سأرحل في أثر تلك الغيوم | إلى النور في وحدتي أعزلا
لماذا أظل بجرحي الأليم | وفيّاً لمن وده ما حَلا[2]

ومن سمات الرومانسية في شعر باشراحيل جيشان العاطفة وغزارتها، والذاتية المتوهجة التي تكابد الألم والشجن، والاندفاع الشديد المغرق في وصف الشعور الوجداني، رغم ضبابية بعض قصائده التي تنبئ عن معالجة مبهمة مقصودة، وتأثر بالانتقال الفني من مرحلة الرومانسية الذاتية إلى مرحلة الرومانسية الواقعية، التي لا تنفصل عن الواقع الإنساني المعاصر، ويظهر ذلك جلياً في قصيدته "حجر.

---

(1) المرجع السابق ص50

(2) المرجع السابق ص50

غـــير أنـــي واجـــف منهـــزم يتمنـــــى يتلـــــهى يعتـــصر
يـــأمن النـــومَ علـــى علاتـــه عـــذره أن المـــشيئات قـــدر
مـــا احتيـــالي والـــرؤى جاثيـــة بـــين تكـــذيب ووهـــم وســـهر
والثـــواني في خُطـــى العمـــر لظـــى مـــا تناهـــت عنـــد أســـوار الحـــذر
رجعــــــة أم رجفـــــة قـــــاهرة وشـــــعاع في ظـــــلام مـــــستتر
مـــن يـــريني في الـــصحاري نظـــرة حفّهـــا الـــشوق إلى وجـــه الظفـــر
فـــإذا ران علـــى وجهـــي أســـى سمني مـا شـئت حتـى لـو جحـر[1]

والشاعر الرومانتيكي حين تستبد به مشاعر القنوط واليأس يرى الوجود حوله قاتماً، والكون المحيط صفحة من ذاته اليائسة، يسجل فيها خطراته الحزينة، والطبيعة لوحة باهتة شاحبة تعكس ما بداخل وجدانه الحزين، فالرياح التي تحمل الأمطار والبذور زوابع مخيفة، والندى لا يرى فيه معلماً جمالياً، حتى إشراقة الصبح الضحوك، وضياء الشمس الحنون لا يفلحان في قهر ذلك الظلام الرابض في نفسية الشاعر. يقول في قصيدته "ظلال الأمس":

زيـف يطـل مـن الزوابـع يقـترب لاهِ بلُـــبّ الـــصبح يعتـــصر العِنَـــبْ
زيف ومن حسب الندى مطـرا لـه يـشقى ومـن يـستمطر اليـوم الـسُحب
زيـف ومـن وهـج الغبـار إذا دنـا غامـــت وجـــوه بالملاحـــة تنتقـــب
كـذب الـوميض فـلا الظـلام بقهـره يرضى لقرص الشمس أن لا تحتجب[2]

والشاعر في صراع بين رومانسيته وواقع الحياة، بيد أنه مع ذلك لم يكن غارقاً في الرومانسية التي تجعله يعيش في حالة انفصام مع واقعه. لقد كان رومانتيكياً واقعياً، مثقلاً

(1) المرجع السابق ص84
(2) ديوان الخوف ص87

بهموم الأمة الإسلامية يقرأ جيداً معطيات واقع أمته، ويعبر عن ذلك الواقع في مقدرة شعرية مبدعة.

فهو يخاطب خادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله، مادحاً إياه بما يستحق، في قصيدته "ما هان في دنياك دين":

يــا أيهــا الملــك المكــين	والــصادق الوعــد الأمــين
يــا نــبض روح الطيــبين	ومــلاذ شــكوى الحــائرين
يــا ملجــأ الفقــراء والــضعفـ	اء مــن جــرح الــسنين
والكوكــب الــساري المــضيء	علــى ظــلام الــسائرين[1]

ويرسل رسالة إلى حكام العرب في قصيدة عنوانها (لا سامحهم الله) يقول فيها:

مــن عنــف إعــصار الغــضب	قــد جــاء حكــام العــرب
مــن قلــب آلام الــشعوب	أتــوا وترجيــع النــوب
جــاؤوا إلى الــشعب الــذبيح	ســلاحهم عقــل وحــب
الرابــضون الــصابرون	علــى الــشدائد والكُــرب
مهــج تــذوب مــن الأســى	وقــرى يفتتهــا العطــب

ثم يقول:

مــاذا نقــول لأمــة	أمجادهــا مــلء الحقــب؟
مــاذا إذا ســال الــضمير	عــن الإبــاء ولم نجــب؟
مــاذا ســينعتنا الزمــان	إذا الرشــادة لم تثــب؟

---

[1] المرجع السابق ص29

مــاذا وقــد لــصقوا بنــا الإرهــاب   وامتهنـــــــــوا الكـــــــــذب؟

وإلى أدباء ومثقفي أمريكـا أرسـل الـشاعر الكـبير رسـالة شـعرية، اعتبرهـا الـرئيس الفرنسي جاك شيراك، والأمير تشارلز، وغيرهمـا مـن مثقفـي الغـرب نموذجـاً راقيـاً ومثاليـاً لحوار الثقافـات، وقـد ضـمن الـشاعر رسـالته، أو قـصيدته قـضايا أمتـه العربيـة، وضـرورة التقارب، ونبذ الصراع غير المبرر، يقول في رسالته:

إلى أدباء أمريكا
قرأناها رسالتكم
وقلنا ربما يخضرّ جدب الأرض
وتورق بيننا الأيام والأحلام
نمزج في ضياء الفجر
نور الشعر
ونجني من تراب الفكر
بعض التبر
نهاديكم ورود الشرق
وندعوكم لقول الحق
أيا أدباء أمريكا
تناسيتم عذاباً راح يصلينا
تناسيتم أمانينا
وما جئتم ونار القهر
تُضرَم في صحارينا
أمن ألم تذكرتم مآسينا
إذن

ما مر من تاريخنا المجبول بالآلام
يكفيكم ويكفينا
وما كنا أعاديكم
وما كنتم أعادينا
ولكن السياسات الدنيئة
ما تزال تُقوّض الحلم
الذي صغناه
من آلام حاضرنا
ومن أطياف ماضينا
أيا أدباء أمريكا
قرأنا
أن لا تفريق بين الناس كلهم
وآدم ملتقى الإنسان بالإنسان
وكل الخلق للديّان
تنادي الأرض رسطاليس
أفلاطون أو سقراط
أليس الحكمة المثلى
امتشاق الحق مثل السيف
نبذ الظلم
نشر العدل في البلدان؟!

وفي قصائده الغزلية يقدم لنا تجاربه الحسية الرقيقة، في صورة غزل عفيف مجرد من اللهو والعبث، وفي قصيدة رقيقة ناعمة بعنوان "ألم الخريف" يبث حبيبته نجواه الحزينة، ويهامسها بما يعتلج في وجدانه من شعور بريء عفيف:

لن أستطيع وتستطيعي
إخراج حبك من ضلوعي
أمطرتُ قلبك بالندى
وأضأتُ ليلك بالشموع
إن كنتِ أبخستِ المنى
وزهدتِ في حبي فبيعي
بيعي أغاريد الصبا
ودعي الأزاهر للربيع
أنا لست أرضى بالأسى
أو بالمذلة والخضوع
ولتحذري إن الغرور
أضاع قلبك، لا تضيعي

وفي قصيدة للشاعر عنوانها "معذبتي" يقول فيها وقلبه ينفطر أسى ولوعة:

معذبتي ألا يكفيك ظلماً
ودنيانا أليس فيها قرار؟
ملكتِ القلبَ حتى حرتُ فيه
ومالي يا منى قلبي خيار
فأنتِ حبيبتي وإليكِ شجوي
معذبتي لقد طال انتظار
وأعياني على الأيام همّ
وأعياني على الوجد اصطبار
فراقي لم يكن لي فيه ذنب
فللأقدار أحداث تُدار

حياتي كلها شوق ووجد

فلا ليل يريح ولا نهار

وفي قصيدته التي اختار لها اسم "لبنى" يؤكد على تمكن الحب من فؤاده، وإن جارت محبوبته، واختارت النأي والهجران

قولي الذي تبتغي لا تتمنعي

فلقد حملتك حلوتي في أضلعي

إن كنتِ قد شئت الفراق فإنني

باق على عهدي الكريم وموقعي

يا حلوتي إن كان أبعدك النوى

فلأنت في قلبي، وفي روحي معي

لبنى فؤادي في هواك متيم

هلا رحمت صبابتي وتلوعي

كما أنشدنا الدكتور الشاعر عبد الله باشراحيل قصائد عذبة في فن المراثي، أبحر فيها إبحار الرجل النبيل الذي يضرب مثلاً راقياً على الوفاء والإخلاص لذكرى رجال وأعلام تفخر بهم الأمة العربية والإسلامية، ومراثيه في جوهرها جولات أدبية بين القوافي، يغوص فيها إلى الأعماق، عبر خيالاته، وعباراته، ليستخرج ما قد يخفى على القارئ العربي من قيم ومثل عليا تتصل بهذه القمم الكبيرة، والأعلام المعاصرة، التي يفخر بها كل عربي، وكل مسلم.

ومن تلك المراثي الغزيرة رثاؤه المغفور له الشيخ (عمر بن محمد بن سبيل) إمام المسجد الحرام، في قصيدة بعنوان (لله درك يا عمر)، يقول في مطلعها:

لله ما أقسى الخبر

اليوم ودعنا عمر

يا أيها الشيخ الإمام

وأيها القلب النضر

يبكيك من بالبيت طاف

وحج مكة واعتمر

وفي قصيدة (الفراق المر) يقول فيها الشاعر راثياً العلامة الكبير (ابن عثيمين):

يا أيها الشيخ الذي يعتادنا

في كل عيد بالتقى يتبسم

عيد الجنان هناك أعظم فرحة

للمؤمن الصادي لمن هو أعظم

وفي قصيدته (طبتَ وطبت) في رثاء الأديب يحيي المعلمي، يقول:

جئتُ أرثيك والدعاء عزائي

إن رب الأنام للعبد غافر

ما نعيم الحياة غير خيال

ونعيم الجنان أعلى الذخائر

فاغترف من مناهل الرب فضلاً

وهو بالفضل للخلائق جابر

والأديب الشاعر الدكتور (عبد الله محمد صالح باشرحيل) من شعراء المملكة العربية السعودية المعروفين والنابغين، من مواليد مكة المكرمة عام 1370هـ/ 1951م، تلقى تعليمه قبل الجامعي بمكة، ثم نال بكالوريوس العلوم السياسية، فماجستير في الدراسات الدولية 1984م، فدكتوراه في الفلسفة الإنسانية عام 1987م، كما حصل على دبلوم أكاديمية اتحاد الأدباء اليونانيين المصريين بأثينا، وهو رجل أعمال، ومستشار قانوني، أدار العديد من المؤسسات والشركات الإنمائية في المملكة العربية السعودية.

نال العديد من الأوسمة والميدليات التقديرية من بعض النوادي الأدبية بالمملكة، وتم تكريمه في اليونان في حفل كبير.

أنشأ جائزة سنوية لتشجيع وإثراء حركة الإبداع العربي، باسم "جائزة باشراحيل للإبداع الثقافي"، ترجمت بعض أشعاره إلى اللغة الفرنسية واللغة اليونانية.

من أهم أعماله الإبداعية: ديوان (معذبتي) 1978، وديوان (الهوى قدري) 1980، وديوان (النبع الظامئ) 1986، وديوان (الخوف) 1988.

الشعر في القصيم

"وهكذا يتبين للقارئ العربي مكانة القصيم في الحراك الثقافي والأدبي بالمملكة العربية السعودية، ويتضح له كم كانت القصيم أرضاً خصبة، ورحماً ولود..."

تنبجس مظاهر الحركة الثقافية في القصيم في غزارة فكرية، وتألق إبداعي منقطع النظير. فقد بادر أبناءه إلى الالتحاق بموكب الصحافة السعودية إبان نشأتها وتطورها، فتألق حضورهم، وتغلغل أدبهم في مسارب الإبداع الأدبي البارز في المملكة العربية السعودية. وما من شك في أن منطقة القصيم، هذا الجزء الغالي من الوطن السعودي قد أنجبت كوكبة من الشعراء المتفردين، الذين أثروا الحركة الأدبية عموماً والشعرية خصوصاً في ربوع المملكة، وحظيت تجاربهم الإبداعية بكثير من الدراسات النقدية، وقد لمع منهم: محمد الفهد العيسي، إبراهيم العواجي، أحمد الصالح، محمد الشبل، وإبراهيم الدامغ، وعبد العزيز النقيدان، وعبد الله العثيمين، والشاعر البطاح الذي وجدنا له أكثر من قصيدة في صحيفة أم القرى.

ومن مبدعي القصيم الذين ذاع صيتهم، وأثروا المكتبة العربية بفكرهم المستنير الدكتور فهد الهويمل، الذي برع في التأليف النقدي، وكذا الدكتور صالح الوشمي الذي برع في التأليف التاريخي.

بالإضافة إلى العلماء الشرعيين الذين كان لهم أثرهم الرائد وتأثيرهم الفاعل في المنطقة، أمثال: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، العلامة الكبير رحمه الله، الذي كانت له آثار واسعة في الحركة العلمية منذ تأسيس فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كما قاد النهضة الفكرية المعاصرة، لما خلف لنا من مؤلفات زاخرة في فنون العلم والمعرفة، وكذلك العلامة الراسخ في العلم الشيخ الجليل محمد بن عثيمين، الذي لم يزل أستاذاً بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم حتى توفي رحمه الله. وقد ازدهرت الحركة الأدبية في

القصيم بتأسيس نادي القصيم الأدبي، وكان له دوره في تنمية الحركة الأدبية بشتى مساراتها الشعرية والقصصية، والمقالية والنقدية.

إن التاريخ المعاصر ليشهد أن المملكة العربية السعودية دائماً حبلى بالأعلام والأدباء والمفكرين، وأن القصيم تحديداً رحم مبارك ولود، كم جاد على الحياة وأفاض، ورغم الظروف الصعبة التي مرت بها جزيرة العرب قبل توحيد المملكة وافتقار العهد المنصرم إلى أسباب الأمن والتعليم والحياة الكريمة، إلا أن الأرض المباركة، أرض الأجداد والآباء لم تعدم أبداً أن تحمل في رحمها الغرس الطيب المبارك، الذي أهدى الحياة بعد توحيد المملكة رجالات، كانوا شموساً مضيئة في سماوات الكون الرحيب.

كما أن الذاكرة العربية لا يمكن أن تنسى الأديب والمفكر الإسلامي الدكتور حسن بن فهد بن حسن الهويمل، المولود بمدينة بريدة، بمنطقة القصيم عام 1361هـ/ 1942م، الحاصل على شهادة الماجستير في الأدب والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في مصر المحروسة، والحاصل على الدكتوراة في الأدب العربي الحديث من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والذي مارس العمل الصحفي والإذاعي والتليفزيوني، وشارك في عدد من المؤتمرات الأدبية والندوات داخل المملكة وخارجها، وناقش عدداً من الرسائل العلمية، وقدم للقارئ العربي العديد من الدراسات النقدية، والمؤلفات الفكرية. لقد تألق صديقي الدكتور/ حسن فهد الهويمل بصوته الفكري الندي الذي أخذ يجول ببديع الفكر في المنتديات الداخلية والخارجية، وخاض غمار معارك فكرية وأدبية كثيرة. وقد تميز أسلوبه الأدبي وتفرد؛ فجمع القدرة على انتقاء اللفظة، وجمال التركيب، وروعة التصوير، وشمولية المعنى، فكان أسلوباً بيانياً متألقاً.

وأبناء القصيم يعتزون بثباتهم وصمودهم أمام الموجات الفكرية الوثابة المتحررة، وعلى صعيد الحركة الأدبية فقد اتسمت بالتيار المحافظ، شعراً ونثراً وفكرا. وإن لم تعدم الساحة الأدبية في القصيم من محاولاتٍ جنحت في مضامينها أحياناً إلى التجديد والغرائبية؛ إذ إن الأدب عموماً مرآة الشعوب، يرصد تاريخهم، ويدون أحلامهم، ويعبر عن همومهم، من هنا كانت لغة الأدب بعنصريه النثر والشعر في القصيم وغيره من مناطق المملكة معبرة

أصدق تعبير عن واقع المواطن السعودي، وأحلامه، وتطلعاته، إلا أن الإنتاج الأدبي في مجمله لم يحد عن التيار المحافظ، حتى الأطروحات الفكرية والأعمال النقدية في القصيم لم تجنح إلى استخدام اللغة المعقدة المبهمة، ولم تقع فريسة السفسطائية، بل كانت الفكرة واضحة، واللغة الأدبية مفهومة دونما ضبابية أو إبهام.

وآية ذلك أن المبحر في ديوان الشعر القصيمي يعثر على أصدافٍ، ودررٍ من شتى الاتجاهات الإبداعية والوجدانية، كثير منها ما غلب عليه الطابع المحافظ، الذي يسير في فلك القوالب العربية الشعرية الموروثة، مع الالتفات إلى روح العصر وقضاياه المتنوعة، وقليل منها ما اتشح بالغموض غير المتناهي.

ومن شعراء القصيم الذين نبغوا في شعرهم، الشيخ محمد بن عبد الله بن عثيمين أحد شعراء التيار الإحيائي بالمملكة، الذين حاكوا الأقدمين في شعرهم، ولعل قصيدته (العز والمجد في الهندية القضب) دليلاً بارزاً على تلك المحاكاة، حيث يقول في مطلعها:

العز والمجد في الهندية القضب ... لا في الرسائل والتنميق للخطب

تقضي المواضي فيمضي حكمها أمماً ... إن خالج الشك رأي الحاذق الأرب

وليس يبني العلا إلا ندي ووغى ... هما المعارج للأسنى من الرتب

ومشمعل أخو عزم يشيعه ... قلب صروم إذا ما همّ لم يهب

لله طلاب أوتار أعدّ لها ... سيراً حثيثاً بعزم غير مؤتشب

ذاك الإمام الذي كادت عزائمه ... تسمو به فوق هام النسر والقطب

عبد العزيز الذي ذلت لسطوته ... شوس الجبابر من عجم ومن عرب

ومن شعراء الاتجاه الرومانسي – الذي ظهر في الحركة الأدبية السعودية نظراً لحالة القلق التي تنتاب الشباب العربي، والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تدفع إلى الانطواء والحزن، والاستغراق في الشعور بالحزن، وتأمل الذات، علاوة على اطلاع شعراء ذلك

الاتجاه الشعري الحداثي على نماذج الشعر العربي الرومانسي الحديث لاسيما لمدرستي المهجر وأبولو - شاعر القصيم المتميز إبراهيم الدامغ، يقول في إحدى قصائده:

أرى النجوم تواسيني فأخطبـها ودي
كأني أناجي طرفها الراني
وابصر الـليل تخفيني غلائلـه
كأنه في حداد الموت ينعاني
واسمع الورق تبكيني فأطلبها
كفي النواح بصوت واهـــن واني

ومن روائعه الشعرية قصيدة (أماه ليتك تسمعين) التي نظمها بعد احتلال الصهاينة لفلسطين، حيث يقول فيها:

أماه ليتك تسمعين
أماه ليتك تبصرين
أماه والسبع الشداد
جثت عليك بغير لين
أماه والآلام تعصر
قلبك البر اليمين
أماه والأيام تقطف
زهرك الغض الثمين
أماه والمستعمرون
وخادم المستعمرين
عاثوا بأرضك واستلبوا

بالتلصص مجرمين
ورموك بالنقم الجسام
ودنسوا فيك العرين

وكذلك من شعراء القصيم الذين غذوا اللغة الشعرية بأدوات جديدة، ومفردات موحية ثرية كيما تكون أكثر قدرة على التعبير عن قضايا الواقع وملابساته الشاعر الكبير عبد العزيز النقيدان، الذي مال شعره إلى الفصاحة، والتزم النهج التقليدي للقصيدة العربية الكلاسيكية من حيث وحدة الوزن والقافية.

ومن قصائده الرائعة، قصيدة عنوانها (الثقافة تدعوكم)، يقول في مطلعها:

أي غيث أنا لكل فؤاد ... أي ماء تجود فيه الغوادي
عبقرياً يسير متئد الخطو ... كريماً في ومضه الوقاد
أنا في روضة الحياة بريق ... يتنزى في فجره كلُّ زاد
وبنات الأفكار مني معين ... حمل الغيث للفؤاد الصادي
إن حولي من الأطايب نُعمى ... أي كنز أنا وأي عتاد
قد وسعت الحياة وهي نضال ... وتغنيت فوق ظهر الجياد

وفي مسقط رأسه مدينة بريدة بالقصيم تغنى، وأنشد قصيدته المشهورة (بريدة)، حيث قال:

رأيتُ بك الفتوة والشبابا
كأن الشمس تمنحكِ التهابا
فمن شعل النجوم لبستِ ثوباً
ومن حلل الجمال أرى إهابا

ثم يقول:

عروسَ الحسن ما أغمضتِ عيناً
وما أوصدتِ للأقدام بابا
مددتِ يداً لنهضتنا فكانت
يدَ الإخلاص تجتاز الصعابا

أما الشاعر الفذ محمد فهد العيسي فقد تميز بشاعريته الإبداعية، ويُعد من أبرز رموز الرومانسية في الشعر السعودي، إنه شاعر اعتنق الرومانسية منذ سنوات إنتاجه الشعري المبكرة، ويشكل إبداعه الشعري مساراً جديداً في بناء القصيدة العربية؛ إذ سار على دروب المحدثين في الشعر المعاصر، وأنست قريحته إلى قصيدة التفعيلة، وجنحت عبقريته الشاعرية إلى التنويع الموسيقي في قصائده.

لقد كان شعره بإجماع النقاد حافلاً بالتجربة الإنسانية العميقة، ومتسربلاً بالحزن والشجن، ومقنعاً بقناعات من الكآبة، والهروب من الواقع، والانطواء على الذاتية، لقد كان أنموذجاً لذلك الشاعر الوجداني الحائر الذي يبحث عن المجهول، ويقتفي أثر ما وراء العالم الآخر، وتضج نفسه بالتمرد على القيود والحواجز.

قال فيه د. غازي القصيبي: "لو تجسّد الشعر رجلاً لكان رجلاً يشبه العيسى، يشبهه في أناقته، يشبهه في كرمه، يشبهه في طيبته، يشبهه في وداعته، يشبهه في دواوين شعره، إنّه يتنفس شعرًا، ويعيش شعرًا، ويأتيه الشعر من بين يديه ومن خلفه ولا يذهب إليه، مخلص للشعر، لا فجوة بين شخصيته الاجتماعيَّة وحياته الشعرية، فرومانسيته الشعرية تنبع من حياته وليس من خياله، ورقّة شعره وهدوء معجمه تنبع من رقّة مشاعره، إنّه يكتب شعره دون تكلّف أو تصنّع"، ومن قصائده المشهورة قصيدة عنوانها (حرية الفكر)، يقول فيها:

صبرًا أخا الحرف لا تعجل ولا تلمِ
فلن أضيع أنا، أقسمت بالقلم
الشمس تشرق من كفي أشعتُها
إن تُسجن الشمس عن أرضي وعن أُكُمي
سيعلم القوم صمتي في غدٍ ذهبٍ
والصوت من قلمي والحق ملء فمي
أني الأبيّ، سمائي فوق عالمهم
وفوق كل دعيٍّ ناعق قدمي

ومن قصائده التي تعبر عن وجدانه الحائر، وتشي بخلجات قلبه الممزق، وتكشف عن شاعريته الرومانتيكية هذه القصيدة التي يشع منها الحزن، ويلتمع في طياتها الشجن:

حبيبي، أراني عبر الطريق
أسير إلى ما وراء الغيوب
أسير إلى عالم للفناء
وحيداً... تحيط بنفسي الندوب
حطاماً فقد هدّمني هواك
صروحاً تحديت فيها الخطوب
هواك شقاءٌ بدنياً شقاء
أضل طريقي بين الدروب.

هذا وقد لمع من أرض القصيم شعراء كثيرون، منهم الشاعر القدير أحمد صالح الصالح، وقد نحى في أعماله الشعرية منحى وجدانياً وطنياً مازج فيه بين جملة من المؤثرات

الوجدانية المتمثلة في المكان، والوطن، والمرأة، ومن ثم جاء شعره مزيجاً حياً من عبير التراب، وأنس الوطن، ومناجاة المرأة.

ومن شعراء القصيم: صالح بن إبراهيم العوض المولود في الرس (القصيم) عام 1373هـ 1953م وكان له حضور في نادي القصيم الأدبي وفي المحافل الأدبية وله مشاركات في الصحافة والمنتديات وله دواوين شعرية منها نفح القصيم يقول فيها: ص50.

وهكذا يتبين للقارئ مكانة القصيم في الحراك الثقافي والأدبي بالمملكة العربية السعودية، ويتضح له كم كانت القصيم أرضاً خصبة، ورحماً ولوداً، إذ أهدت إلى الحياة العربية في المملكة وخارجها قناديل ضياء حملت أنوار الحداثة البناءة،وأشجاراً باسقاتٍ أزهرت في أرض العرب وروداً وياسمين. لقد أثرى إقليم القصيم المكتبة السعودية بكثير من المؤلفات التاريخية والأدبية والشرعية، وكان للنادي الأدبي في القصيم دوره الرائد في طبع ونشر تلك المؤلفات.

ولقد تناولنا كثيراً من شعراء القصيم المبدعين في كتاباتنا ودراساتنا النقدية، وأفردنا حولهم الأحاديث والأطروحات، محمولة على مطايا السطور، لاسيما في كتابينا: الرمز والرمزية، والمجتمع في الشعر السعودي، إدراكاً منا لذلك الشأو الرفيع الذي بلغته القصيم فكراً مستنيراً، وأدباً ساميا.

التكوين الثقافي في شعر محمد العطوي
(مجلة الأربعاء 1428/08/2هـ)

ومن الملاحظ في شعر العطوي تلك الجمل الشاعرية الجزلة التي تستقي من التراث ألفاظها ومفرداتها، وتتكئ على موروث القدماء من التعابير ذات الدلالات الموحية، والعمق التاريخي العربي....

لا غرو أن يجتذب الفن الأدبي الجماهير، إذ هو المرآة العاكسة همومهم، وأحلامهم وتطلعاتهم، ولا غرابة أيضاً في أن يكون الفن الأدبي ساحة رحيبة تتسع أقطارها للجميع، يدلف إليها إلى جانب الأدباء المبدعين أرباب البيان والبلاغة ثلة من الأكاديميين وذوي المهن العلمية كالأطباء والمهندسين أو غيرهم من العلماء، شريطة الموهبة المتأصلة، والفكر الوثاب، والروح المتقدة بالشعور العالي. ولعل حكم ابن قتيبة في تعليقه على أبيات قالها العالم الشهير الخليل بن أحمد حين قال: "وهذا الشعر بيّن التكليف، رديء الضعفة، وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيء جاء عن إسماح و سهولة.." هو حكم جائر يجافي الصحة والمنطق ومشاهد الحياة.

ألم تر أن النفوس البشرية تلتقي حول واحة الفن الراقي، تنصت إلى تغاريد بلابلها الصداحة، وتستنشق نسمات أريجها الفواح، وتستمتع بفضاءاتها الرحبة، وتتلقى إمداداتها المتواترة من الوحي والإلهام، يستوي في ذلك سواد الناس جميعهم. والإبداع الأدبي عموماً ليس عملاً أكاديمياً صرفاً، لا يمارسه سوى المختصون بدراسة اللغة وآدابها، إنما هو إلهام خاص تتلقفه في الأساس الروح الشاعرية، والموهبة الفطرية، واللبّ الحاذق، والنفس الشفيفة.

من هذا المنطلق فلا غرابة البتة حين نلقى في الساحة الأدبية طبيباً قد برع في الأدب، وذاع صيته، أو مهندساً خبر فنون الشعر، وذللت له مواهبه قوافيه وبحوره وموسيقاه.

لقد برع في ميدان الشعر العربي المهندس الشاعر المصري علي محمود طه شاعر الجندول، وكذلك الشاعر الطبيب أحمد زكي أبو شادي مؤسس مدرسة أبوللو الشعرية التي ضمت شعراء الرومانسية في العصر الحديث، كما شهدت الساحة الأدبية المعاصرة إبداعات إبراهيم ناجي شاعر الأطباء وطبيب الشعراء الذي استطاع أن ينقش اسمه في ذاكرة الوجدان العربي، وعن تلك العلاقة الجدلية بين الطب والأدب أنشد يقول:

والناس تسأل والهواجس جمة ... طب وشعر كيف يتفقان

الشعر مرحمة النفوس وسره ... هبة السماء ومنحة الديان

والطب مرحمة الجسوم ونبعه ... من ذلك الفيض العلي الشان

وها هو ذا على درب هؤلاء انطلق وسار في جزيرة العرب المهندس الشاعر محمد فرج العطوي.

والشاعر محمد فرج العطوي الذي سنقف عند إبداعه وقفة المتأمل المعجب هو من مواليد بادية تبوك عام 1386هـ، تلقى تعليمه الجامعي في الرياض في أروقة الجامعة الأم العريقة، جامعة الملك سعود. وثقف ذاته في ردهات الروضات الثقافية في المنتديات الأدبية،وشارك بقلمة الأدبي في الصحافة الجامعية في سنوات الشباب المزهر. وحين قفل عائداً إلى مسقط رأسه تبوك تواصل مع المنتديات الثقافية بها، والتحق بنادي تبوك الأدبي فكان عضوا فاعلا فيه، إبداعا أدبياً، ونشاطا ثقافيا.

وقد شهدت الساحة الأدبية في بلاد العرب داخل المملكة وخارجها جولاته وصولاته الشعرية المبدعة، وكان حضوره واضحاً وبارزاً في الصحافة الوطنية، وفي علاقاته بشعراء بني وطنه، كما حلقت ربّة شعره في المنتديات العربية والأمسيات الشعرية خارج المملكة، في الإمارت العربية، ومراتع الشام الثقافية، وفي مصر المحروسة في أيامه الأخيرة.

وهو فيما يبدو لنا يقتفي بقصد أو دون قصد أثر شاعر العربية الكبير حسن القرشي المولود في مكة عام 1344هـ، الذي فرض شاعريته بحضوره المنتديات الثقافية العربية في سائر الوطن العربي، وساعدته أسفاره وصداقاته وعلاقاته الاجتماعية على التواصل مع الحركة الأدبية والشعرية العربية. وكان القرشي في طليعة الشعراء المجددين في المملكة، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعمان، وهو من الشعراء المكثرين، فقد أنتج عشرات الدواوين، والمجموعات الشعرية التي أثرت الوجدان العربي.

على أن المتأمل في شعر محمد فرج العطوي يلمس حرصه على القصيدة الكلاسيكية أوزانها وقوافيها، بل كثيراً ما يطالعنا شعره فنلمس ذلك الاجترار الواضح من القاموس الشعري القديم في ألفاظه الجزلة، ومفرداته العربية الفصيحة، وصوره الشعرية التي تتكئ على خلفية تراثية واضحة، لكنه مع ذلك لم ينفصل بشعره عن الهم العربي، والقضايا المعاصرة.

لقد كان شعره كياناً حياً نابضاً، يحمل قلباً كلاسيكي التوجه، لكن الدماء التي تضخ في شغافه كانت مخضبة بألوان الواقع، وقضايا المعاصرة.

ومن أبياته الرائعة المشبوبة بالأسى والحزن تلك التي أنشدها في العراق على خلفية معاناته وشعبه من الجوع والخراب، من جراء حروبه الخليجية ومحاصرته من الغرب، حتى باتت بغداد عاصمة الشرق الإسلامي في زمن المد العبقري للحضارة العربية الإسلامية جثماناً بلا روح، يئن من الألم والجراح:

وبي مثل ما بك فرحة ولوعة	يا ابن العراق وغصة ودموع
أما الدموع فليس ثمة منتأى	عنها وقد هد العراق الجوع

وفي قصيدته (من هموم الأمة) يتواصل بقلب باكٍ، وفؤاد مكلوم مع ذلك الهم العربي، ويبلور رؤية شمولية للجرح النازف في أوصال العالم العربي والإسلامي، إذ يقول:

تاهـت الأفكـار واحتـار القلـم	ظلـم تبـدد لـه خلـف ظلـم
هـذه الـدنيا بهـا ظلـم ربـا	واسـتبيح الحـق فيهـا وهـضم
لا فلـيس الـصمت حـلا ناجعـاً	لقـضايا أمـتي، خـير الأمـم

والشاعر مرآة صادقة لمجتمعه، تتشكل ملامح التجربة الشعرية عنده من تفاعل وجدانه الشفيف مع جملة التأثيرات الخارجية التي يفرزها الواقع سواء أكان وردياً أم مريراً؛ فالساسية الخداعة وألاعيبها القذرة، وسلوكيات بني الإنسان الجائرة، وقيم الحياة المختلة، وذلك الصراع المحتدم بين وجهي الحياة: الشر والخير، كلها تأثيرات خصيبة وموحية، تلج إلى أعماق التجربة الشعرية، فتزيدها سخونة، وتكسبها ثراءً، وتفتح لها النوافذ والأبواب على فضاءات شعرية ثرية ورحيبة.

وشاعرنا محمد فرج العطوي نموذج لذلك الشاعر، ترجمان عصره، وتجربته الشعرية من تلك التجارب التي تعصف بها تأثيرات الواقع وقضاياه. تأمل معنا قصيدته الحزينة التي أنشدها في فلسطين الكرامة والفداء؛ إذ يقف على أطلالها المتناثرة، وبقاياها المتشرذمة، مطلقاً صرخة كسيرة في وجه ذلك الظلم الصهيوني الغاشم، مستخدماً (نا) الضمير المتصل الدال على الجمع، إشارة إلى أن القضية الفلسطينية هي قضية كل عربي، وجرح كل مسلم.

فيـا خمـسين جرحـاً وانكـساراً	متـى تترجلـين لكـي نهابـا
لقـد جربـت فينـا كـل ذل	فطأطأنـا وأسـلمنا الرقابـا

******

خـدعنا بالـسلام الهـش عـشرا	عجافـا نقتفـي فيهـا سـرابا
فزمجـر أهلنـا غـضباً فريـداً	ومـات الـسلم أو قـل عنـه ذابـا

ولاشك أن الإسلام يعيش الآن غريباً، تتكالب عليه هجمات الغرب الحاقد، ومؤامرت الصهيونية الخبيثة، ودعاوى الفكر الثعباني المتواصلة في كل مكان للنيل منه،

والفتك بأبنائه. وما الغزو الفكري، وبذور الفتنة الصهيونية، وحملات الغرب الحاقدة ضد الإسلام وأهله إلا صورة من صور ذلك الاغتراب الذي يعيشه الإسلام، وما اجتياح الكيان الصهيوني لأرض فلسطين، وغرس بذور الفتنة في لبنان والعراق، وقتل الصرب لمسلمي البوسنة والهرسك إلا براهين دامغة، تقطع بأن نظرية المؤامرة قائمة في ذهنية الغرب.

إن القلوب الكسيرة وسط المنون وفي خضم ذلك الشر الأثيم لتضرع إلى الله حائرة وباكية، يقول العطوي في مناجاة شفيفة مع رب الأنام:

يا إلهي نكون أو لا نكون	وجم الكون واحتوانا المنون
يا إلهي تفرق الجمع عنا	فإذا الأرض لجة وسفين
وإذا نحن فوقها نتلوى	فوق موج معاند لا يلين
ولج الظلم كل حي وبيت	وعلت منه صرخة لا تلين
يا إلهي ذوائب الليل شابت	وعلى الأفق كدرة ومزون
ظن بالفوز والسلام علينا	عالم خادع حواشيه جون

إنه الاختزال الشعري والاستشراف الشاعري الذي يختصر المعاناة في لحظة زمنية شفيفة، يهرع فيها المسلم إلى خالقه، ويلقي بهمومه على عتبات أبواب رحماته. بيد أن الأمر يحتاج إلى صحوة إسلامية وفكرية تصيب كل جوانب الحياة في بلاد الإسلام. إن القضية من الأهمية بمكان، لكونها تمس عقيدتنا من ناحية، وتتعلق بتلك الجدلية الكبرى: أن نكون أو لا نكون..!

ليت علماءنا يبنون لنا معالم تربية جديدة تؤهل شبابنا لفكر واضح ومستنير، وتعبد الطريق لثورة فكرية ومنهجية، وتشحذ الهمم وتستنهض العزائم، لبناء فرد مبدع، منجز، قوي، متلاحم مع مجتمع تزدهر فيه قوة الحق التي تحفظ القيم، وتعيد الحق إلى أهله.

ولما كان الوطن عظيماً في خلد كل عربي ومسلم، فلابد أن تكون لغة الشعر حين تستدعي ذلك الوطن العظيم عظيمة هي الأخرى، والشاعر العطوي في ديوانه الأول (بوح

الروح) يقف مفتخراً بوطنه، ويصور مصادر التكوين الذهني لشباب الأمة فيما يتعلق بهويتهم الإسلامية، وانتمائهم للوطن السعودي.

رفرفي يا راية الحق المبين   واخفقي بالعز خضراء الجبين
واحملي دستورنا وامضي به   في رضا الخلاق رب العالمين
عشقنا أنت وغايات المنى   أن تدومي رغم كيد الكائدين

وفي ديوان (على حافة الصمت) يقول في قصيدة رائعة، معرباً عن ذلك الحب الكبير، وذلك الغرام الخالد:

نحبك ما حييتَ وما حيينا
وساماً نحتويه وتحتوينا
ونبضاً خافقاً بين الحنايا
وبين شفاهنا حقاً مبيناً
نقبل وجهك الممهور طهراً
ونخلصك المنى عسراً ولينا

وفي قصيدة له عنوانها (غنيتُ لك) في ديوانه (وطني.. غنيت لك) يقول الشاعر العطوي في رومانسية وطنية، إن جاز لنا أن نسمي ذلك التغزل في الوطن رومانسية وطنية:

وطنَ الرسالة
والطهارة
والسنا... ما أجملكْ
.... وسكنتني

وسكبتَ حسنك

في عروقي

في مدادي

قبل أن أتنفسكْ

أن يستكين هواك بي...

أن أسكنك

وطني...

بما شرفت منك

كرامةً

ومهابةً

غنيتُ لك

والواقع أن المناسبات الوطنية كثيراً ما تثير كوامن الأدباء والمبدعين، فتتجلى إشراقاتهم الإبداعية، وتلتمع إشعاعاتهم الشعرية. وتبوك هذه البلد الحبيب، وهذا الجزء الغالي من الجزيرة العربية، شهدت زيارات متكررة لملوك آل سعود، وأمرائهم، ومن أشهرهم الأمير سلطان بن عبد العزيز ولي العهد ووزير الدفاع والطيران. والشاعر يستقبله كل سنة بقصيدة ترحيبية تتجلى فيها الروح الوطنية، وديوانه (وطني.. غنيت لك) حافل بهذا النوع من القصائد، ومن بينها هذه القصيدة الجميلة التي أسماها (سلطان الأحبة والعدا)، وكانت بمناسبة عودته سالماً إلى المملكة بعد رحلة علاج في مشفاه بجنيف، حيث يقول:

شُفي السخاء وعوفي الإيثارُ

وعلا وجوه العالمين نضارُ

وتضوعت بين النجوم بشارة

علوية همست بها الأقمار

رقّت كأنسام المساء عذوبة
وجرت وفي أعطافها آذار

وقصائد العطوي التي تشتبك مع الواقع، وتنفث فيه ثورته الشعرية كثيرة في إبداعه. إن إشراقاته الشعرية لا تكاد تخبو جذوتها إزاء تلك الأحداث الجسام التي تحدق بالأمة العربية والإسلامية، وثائرته الشعرية لا تقبل أن تقف صامتة أما ما يتعرض له الإسلام وأهله من مكائد ومؤامرات، لقد أنشد يقول ثائراً في قصيدته (مدريد):

يا بنت أندلس مضاعِ ليتك الجرح الوحيد
القدس هاهي والخليل تضاجعان بني يهود تترحمان على صلاح الدين

وفي الأبيات استدعاء للرمز التاريخي المتمثل في (صلاح الدين)، بكل ما يستحضره ذلك الاسم في خلد كل عربي ومسلم من قيم السماحة والرحمة، ناهيك عن النخوة والمروءة، وبذل الغالي والرخيص من أجل نصرة الله ودينه.

أما عن تبوك، بلده الحبيب، وموئله الغالي، فقد تغنى بها في شعره، وأنشد لها بما يؤكد على تلك المكانة الأثيرة من قلبه، وفي ديوانه (وطني غنيت لك) أهداها قصيدته العذبة (تبوك.. والعيد)، وقد جاء في مطلعها:

تفتق الزهر – حسنا- في مغانيها
والعيد أرج -أفراحاً- أماسيها
فمن أقاح بروض مائج عبقٍ
لمجلس ماج – من حسنٍ به – تيها
أتى الربيع وعاد العيد فائتلقت
مدينة أرقت عشقا أهاليها

تبوك والأمن والإيمان حاضرها
موثق في عرى الأمجاد ماضيها
كزهرة من ندى الأسحار مفعمة
جرى النسيم على نسيان من فيها

ثم هو يغرد كالبلبل الصداح في حبها ولعاً ومتيماً، إذ يقول:

يا واحةً من أتاها ليس يبرحها
إلا وقد عُلقت آماله فيها
ينسى بها نازح الأوطان غربته
والنفس تلقى بها أقسى أمانيها
سحائب الجود ذابت في مرابعها
فطاب للضيف أن يغشى مغانيها

ومن الملاحظ في شعر العطوي تلك الجمل الشاعرية الجزلة التي تستقي من التراث ألفاظها ومفرداتها، وتتكئ على موروث القدماء من التعابير ذات الدلالات الموحية، والعمق التاريخي العربي، والتكثيف الفني لديه يحمل الفكرة على جناح العطفة بأسلوب لغوي عربي رصين حتى في تحليقه في فضاءات شعر التفعيلة لا يمكننا أن نسلبه هذه السمة المميزة لقاموسه الشعري.

وقد صرح في إحدى حواراته الصحفية قائلاً: "أؤمن بالموسيقى في الشعر كشرط أساسي، وقبل البدء في القصيدة تحضر موسيقاها عندي، إضافة إلى أن قصيدة النثر لم تجد قبولاً لدى المتذوق العربي، وأرى ان التفعيلة كفيلة باستيعاب تجليات الشاعر؛ لما فيها من تحرر من قيد القافية والروي، واستيعابها للحس الموسيقي الذي يبقى ضافياً على النص جاذبيته".

ولا ننسى أيضاً قصائده التي أوقف تجربته الشعرية فيها على الإشادة بالإنجازات المعاصرة في المملكة عموماً وفي تبوك تحديداً. ومن ذلك قصيدته التي نظمها بمناسبة افتتاح النادي الأدبي بتبوك عام 1415هـ، والتي اختار لها عنوان (صرح المعاني)، إذ يقول في ثناياها:

سلام أيها النادي المفدى
أرق من النسيم على المغاني
لقد رسمتكَ أخيلة اشتياقي
كغانية تنوف عن المغاني
منمنمة الوشاح ببيت شعر
يردده الزمان على المكان
ألا إن البناء بغير أس
وإن طال البقاء به لفان
وجئتُ إليك مزفوفاً بشوقي
إلى لقياك يا عقد الجمان

ويخاطب أمير المنطقة الأمير فهد بن سلطان الذي بذل جهوداً لافتتاح النادي الأدبي قائلاً:

ناديت فاهنأ قد أجبت وحبذا ذاك النداء أتى بهذا النادي

وفي مناسبة تخرج دورة مكافحة الحرائق والإنقاذ الثانية عام 1417هـ بتبوك، أنشد قصيدته (تحية لرجل الدفاع المدني) الذي يقول في مطلعها:

قم حي هذا الضيغم الوثابا
المرتدي عزم الكماة ثيابا
المعتلي هام الحريق بساعة
جذلي تهز الفارس الغلابا
تتراقص النيران تحت جناحه
لولا العزيمة لا تطاق رحابا
يجتاحها حتى تطأطأ هامةً
ويردها حتى تذل رقابا

ويقول عن مسقط رأسه (جبل اللوز) الذي يكن له العشق الصادق، ويحمل له في خاطره الذكريات الجميلة، تلك الذكريات التي تتعانق أطيافها مع ذلك المنظر الخلاب لهذه البقعة الحبيبة إلى فؤاده:

يا جبال اللوز يا أخت السراة   بلغ الشوق بقلبي منتهاه
لو تبعت القلب فيما يبتغي   ما برحت الجبل الصافي هواه

وتتجلى الحكمة في أشعاره واضحة، تشيع في ثنايا أبياته، وفي طيات جمله وعباراته الشعرية، وهي حكمة الرجل الذي خبر الحياة بحلوها ومرها، حكمة رصينة وجزلة، كتلك الرصانة والجزالة التي تصطبغ بها مفرداته الشعرية، تأمل مداعبته الرقيقة لطفله الصغير الذي لم يزل صفحة بيضاء لا تحمل سطراً من عناء، ولا حرفاً من مكابدة، وهي مداعبة تنطوي على حكمة بالغة:

لست تدري يا صغيري ما بقلبي من هموم   ترهات في سمائي تترامى كالنجوم

ليتني مثلك لا أعرف صحوى من غيومي تحسب الدنيا كما تلقى نعيما في نعيم

وربة الشعر عند العطوي دائماً ما تنزع إلى مبتغاها الأول، وهدفها الرئيس إلى الوطن الغالي، لتتغنى بأمجاده، وتشدو بأفراحه، وتقدم له فروض الولاء والتبعية. وها هو ذا العيد أقبل، فإذا ربة الشعر في ركابه فرحة طروب، وإذا الشاعر يُهدي تحيته للوطن الحبيب، ويدعو الله له بدوام الرخاء والسعادة وصونه من الأحقاد والضغائن والفرقة، مشيراً إلى أن العيد هو هبة السماء للأرض الولود، والشعب المتحاب المتآلف، وهو فرصة لنبذ الفرقة والشتات

أعاد الله عيدك يا بلادي وضمخ بالمسرة كل ناد
وطرز فرحة الأطفال ثوبا والبسها المدائن والبوادي
لتنصهر المشاعر في انسجام وتصعد بالقلوب إلى الأيادي
فلكل ضغينة بالعيد تمحى وتبدل بالمحبة والوداد

مما سبق يمكن للقارئ العربي أن يقف على أهم الخصائص الفنية لشعر محمد فرج العطوي، وأن يستوعب أهم الأغراض والمقاصد الشعرية التي حلقت في فضاءاتها ربّةُ شعره. بيد أن القارئ قد يناله نصيب من الدهشة إذا صارحناه القول بأن معظم شواهدنا الشعرية التي سقناها سلفاً هي في الواقع من طيات ديوانه الأول (بوح الروح).. !

وهويمثل مرحلة الفتوة الشعرية الأولى عند شاعرنا، ونبضات قلبه في زمن الشباب الجميل. ألا يشاركني القارئ الكريم القول بأن العطوي كان منذ بداياته شاعر العربية النابغ، وفارساً موهوباً في ميدان الإبداع الشعري، لقد كان منذ بواكير عهده بالشعر مبدعاً، من أول قصيدة نظمتها قريحته، كما اتسمت تجاربه الشعرية الأولى بالعمق الفكري، والنضج الفني. إن نتاجه الأدبي عموماً يؤكد على أن الشباب العربي، كان ولم يزل بخير، إذ يكشف عن نموذج من الشعراء الشباب، الذين مجدوا التراث، وعبروا عن قضايا الواقع، وأوقفوا أقلامهم في سبيل نصرة الحق، ومحاربة أهل الباطل.

وظيفة الشعر المباشر من خلال شعر سعد الغامدي

"وتتجلى ملامح المحنة الفلسطينية في قصائد الشاعر
ويسكب قلمه الشعري مداداً مخضباً بلون الجراح،
ورائحة الدم، وتنسال عبراته الحارة على تعابيره
وعباراته....!"

لاشك أن النقد العربي المعاصر شهد تطوراً ملحوظاً في أواخر القرن المنصرم، نتيجة لجملة من العوامل تضافرت مجتمعة فأثمرت هذا التطور، ومنها انفتاح العقلية العربية على الغرب، واستفادتها من نظرياته وأطروحاته ومناهجه، لاسيما المنهج البنيوي، الذي يُعنى بدراسة النص الأدبي بوصفه بنية لغوية مكونة من عدة عناصر تنتظم وفق شبكة من العلاقات الداخلية، بغض النظر عن المؤثرات الخارجية المتحكمة في النص على أهميتها.

"والنقد في أدق معانيه هو فن دراسة النصوص، والتمييز بين الأساليب المختلفة، وهو روح كل دراسة أدبية"[1].

غير أن النقد في جوهره لا يكاد ينأى عن الذاتية والتأثرية؛ فالناقد لا يصدر في نقده عن موضوعية كاملة، أو هوى مجرد، إنما هو حيال النص الأدبي إذا شرع يضعه تحت مجهره المتأمل لا يكاد يسلم من تأثيراته الشعورية على انفعالاته الخاصة، وإلى تلك الإشكالية قد فطن ناقد عالمي شهير هو (لانسون)، وأقر بذلك حين قال: "إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمي هي إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا، لكي ننظم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته، فإننا نكون أكثر تمشياً مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية في دراستنا، وتنظيم الدور الذي تلعبه فيها، وذلك لأنه لما كان إنكار الحقيقة الواقعة لا يمحوها، فإن هذا العنصر الشخصي الذي نحاول تنحيته سيتسلل في خبث إلى أعمالنا، ويعمل غير

---

[1] النقد المنهجي عند العرب - د محمد مندور - ص14

خاضع لقاعدة، وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها، فلنستخدمه في ذلك صراحة، ولكن لنقصره على ذلك في عزم، ولنعرف كيف نميزه، وننقدره، ونراجعه، ونحده، وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه، ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة[1].

من هذا المنطلق رأينا أن آفة النقد في بلاد العرب ليست في ذاتيته أو تأثريته، إنما آفته في تبني قناعات نقدية، ورؤى تحليلية لا يكاد ينفك من إسارها أو يحيد عن مسارها، وتستفحل الآفة وتعظم إذ يتصور الناقد أن قناعاته وحده هي الأجدر أن تتبع، والأولى أن يُرجع إليها وتُستشر..!

والملاحظ في الساحة النقدية أن النقاد على فريقين: أحدهما يحدد مساره النقدي في ضوء مجموعة من التصورات النقدية، والنظريات المنهجية لا يقبل عنها بديلاً، ولا يُعنى بسواها، وينزلها من نفسه منزلة القداسة والصحة الكاملة، وينظر إلى غيرها نظرة المسفه المزدري، والآخر يضع لنفسه منهجية عقلية في أعماله النقدية، يروض عليها وجدانه ويحدُّ وفقها من اندفاعه، فهو يتلقى النص على مهل، قارئاً ومتأملاً، ومستغرقاً في التأمل، محاولاً سبر أغوار النص وكشف أسراره، ومعرفة مقصود صاحبه، وصولاً في النهاية إلى إدراك أوجه الجودة، ومواطن الضعف فيه. ثم يصدر بعد ذلك على بينة ودراية كاملة أحكامه المنصفة، وآراءه المعتدلة.

والفريق الأول في رأينا قد حاد عن جادة الصواب؛ إذ إن العمل النقدي في جوهره عمل انطباعي ذاتي صرف، يعتمد في جانب كبير منه على ذائقة الناقد الفطرية، وتأثره الانفعالي، ومخزونه الثقافي والمعرفي، ناهيك عن امتلاكه لأدوات النقد ومقومات المنهج النقدي، ومن ثم فالقاعدة الأحرى أن تتبع، والأصل الأجدر أن يُحتذى من جمهور النقاد هو الاختلاف.

---

[1] منهج البحث في تاريخ الآداب لانسون – ص19

وعليه فإن الفكر العربي المعاصر في أمس الحاجة إلى منهج نقدي حداثي، يستقطب كل الاتجاهات، وينتصر لسائر التيارات، ويتبنى أطروحات أكثر اعتدالاً وأشد إنصافا.

بيد أن الذي دعانا إلى ذلك التصدير وتلك المقدمة هو واقع الإبداع المعاصر لاسيما الشعر في صحفنا اليومية، ونظرة نقادنا إليه، وطرق معالجتهم لنصوصه ومضامينه، فالشعر الانطباعي المباشر الذي يتدفق بتلقائية عفوية، لا يكاد يحظى بتقدير النقاد ورضاهم، بل قد تعزف بعض الصحف السيارة في بلادنا عن نشره كلية أو أن تقبل نشره ولكن في زوايا من الصحيفة مستترة ومخبوءة لا يكاد يعانق عيني القارئ.

ومن خلال الرصد النقدي للاتجاه التقريري المباشر في الشعر العربي نلمس جنوحاً لدى جمهرة من النقاد إلى تهميشه، ووصمه بالسطحية، وتجريده من جماليات الشعر وعذوبته، وكلتاهما – أي جمال الشعر وعذوبته – في زعم هؤلاء النقاد يقتضيان التأنق في قول الشعر بعد ارتجاله، ونعني بالتأنق تلك المراجعة والتكلف الذين يفرزان ألواناً من البيان والبديع في مفردات القصيدة وتراكيبها، وذلك ليس له وجود في الشعر التقريري المباشر على حد زعمهم.

وحجتهم في ذلك أن الكتابة التقريرية المباشرة يطغى فيها الإخبار والتعيين على حساب التضمين والمجاز والإيحاء، وتسود الجمل الخبرية على الجمل الإنشائية.

فإذا كان الأمر كذلك فإن فريقاً من النقاد قد شمر سواعده للدفاع عن هذا الضرب من الشعر، وجهدوا في تلمس أوجه الجمال فيه، وبذلوا محاولاتهم في سبيل تزيينه وتنميقه أمام القارئ العربي، وزعموا أنه يمثل الحضور الواقعي لتنقلات الحياة وتقلباتها، وأنه الأقدر على رصد أحداث الواقع وملابساته، وتصوير معاناة الفرد والمجتمع معاً، واستشراف المستقبل من خلال تلك المعاناة ونظروا إليه على أنه لون من ألوان الطبع في الشعر العربي، الذي لا يُعنى بتنميق الكلمات، والتكلف في صنع الصورة الشعرية؛ إذ الحقيقة أحياناً ما تكون أبلغ من الخيال.

على أية حال فإن المتأمل للحركة الشعرية المعاصرة في المملكة العربية السعودية يلحظ أن عدداً كبيراً من شعراء الطبع قد برعوا في قرض الشعر ونظمه، وأضحوا أعلاماً في

مسيرة الإبداع الشعري في الجزيرة العربية، ذلك لأنهم كرسوا أقلامهم ومواهبهم للتعبير عن قضايا الإنسان العربي المعاصر، وتدفقت شاعريتهم في تصوير أحداث الواقع العربي تصويراً صادقاً مبدعاً، ومنهم على سبيل المثال الشاعر عبد الرحمن العشماوي، والشاعر سعد بن عطية الغامدي وأما الشاعر الدكتور/ سعد بن عطية الغامدي فقد صحبته في مطولاته الشعرية المتواترة التي عانقت إشعاعاتها الصحف السعودية السيارة في كل مناسبة وطنية، أو عند كل حدث يهز الوطن ويعصف بالعالم العربي. وقد جمعها الشاعر في دواوينه الشعرية الأربعة:

1- شطآن ظامئة

2- بشائر من أكناف الأقصى

3- إلى العرين شامخاً

4- بعد أن تسكن الريح

وشعره يتشح بوشاح الوضوح والصراحة، ويحتل الهم الوطني مساحة كبيرة من أشعاره، ويتناول من منظور ذاته الشاعرية عديداً من القضايا والأحداث التي مرت بها الأمة العربية في حاضرها، غير أن رؤيته إلى تلك القضايا وهذه الأحداث تختلف اختلافاً جذرياً عن الرؤية العادية العابرة، إنه يرى لمسافة أبعد وأعمق، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن موضوعاته الشعرية لاسيما تلك التي عرض فيها لأحداث الأمة العربية، كفلسطين، وحرب الخليج، وغيرهما، لم تكن رصداً تسجيلياً واقعياً، إنما كانت رؤيته الخاصة التي تتوغل في أعماق الحدث، وتستشرف ما سوف ينجم عنه من تداعيات.

تأمل أبياته الشعرية التي أنشدها في أعقاب حرب الخليج في جمادى الثانية عام 1411هـ، واصفاً تلك الحماقة العراقية الكبرى التي لا تخلو من حقد وعنجهية، إذ سولت للنظام نفسه الأمارة بالسوء، المتخمة بالكبر والغرور، أن يعلن حرباً ضارية ضد الشقيقة الكويت..!

كيف تصفو حياة من فاض حقداً　　والذي يشتكي الإخاء منه الإخاء
ظل فكراً ومنهجاً واعتقاداً　　وانتماء يصح فيه الولاء
واستبى حرمة وأشقى جواراً　　واتقاه القريب والغرباء
وسعى في الهلاك سعي حثيث　　رب سعي أولى به الإبطاء[1]

وتتجلى ملامح المحنة الفلسطينية في قصائد الشاعر، ويسكب قلمه الشعري مداداً مخضباً بلون الجراح ورائحة الدم، وتنسال عبراته الحارة على تعابيره، وعباراته، كاشفة عن حجم المأساة، وعن عمق الألم العربي، الذي ما فتئ يرتع في جسد الأمة العربية جامحاً وجائرا، منذ اجتياح الآلة الصهيونية الغاشمة الأراضي الفلسطينية، يدعمها اللوبي الصهيوني في أمريكا.

والهاجس الفلسطيني يخيم على قصائد الشاعر، وديوانه (بشائر من أكناف الأقصى) يحوي عدداً كبيراً من تلك القصائد، ويقدم لنماذج فدائية مشرفة في مشوار الكفاح الفلسطيني، أمثال محمود أبو الهنود، وإيمان حجو، ومحمد الدرة، والشيخ أحمد ياسين.

تمرد هذا الليث فيمن تمردا وقد كان　　غضا قبل فاشتد واعتدى
تمرد واختار الحجارة عدة فأهوى　　بها تستهدف الوجه واليدا
تمرد هذا الزحف فتحا وثورة　　وجمرا بأكباد الطغاة توقدا
فيا صبية سنا ويا سادة جحى　　ويا قادة عزما ويا فتية يدا
رفعتم لواء لو أقيم عموده　　على حجر لأهتز مجدا وأوردا
غسلتم به عار النفوس وذلها　　وأيقظتم عزما أذل واخمدا[2]

---

(1) ديوان بعد أن تسكن الريح – سعد العامدي ص160
(2) ديوان بشائر من أكناف الأقصى – سعد العامدي - ص143

إن أصغر طفل في الشارع العربي يدرك تمام الإدراك أن العنجهية الصهيونية على أرض فلسطين إنما يقف وراءها داعماً ومسانداً ومشجعاً الولايات المتحدة الأمريكية، وأن اللوبي الصهيوني داخل الكونجرس الأمريكي وخارجه يمارس لعبة الضغط النفسي على كل قلم حر، ورأي مستنير داخل أمريكا.

من علم الجلاد أن يتجبرا ... إلى الأشد تجبرا وتكبرا
ذاك الذي أواه وهو مشرد ... وأقام دولته وآزر وافترى
وسعى له في المحافل ناصرا ... متوددا حينا وحينا منذرا

والعقل المنصف في كل مكان يعي هذه الحقيقة المرة، ويقف ذاهلاً أمام ذلك التناقض الهزلي في المواقف والمعايير، ففي الوقت الذي تصم فيه أمريكا شعب فلسطين بالإرهاب وهو صاحب الأرض، تعطي الحق لدولة بني صهيون أن تمارس وحشيتها وعدوانها على أصحاب الأرض والحق. إنها حقاً مهزلة كبرى.

إن العدو الصرف أمريكا التي ... تبني لإسرائيل مجدا أكبرا
وتمدها بعتادها وبمالها ... ورجالها وتفيض حتى تكبرا[1]

إن الشعوب في حاجة إلى هذه المباشرة الشعرية كما أن المثقفين بحاجة إلى الإبداع التأملي.

ويمثل ديوانه ((إلى العرين شامخاً)) الوطنية وعوامل جذورها وتلاحمها، وعمق التواصل بين القديم والحديث، ومن أبياته الرقيقة التي تغنى فيها بالوطن، مهد الرسالة المحمدية، ومهبط الوحي، هذه الأبيات الرائعات التي يقول فيها:

---

(1) ديوان بشائر من أكناف الأقصى - 22

وطني....

أنت المورق

بالخير وبالبر والحسنات

أنت المشرق بالوحي وبالهدى وبالبركات

أنت المطلق

في الناس الحريات

حتى لا يعبد إلا الله

وطني....

أنت الشامخ فوق الأوطان

أنت العالي قبل البنيان

أنت الموقظ في الإنسان الإنسان

أنت عنوان المجد العنوان

وبداية كل زمان ونهاية كل مكان[1]

إنها مقطوعة شعرية تشبه الغزل، ولكنه غزل في الوطن الخالد، يعتمد فيه على إضاءات المعاني، وإشعاعات الدلالات، وإن غلب عليها بعض المباشرة، وطغت عليها الأساليب الخبرية، ولا ضير إذا طغت المباشرة على الشكل، وتوهجت المعاني والمضامين في ثنايا القصيدة.

أما عن الزمن في شعر الدكتور سعد عطية الغامدي فيشكل ملاذاً آمناً، يستدعي منه القيم السامية، والفضائل الحسان، ويُسقط ذلك على الواقع المعاش، لاستلهام العبرة، واقتناص الحكمة، ومن ثم يُعبِّد الطريق لصنع مستقبل أكثر وميضاً وإشراقاً.

(1) ديوان إلى العرين شامخاً – سعد الغامدي ص187

قــام في النــاس يــرد النــاس عــن	مــورد الــشر وعــن درك الــشقاء
ويقـــيم الحـــق نهجـــا بيننـــا	ثابـــت الأركـــان مرفـــوع البنـــاء
حفـــظ الأمـــوال والأعـــراض	والأنفس والدين وناموس الـذكاء[1]

فهذه مكونات فكرية، وقيم منهجية تنزلت بها الأديـان الـسماوية، وتلقاهـا الـضمير الإسلامي منذ زمن بعيد، ولم تدع الديانات الـسماوية لغيرهـا مـن المـذاهب الوضـعية مجـالاً للتحذلق أو المزايدة، ولكنها في ذات الوقت لم تحكر على العقـل البـشري، ولم تـسفه جنوحـه إلى التأمل في الملكوت، بل أوصت به، ودعت إليه، وأعلنت في غير موضع احترامهـا للعقـل، ومنجزاته الصالحة المفيدة، وهذه الدلالة تبدو واضحة في البيت الأخير السابق.

إن مما يلفت نظر الباحث في شعر الدكتور الغامـدي ثقافتـه العاليـة، واطلاعـه علـى تاريخ الشعوب، وقدرته البارعة في اقتناص الحكمة من الماضي، وسوقها إلى القارئ بأسـلوب سهل ممتنع، قريب اللفظ، بعيد المعنى، مشع الدلالة، ومن ذلك قصيدته المطولـة (بيـان) الـتي أودعها طيات ديوانه الشعري (شطآن ظامئة)، وهي قصيدة حق له أن يفخر بها؛ إذ هـي تمثـل مختصراً وجيزاً للتاريخ المعاصر بحروبه وتطلعاته وانكساراته وسقطاته.

لقد أودعها إرهاصاته وهواجسه وتأملاته الـتي لا تخلـو مـن الريبـة والـشك، ولكنـه وضعها أمام القارئ العربي، عسى العقل النائم في سبات عميق يفيق ويصحو:

هذا عصر العلم
وعصر الحروب
وعصر المكر
وعصر... سياسات الأهواء
كم سحقت في هذا العصر شعوب
كم سفكت في هذا العصر دماء

---

(1) إلى العرين شامخاً – ص91

هزم اليابان الحلفاء
مدن حرقت
نسفت[1]

وفي موضع آخر من ذات القصيدة أنشد يقول:

هذا يا ولدي عصر الميزان الأعمى
كفّ تغرق في النعمى
تستجدي كفاً مجدبة
تشبعها لطما..
إن يداً تطعمك اليوم
غداً ستجوّع أولادك
إن يداً تكسوك اليوم
غداً ستعري أحفادك
إن يداً تلهيك اليوم
غداً تفرش بالشوك مهادك

وفي موضع آخر، أنشد قائلاً:
يا ولدي
هذا التاريخ..
كتاب..
لا يملك
أن يكتبه..

ديوان شطآن ظامئة – سعد الغامدي – 213

إلا من يقرؤه سطراً سطرا
إلا من يتقنه حرفاً حرفاً
إلا من يبصر كيف تدافع مثل الناس
الأسباب
ويرى كيف تُصاغ الأحداث
فيصنع في الدنيا أحداثه..

وربما ذكرتني قصيدته تلك بالشعر التاريخي عند شوقي في ملحمياته التاريخية التي كتبها بلغة الشعر، كمجنون ليلي، وكليوباترا، ومصرع قمبيز، وغيرها، بيد أن الغامدي قد نظمها على طريقة الشعر الحر، أو قصيدة التفعيلة، فيما نظم شوقي تاريخياته الشعرية على نهج القصيدة العمودية.

وفي رأيي أن القالب الكلاسيكي العمودي أكثر مقدرة على رصد وقائع التاريخ من الشعر الحر الذي يعتمد على السطر أو التفعيلة الواحدة، وإلا سنملأ حينئذٍ مجلدات شعرية في وصف حادثة واحدة.

والواقع أن شعر الغامدي يسير على نهج واحد من التقريرية والمباشرة والوضوح، والاستنجاد بالألفاظ المتداولة، والتراكيب المعيارية المباشرة التي تنأى عن الاستعانة بصور البيان وضروب البديع. ولست أدري ما الذي يمنع شاعرنا عن التنويع؟!

أما المضامين الشعرية التي حلقت في أجوائها ربة الشعر عند الغامدي، فهي في أكثرها وطنية، يكسوها الطابع الإسلامي، والهم الإصلاحي. وقلما نجد الأشعار التي تدور في فلك الذات الشاعرية عنده، ومن ثم فقد تجاوز ذاته، وجاء شعره استجابة لفكره، وتلبية لانفعالات وجدانه بالواقع الخارجي وقضاياه الجدلية، وجاءت لغته ومفرداته واضحة وقريبة، لا تعقيد فيها ولا إبهام، وجاءت صوره الشعرية في أغلبها مباشرة، ليس فيها تكثيف دلالي. ومن أشعاره العذبة ذلك الشعر العاطفي الرقيق، من قصيدة (رويداً رويدا):

أراك الصباح الندي الجديدا
أراك المساء الأليف الودودا
يلاحقني أينما يممتُ
خطاي ويسري وئيداً وئيداً
أراك نسيماً يفوح عبيرا
وألقاك روضاً يفيض وروداً
أراك الدُنى أجتلى حسنها
وأذهب فيها بعيداً بعيدا
إلى حيث تمضي لجوم المساء
ويرجع نور الصباح وليدا

وعن ذاته الشاعرية الرقيقة يصحبنا ديوانه (شطآن ظامئة)، ليقدم لنا ملمحاً آخر من ذاتية الشاعر، وهمومه الخاصة، ومن بين القصائد العِذاب التي تناثرت بين دفتي الديوان هذه الأبيات الشعرية الشجية الحزينة، التي يقول فيها:

اليوم يا دعاء
لو تدرين..
أتيت حيث ترقدين
أتيتُ أحمل الأسى العميق
والحنين
وباقة من الدموع تنبت السراب في الجفون
معذرة حبيبتي
فما اشتريتُ عند عودتي
من مكتبي إليك لعبة

ولا اشتريتُ في نهاية الدوام
يوسفياً
إذ تقشرينه وتفرحين
لأنه ينسل في سهولة
كأنما يداعب اليدين
لم أشتري يا لوعتي وحرقتي
لأنني...
نسيتُ أين ترقدين

ومن مراثيه الرقيقة التي برع فيها صوتاً شجياً حزيناً، هذه الأبيات الشعرية التي رثى بها شيخ الإسلام محمد بن عثيمين، الذي وافته المنية في 20 شوال 1421هـ، والشاعر إذ يرثي الفقيد رحمه الله إنما يرثي العالم العربي والإسلامي الذي فقد فقيهاً جليلاً، وشيخاً راسخاً في العلم، قلّ أن يجود بمثله الزمان.

فقد كان ذا علم ورأي وحكمة	وقد كان ذا فقه يضيء ويسطع
يفسر آيات الكتاب فتنجلي	فهوم ويجفو عن سبيل تنطع
وكان عطوفاً في المواقف لينا	يحبب خلق الله في الدين إن دعو[1]

وفي رثائه للدكتور محمد عبده يماني أنشد يقول:

أبا كل معروف أخا كل عارف	وصاحب قلب بالمودة عاطف
وذا خلق سام، وذا وصل حادب	على أهله يدعو لطيب المواقف

(1) بعد أن تسكن الريح - ص53

نـدياً كوجـه الـصبح يمـنح وده	ضـياء بهيـا دونـه وصـف واصـف

تـألق نجمـاً في المحبـة سـاطعاً	وزاد بقـسط مـن شمائـل آلـف

أحبـو رسـول الله كانـت رسـالة	سـعى بيننـا فيهـا بـروح ملاطـف

وصـونوا بنـيكم بالمحبـة، واجعلـوا	مقـام نـبي الله فـوق الـصوارف

أبـا ياسـر ذكـراك كالـشمس بيننـا	وللحـزن ليـل في مواجـد لاهـف

وفي العـين مما شـدت للعـين معلمـاً	رفيعاً سمـا فـوق الـدموع الـذوارف

أمـا كنـت صـوتاً للـضعاف مجلجـلاً	أما كنت مأوى يحتوي خوف خائف؟!

كبيراً على الشكوى، وكيف لشاهق	بأن يظهر الشكوى لعصف العواص؟!

ولكنـــه ود، وبـــر، ورحمـــة	وجـود، وإحـسان، وغـوث لهـاتف

سـعى لكتـاب الله سـعي مجاهـد	وقـام يزكـي عـن قعـود الخوالـف

خلاصة القول: إن دواوين الغامدي الشعرية في مجملها سجل لواقع الأمة الإسلامية والعربية المعاصرة وسفر كبير يدون أحداث العالم الإسلامي الكبرى من الحروب، والمآسي، والبطولات الفدائية، والمشاهد الوطنية، والقضايا المصيرية التي عصفت بالضمير العربي في فلسطين، وبيروت، ومصر، وهكذا ترافقنا قصائده، وتصحبنا دواوينه، تنقلنا من واحة إلى واحة، ومن ملحمة إلى أخرى، تارة تبشر بالأمل، وتارة تلقي بنا في أتون المأساة حتى نعايشها عن كثب، وفي النهاية لا نملك إلا أن نقول: هو شاعر ذو رؤية، يرسم فكراً، ويشكل رؤية خاصة به عن الحدث من منظوره هو، ولكنها مع ذلك تمس شغاف قلوبنا.

معالم التجديد في شعر علي آدم

"والواقع أن الشاعر لم يجز لذاته التحلل الكامل من القيود الشعرية من حيث الوزن والقافية، والمحسنات البلاغية، ولم يشأ لموهبته الشعرية أن تنقاد كلية إلى ذلك الاتجاه الرمزي...."

لاشك أن المبدع الذي يمتلك موهبة متوقدة، وخيالاً خصيباً، ولغة سلسة، وفكراً راقياً، ودراية بقضايا العصر ومتطلباته، وإحاطة بالتراث ومعتقداته، هو المبدع الأقدر في توصيل قضاياه وأطروحاته إلى المتلقي. ولا ريب في أن الرسالة النصية الأدبية شعراً كانت أو نثراً إذا توافرت لها جودة النظم، والصدق الفني، والفكر الهادف ستبقى فيضاً متواصلاً، وأثراً خالداً يخترق عوالم المتلقي جيلاً بعد جيل. وأياً ما يكن فإن التجربة الأدبية الخالدة تأتلق، وتُشع كلما كانت نصاً يعكس الواقع انعكاساً صادقاً وأميناً، على نحو يمس وجدان الجماهير، ويولد في خواطرهم ذات الشعور، ونفس المعاناة.

بيد أن التواصل بين المبدع والمتلقي إنما يقوم على عدة أسس، وتتحكم فيه جملة من المكونات، التي تشكل في جوهرها مكونات عملية الاتصال: المرسل، والمستقبل، والرسالة. "فالمرسل يريد أن يقدم فكرة أو وجهة نظر معينة، وهذا ما يشكل رسالة أو خطاباً، أما المستقبل فهو يتلقى هذه الرسالة كما يفهمها هو من النص، وهذا تأويل للخطاب أو قراءة له"[1].

من هنا تنبثق الإشكالية الكبرى، والجدلية الشائكة: كيف يتسنى للأديب أن ينتج أدباً يصل إلى أذواق الناس عامة، دون أن يقدم عملاً مبتذلاً فنياً، أو تنازلات على حساب جودة العمل وتوهجه إرضاءً لأذواق المتلقين، وضماناً لكسب إعجابهم؟!

[1] رؤية المبدع حرء من وعي المحتمع – صباح فاروق كيالي – مجلة العربي الكويتية عدد 529 ديسمبر 2002

فالمبدع من حقه أن يسعى إلى التفرد، والتميز، والصدق الفني، ولكنه في ذات الوقت يريد أن يدخل إلى عالم المتلقي من دون تملق أو تنازلات.

والمتلقي تواقة روحه إلى أن تجد في الفن الأدبي مبتغاها، وتطمح في أن تعثر فيه على ضالتها، من حيث التعبير عن أحلامها، ومعاناتها في الحياة، غير أن ذلك يقتضي من المتلقي ذاته أن يكون هو الآخر على مستوى النص، ومؤهلاً وجدانياً وفكرياً لاستقباله وفهمه وإدراكه، ولكن سنة الله في الكون قضت سلفاً باختلاف أذواق الناس، وتفاوت قدراتهم الإدراكية، وتباين مشاربهم وأهوائهم، الأمر الذي يوقعنا في إشكالية أخرى، ألا وهي تباين الرؤى حول النص الأدبي، وتعدد قراءاته، وتفاوت تأويلاته وتفسيراته. وتعظم هذه الإشكالية وتصبح أكثر

تعقيداً إذا كان النص الأدبي غارقاً في الرمزية، جانحاً إلى الإبهام والغموض، مشتملاً على استبطان الأديب لذاته واستغراقه فيها..!

وقضية الرمزية في الشعر العربي المعاصر ذات صلة وثيقة بقضية الحداثة الشعرية التي ألقيت بذورها في البيئة العربية إبان النصف الأول من القرن العشرين، ثم سرعان ما أينعت ثمراتها خلال النصف الثاني من ذات القرن.

فلا تكاد تذكر القصيدة العربية الحديثة في أوساط النقاد وجمهور المثقفين، حتى ينصرف الذهن مباشرة إلى ذكر الرمزية الشعرية. غير أن قضية الرمزية في واقع الأمر ليست بحديثة، فقد حملت إلينا كتب التراث محاولات متفرقة ومتناثرة، لبعض شعراء العرب القدامى الذين مالوا في بعض أشعارهم إلى الرمزية، وجنحوا في إبداعهم إلى الإبهام والغموض، وكان على رأس هؤلاء بشار بن برد، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد، لكن الشاعر أبا تمام قد فاق وبذّ، وأسرف فيه حتى اشتهر به، بل وتشتهر عبارته: "لم لا تفهم ما يقال" رداً على أحدهم حين عاتبه قائلاً: "لم لا تقول يا أبا تمام من الشعر ما يفهم؟"

وفي كتابه "نقد الشعر" ساق قدامة بن جعفر تعريفاً اصطلاحياً للرمز بقوله: "أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها، كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة فقال: هي لمحة دالة"[1].

بيد أن الاتجاه الرمزي بالمعنى المستغرق في الإبهام والغموض لم يتمثل جلياً في الحياة الشعرية إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبواكير ظهور القرن العشرين، حيث انتظم في ذلك الاتجاه عدد من شعراء العربية، متأثرين بالمدرسة الرمزية الفرنسية. وتُعد قصيدة "نشيد السكون" للطبيب الشاعر أديب مظهر (1889-1928) بداية الاتجاه الرمزي في الشعر في لبنان.

وقد تيسر لهذا الاتجاه الذيوع والانتشار على يد الشاعر سعيد عقل، "ذلك أن هذا الشاعر وضع أسس هذا المذهب في مقدمة مجموعته الشعرية: "المجدلية" التي صدرت عام 1937. وهذه المقدمة عبارة عن محاضرة كان الشاعر قد ألقاها في قاعة "الوست هول" في الجامعة الأمريكية في بيروت بعنوان: "كيف أفهم الشعر؟"[2].

لقد كان طبيعياً أن يكتنف الغموض التجربة الشعرية الحديثة، لاسيما عند شعراء عرب آمنوا بأن الشعر تجاوز للظواهر، ومواجهة للحقيقة الباطنة في شيء ما، وأن اللغة ينبغي أن تحيد عن معناها العادي، وأن الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحاً بلا عمق على حد زعم أدونيس.

"ويدافع النقاد المحدثون عن هذه الظاهرة، بل ويذهب بعضهم إلى حد القول أن الشعر هو الغموض، وتصبح ظاهرة الغموض في الشعر الحديث حسب هؤلاء دليلاً على أن هذا الشعر قد حاول التخلص من كل صفة ليست شعرية، والاقتراب من طبيعة الشعر الأصلية"[3].

---

(1) نقد الشعر قدامة بن جعفر – ص90

(2) الحداثة في النقد الأدبي المعاصر - عبد المجيد زراقط – ص3

(3) الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها – محمد حمود – ص118

لكن تيار المحافظين الذين نظروا إلى ذلك الاتجاه الحداثي في الشعر نظرة تتسم بالريبة والتوجس شنوا حروبهم ضده، وطعنوا فيه، ووصموه باللاشعرية، لخروجه عن الذوق العربي الخالص، ونزوعه إلى الإغراب والإبهام، لكن هذه الدعوات الصريحة إلى مناهضة مذهب الغموض كانت تواجه تياراً شديداً، وما زال يشتد، كلما مضى ركب الحياة، ومما زاد الخطب تفاقماً أن الأدباء قد اعتقدوا أن المعاني قد نضبت، وأن لا ملكية فيها ولا فضل، فليس أمامهم إذن إلا الصياغة، وإلا اللعب بالألفاظ، لستر المعنى المكشوف، الذي تداوله الأدباء جيلاً بعد جيل، فاعتمدوا على ألوان من المخاتلة في التعبير: كاللغز، واللحن، والتورية، والاستخدام"[1].

وقصة الحداثة الشعرية المعاصرة في المملكة بدأت تلوح بشائرها منذ ما يقارب ثلاثين عاما. وكان لمدينة تبوك الحظ الوافر منها، فمنها انطلق عبد الله الصيخان، ومحمد الحربي، وخديجة العمري، والدكتور نايف الجهني، والدكتورة فاطمة القرني، والأستاذ غرامة العمري، والشاعر المهندس محمد فرج العطوي، وصالح العمري، وعلى آدم. وهم شعراء تفاوتوا تجديداً وتقليداً، وأصالة ومعاصرة، وإن اتسمت تجاربهم عموماً بطابع حداثي ملحوظ.

والشاعر علي محمد آدم هوساوي أحد شعراء تبوك، تجربته في الشعر تجربة واعدة، تأتلق بالوهج الشعوري، والعمق الفني، والتكثيف الإيحائي، وإن غشيها الغموض أحياناً، وحطت على مراتعها أطياف الرمزية والإغراب، ولعله في كثير من أشعاره لم يشأ أن يكون سوى نفسه، أي أن يكون الشاعر نفسه، أي: أن يجسد في عمله شخصيته وثقافته، مكاناً وزماناً، حراً غير مرتهن للماضي ولا للآخر، وأن يسعى إلى أن يطور التجربة الشعرية، بوصفها تجربة إنسانية، ذات وظيفة بنائية مستمرة"[2].

وحين يقف المتأمل على عتبات ديوانه "مسارات في ذاكرة السراب" لاشك تستوقفه هذه الومضة الشاعرية التي حملت نفس عنوان الديوان، ويحار المتأمل من الوهلة الأولى؛ إذ

---

(1) الرمزية في الأدب العربي – د. درويش الجندي – ص63

(2) حداثة النص الشعري في المملكة العربية السعودية – د. عبد الله أحمد الفيفي – ص12

كيف يتسنى للمرء أن يتخيل مسارات تتجلى أو تلوح في ذاكرة سراب؟!، فالسراب وهم وخيال لا يستندان إلى واقع، ومن ثم فلا شك أن تكون تلك المسارات هي الأخرى ضرب من الوهم، ونوع من الخيال الصرف.

انظر إليه وهو يقول:

أخطُ يدي ليدي
فتحط النوافذ أقدامها
وتعود الشوارع ناثرة
شعرها
ويديها
وقامتها
فتمر يدي من هناك
لتسأل: ماذا جرى؟!
وتصطخب الشاعراتُ
وأضواء تلك المدينة
ماذا هناك؟[1]

بيد أن الذاكرة تعالق بشري يشي بالحنين إلى أحداث مضت وولت، ويحرض على استدعاء وقائع طويت في سجل الماضي بحلوها ومرها، ولكننا لا نملك مع ذلك وصمها بالسراب؛ إذ أن كثيراً من ذكريات الماضي ما يترك آثاراً باقية في مسارات حياتنا، بل ويكون مؤثراً فيما نتخذ من قرارات ومواقف في قادم أيامنا.

وأياً ما يكن فإن القصيدة موغلة في الغموض، ومستغرقة في الرمزية إلى الحد الذي يجعل الأمر أمام المتلقي مستغلقاً ومعقداً، على نحو لا يكاد يستبين معه مقصود الشاعر أو

---

(1) ديوان مسارات في ذاكرة السراب - علي آدم - ص7

مراميه. فكل مقطوعة منها هي قطعة من سراب، تغري القارئ بالدخول إلى عالم القصيدة، حتى إذا فعلها لم يجد شيئاً؛ فالمعنى مبهم، والدلالة غامضة، والقصيدة غارقة في بحر اللامنتهى، بل إن تأثيرها يكاد يكون كلمح سراب، وتبقى الحقيقة الوحيدة هي ذلك السؤال المطلّ من ثنايا القصيدة: (ماذا هناك؟!)

يراودني الصمتُ
تنطلق القافلات بأسمارهن
وتخرج من بين الجموع
قصائد... بل نسوة في المدينة
ماذا هناك؟
وتمضي يدي
لترافقها اللائحاتُ
وبعض شذى
من تراب المدينة
ماذا هناك؟
وتبكي يدي ليدي
كلما نازعتها الحقيقةُ
أوتارها
والمدينة مأخوذة بيدي
ويدي تستغيث يدي
والحقيقة أني تساءلت:
ماذا هناك؟[1]

---

(1) مسارات في ذاكرة السراب – ص8

وتمثل "مسارات في ذاكرة السراب" ظاهرة الحداثة الشعرية التي تُعنى بالبحث عن الجديد والتعلق به، والاستجابة للاتجاه الرمزي، وإخراج اللفظة عن مدلولها المعجمي، وتحميلها دلالات جديدة موحية، ولكن الإسراف قد يحمله إلى الخروج عن القياس اللغوي أحياناً كما في عبارته الشعرية: "فتحط النوافذ أقدامها" عموماً فالشاعر علي آدم قد تفتحت عقليته على ذلك التيار، وجادت قريحته على ذلك المثال، وأبحر فيه إبحار الماهر حتى أدرك مفاتيح مساربه ومناهجه، غير أن الحق أقول: إن شاعرنا لم يشأ أن يضع نفسه في هذا القالب الشعري الجديد بل لاح في كثير من قصائده واضحاً وصريحاً يلقي بالفكرة في جعبة المتلقي ناصعة متوهجة ومؤتلقة، ومن ذلك قصيدته "الانتشار" الذي أنشد يقول فيها:

أراك احتملت صدى الأودية
وأصبحت تمشي على هام صوتك
تقيم المنارات
للحائرين الحزانى
وأنت الذي
أقفل الحزن
أبواب دارك
فلم تُحسن الكسر
حتى تحولت في ثورة البوح
رمز الحزانى.
ولم تحمل الفأس تنجو بأحلامك
العاتيات الغريبة[1].

---

(1) المرجع السابق – ص15

إنها مناجاة الروح المعذبة التي تحيا الغربة في عالم غريب، ودنيا لعوب، وتكتوي بنار . الانفصام النفسي بين ما يبدو منها ظاهرياً للناس، وما يعتمل في داخلها من ألم الجراح، وجراح الألم...!

والواقع أن الشاعر لم يُجز لذاته التحلل الكامل من القيود الشعرية من حيث الوزن والقافية والمحسنات البلاغية، ولم يشأ لموهبته الشعرية أن تنقاد كلية إلى ذلك الاتجاه الرمزي، في حرية فردية، تبيح له كل ما يريد من التصرف في اللغة، وتراكيبها، والوزن وروعته وموسيقاه، فهو احتفظ بفصاحة اللغة، وكذلك سلامة التراكيب.

ففي قصيدته الهامسة "ضجيج" نلحظ ذلك الالتزام الذي يمسك بالمفردة الشعرية فيخضبها بمداد الجزالة والفصاحة، ويشيع في القصيدة جواً من الموسيقى الداخلية، ويولد في المتلقي إحساس الحيرة والقلق المشوب بالدهشة من جراء انطلاق الروح الغامضة في الحياة، تلهو بلحظتها، فيما المقادير قد وارت لها في جعبتها أموراً جسام، وأحداثاً ذات شأن.

توهتِ باللحظة الراهنة
وأقفلت إطلالة الأزمنة
وعاشرت أهواءك المزمنة
فكيف استعرت من الأمكنة
أساطير تبدو لك ممكنة

** **

توالت عليك أيادي الفصول
وما زلت تجرين بين الحقول
تعيشين وهم احتضان الوصول
ولن تحملي غير خوف الطريد[1]

---

(1) مسارات في ذاكرة السراب - ص21

إن مما يتسم به الشعر الوجداني في كثير من قصائده وتجاربه شيوع مسحة من الحزن والكآبة، والاستغراق في الذات، والهروب من الواقع، والتوحد مع الطبيعة، وتأتي الألفاظ في قالب القصيد الوجداني هامسة، رقيقة، عذبة، بعيدة عن الضجيج والصخب، تتخذ من المناجاة مع الذات أو الحبيب أو الطبيعة ملاذاً آمناً وموئلاً أثيرا.

غير أن الشعر الحر أحياناً ما يصطبغ بتلك الصبغة، ويتشح بذلك الوشاح، ويكتسي بتلك الملامح، ويدور في فلك هذه المناجاة، وهذا الهمس الناعم الخافت وذلك الشعور المضني بالحزن والكآبة. تأمل الشاعر في قصيدته "عجول إلى سفره"، تجد آية ما ذكرناه سلفا. فالقصيدة نبض من المعاني الموحية التي تحرض القارئ أن يقف بإزائها وقفات فكرية وشعورية مفعمة بالشك والحيرة:

متى كنت أبحث عن
كلمة اختفت بين
حمى الملاجئ؟
وأسقط أرغفة الحبّ
ترقص حول
ضجيج المخابئْ
لترسم فلسفة الهمسِ
تبني الأصابعْ
وتُنشئ ملحمةً تدخل النورَ
تبني الزوابعْ
وتسأل أزمنتي كلها
كيف تحيا المرابع؟
وتأكل أيامنا
ثم تلبس صوب الصواعق

قليلون جاءوا إلى حيث

صوتي سقيم

وقد أثقلته بنات النواعقْ

لذلك سجلت أوردتي

صاخبات تولول في صمت

نجوى المطابع

فلما ابتدت

كنت ذاك الذي

نال مجدا رفيعا. نعيق الضفادع[1]

هذا ولم يخل شعره من الإيحاءات الفلسفية، والرمزية التي يحتاج معها المتلقي إلى إعمال العقل والذهن، ليصل إلى مقصود الشاعر، ويشاركه تجربته الشعورية، وقد وظف الشاعر ذلك في تقسيمات رقمية أو مقطوعات شعرية موجزة في قصيدة واحدة، كل منها تحمل هذه الإيحاءات، وتشتبك مع تلك الرمزية، وتشع ومضات حائرة على صدر قصيدته "معابر":

قليل من الموت

نروي به عطش الذاكرة..

وشيء من الخوف

نبنى به بعض لمساتنا الماكرة.. [2]

غير أن الومضات الشاعرة في القصيدة سرعان ما توغل في الرمزية والغموض في المقطوعة الثانية، حين قال:

---

(1) مسارات في ذاكرة السراب - ص38، 39

(2) مسارات في ذاكرة السراب - ص63

توكأتُ ظل الحقيقة

فانفرج الباب

وارتطمت ضفة النهر

بالصوت

واحتضنت غابة الذكريات

وقوفي

على بابها[1]

أما قصيدته "بقايا الكتاب" فقد أبدعت قريحته الشعرية وتألقت، إذ ضمن القصيدة رسالته الوجدانية إلى محبوبته، مستمداً من التراث الشعبي عبارته (السلام عليكِ)، التي كررها مراراً، وحملها لواعج قلبه، وحنين فؤاده، وقد تصرف الشاعر في اللغة، ودانت له مفرداتها في انسيابية وعذوبة.

السلام عليكِ

وأنتِ

التي بين قوسين

أو تحت خطين امرأةٌ فاتنةْ

نما سحره في يديكِ

وأنت ملامحهُ في الكتابْ

الفواصل فتانةٌ تشعل النارَ بينكما

والإشارات مملوءة بالكثير

من الصد والارتياب

****

---

(1) المرجع السابق – ص64

جاء في مطلع الفجر
أوحت له الجن أسماره
شاعرٌ هب في نشوة النص
يهوى حديث الربابْ
تقرأ الجن أوتارهُ
عشعش الشعر في ناره
عاش فن الصبا والشبابْ
شاعرٌ ملهمٌ مدرجٌ
في سجل المرابين والحالمين
له منك حظان داء الهوى والعذابْ[(1)]

أما قصيدته المطولة التي تحمل نفس عنوان ديوانه "دوي على قبر مارية" فهي قصيدة لا تقوم على عمود الشعر المتعارف عليه من ناحية البناء الفني، وموسيقى العروض، إنما تنتظم القصيدة في قافية واحدة، ثم لا تلبث أن تدلف إلى قافية أخرى، والملاحظ أن كل بيت من أبيات القصيدة يمثل قصيدة في ذاته، وقلما نجد ترابطاً ينتظم فيه عدة أبيات، ناهيك عن أن القصيدة في عمومها تكتسي بضبابية وغموض كثيفين، الأمر الذي يثير قضية "تأويل النص الأدبي" ومن ثم جدلية تعدد القراءات والتأويلات لانغلاق المعنى، وإغراقه في التعقيد والغموض، ولست أدري أي رمز يكمن في لفظة "مارية"؟ إلام يعني الشاعر؟ وما مقصوده؟!

نفس الموت عاصف وشديدُ   وانشطار البكاء صمت جديد
لغة يستحثها الموت فترنو   بيديها لخطوها وتميدُ
وسرابيل من حبائل الحلم أودتْ   حين مادت برسمنا وشهودُ
قلق هائم يضج من الموت   والسرى قائم وصوم وعيد

(1) ديوان دوي على قبر مارية – علي آدم – ص12

وأبـــاريق كـــالعرائس يتبـــادرن م ـــن حولنـــا وصـــمت رشـــيد
رســـم في مراتـــع الحلـــم يحيـــا ويـــد ترتـــوي وأخـــرى تـــشيدُ
وأســـاطير في المقـــابر نـــشوى تتفـــانى لموتهـــا ونـــشيدُ[1]

وقد يكون النص الشعري موصوماً بتفريغ اللفظة من معناهـا المعجمـي، وتـضمينها معانٍ أخرى جديدة أكثر إيحائية وغموضاً، كما الحال عند شعراء الاتجاه الرمزي، ومـع ذلـك فقد نلمس حلاوة وعذوبة لتلك المفردات، وهذه الدلالات، نشعر في نفسياتنا بوهج خـاص، وومض مبهج، حتى وإن ذهبت اللفظة في الإغراب كل مذهب، وذابت في الغموض مـا شـاء لها أن تذوب، على أية حال فقد جاءت قصيدته "حدثيني" مـسافرة في يـمّ الغمـوض، بيـد أنهـا سرعان ما استقرت على شاطئ الوضوح، وأرخت شراعاتها في مرفأ الوجدانية المباشرة.

حدثيني...
كيف أشجتني المزاميرُ
وقلبي في رماد العشق
كالشطآن أمسى
حدثيني...
طالما أصغيتُ للذكرى
تعابثني تعاتبني
تهاتفني تؤرجحني
لعلي حين تجرحني رياح الوقت
أستسقي بريق الآه
في صمتي وأنسي

---

(1) المرجع السابق - ص13

حدثيني

كلما سافرت في عينيك

واحتدمت غيوم الدمع

تمطرني وتأسى

حدثيني

كلما أشعلت بالكلمات

نوح الناي والآهات كالمزمار

تفتح لي نوافذها كمرسى

حدثيني

كلما الهبتُ بالإنصات

للناعين ذاكرتي لتقسى

حدثيني

هل يموت الورد؟

أم يتلو الذبول وينطوي؟

في غابة الآلام.. محروماً ونعسي

حدثيني...

كيف عاد الناي ذاكرتي

وفي شفتيك قافلة تعيد الوقت

مقرونا بأوجاعي

وغيم الدمع بالأحداق أمسي[1]

أما بعد...

فإن الشاعر "علي آدم" رجل عصامي التحق بالجندية، وواصل تعليمه أسوة بكثير من أبناء المملكة الذين تعلموا بعد التحاقهم بالقوات المسلحة التي تنشر مدارسها مصاحبة

---

(1) دوي على قبر مارية – ص10، 11

لفروعها في ربوع البلاد. وما فتئ الشاعر يواصل تعليمه وينمي ثقافته من خلال قراءاته الذاتية حتى اكتشف موهبته الإبداعية الشعرية فتواصل مع الشعراء المبدعين، كما تولى رئاسة تحرير مجلة (فرسان)، ثم التحق بعضوية النادي الأدبي بتبوك، وهو من الأعضاء العاملين المؤثرين، وما لبث أن تولى رئاسة مجلة (ضفاف) التي يصدرها النادي.

صدر له ديوان (من وحي الهدى) عام 1418هـ، وديوان (مسارات في ذاكرة السراب) عام 1421هـ، ديوان (دوي على قبر مارية) الصادر عام 1428هـ، وله مجموعة قصائد لم تطبع حتى الآن.

والشاعر وإن اتجه نحو الإيحاء والرمزية في شعره إلا أنه شاعر موهوب، وربة الشعر عنده متوقدة ووثابة، التي حلقت في أغراض الشعر المتنوعة.

رقية ناظر والتجربة الشعرية

"لعمري أي نفس شفافة تلك التي ألمها ذلك الحادث القدري فأنشأت ترسم هذه اللوحة الحزينة....؟!

يشكل الأدب نتاجاً إنسانياً سواء أكان العقل الذي أنتجه ذكورياً أو أنثوياً، ولا ريب أن المرأة عموماً أفلحت باقتدار أن تظهر لنا دورها الفعال في بناء النهضة الحضارية للمجتمع الإنساني، وقدرتها الفائقة في الإسهام الفعال في الحراك الأدبي والثقافي. وفي ظني أن المرأة السعودية لاسيما الأديبة الشاعرة قد نجحت نجاحاً منقطع النظير في أن تقدم لقريناتها من نساء العروبة أنموذجاً مشرفاً للعطاء والإبداع، وأن تعبر في أدبها وإبداعها عن ذاتها، وعن مجتمعها، وعن محنتها الإنسانية.

والواقع أن الإبداع النسائي في المملكة لم يظهر إلا مع إشراقة سبعينات القرن الماضي، وطفق يسير بخطى واثقة، حتى أينع نضجه الفني، وفاض توهجه الفكري في العقود الثلاثة الأخيرة، لاسيما التسعينات، واخترق حواجز الممنوع، والرفض، والظهور بأسماء مستعارة، وشهد له بالجدارة الفكر الذكوري الذي كان يرى فيه خروجاً عن الأعراف والتقاليد.

وقد عبرت عن هذا ليلى الأحيدب في ندوة نسائية عقدت في التسعينات حين قالت "وقبل سنوات مضت كانت المرأة التي تكتب في الصحف تعتبر خارقة لعباءة المجتمع وخارقة لأعرافه الاجتماعية..".

وأضافت أن كل كاتبة تلفت الأنظار بكتابتها وتميزها يشكك في هويتها بل قد يقال إنها رجل متخف باسم امرأة واستشهدت على ذلك بردة الفعل على اسم غيداء المنفى، وتشكيك بعضهم أنها اسم لرجل بنى مجده الشعري على اسم امرأة".

ومن الملاحظ أن الإنتاج الشعري عند المرأة السعودية في بداياته كان يحلق في أجواء الطابع الرومانسي، المتسم بالحزن والمعاناة، والهروب من الواقع، والعكوف على (الأنا)، والتشظي بالانكسار النفسي والألم الوجداني، غير أنها سرعان ما أثبتت نبوغها، وغدت قادرة على أن تصل إلى القارئ بفنها الشعري، معبرة فيه عن أحلامها ورؤاها، وعن أحلام وطنها وقضاياه، "فقد استطاعت أن تتعايش مع تطورات المجتمع المعاصر، وتعبر عن الأحداث التاريخية والاجتماعية والإنسانية، فالحكومة السعودية قد أولتها من العناية والدعم الكافي ما يجعلها مشاركة في التنمية، شريطة أن تُؤخذ عقيدة المجتمع، وثقافته، وخصوصيته في عين الاعتبار"[1].

ومن شاعرات المملكة النابغات الشاعرة "رقية بنت أحمد بن عارف ناظر" المولودة بجدة، والتي لمع اسمها في الحياة الصحفية والإعلامية منذ عام 1390هـ، وتواتر إبداعها الشعري في أربعة دواوين هي: "خفايا قلب" عام 1406هـ "شمس لن تغيب" عام 1408هـ، "الريح والرماد"، و"الرحيل".

ولقد استوقفني ديوانها "الريح والرماد" الصادر في عام 1410هـ، وهالني ما تميز به أسلوبها الرائق، وأدبها الراقي، من الأصالة الفنية، والصدق الشعوري، والائتلاق الفكري، والتوهج الشعري. فما يكاد المرء يدلف إلى عالمها الشعري حتى يقطع بأن ربته لا شك نفس شفيفة، وروح حالمة، ووجدان يتسربل بالكبرياء، وموهبة فذة، وخاطر مبدع طوّع الشعر فغدا له منقاداً، سهلاً رقيقاً وعذبا.

ورقية ناظر شاعرة مبدعة، وكاتبة، وقاصة، ومذيعة، وقلما تتوافر تلك المواهب المتنوعة الثرية في أديب واحد. "وطبيعي أن يتحقق ذلك؛ لأنها كثيرة القراءة، وغزيرة المادة الأدبية والعلمية، وفي هذا إرباء إحساسها بالحياة، مع نضج تجاربها، التي تزداد على مر الأيام زيادة تكسبها المزيد من التجارب الشعورية"[2].

---

[1] المرأة السعودية الشاعرة ودورها في النهضة الأدبية - ص84

[2] ديوان الريح والرماد رقية ناظر - ص8

فتلك العوامل كفيلة بتنمية المواهب، وتكثيف التجارب، وحصد المعلومات، وخوض غمار الحياة الفكرية ببصيرة ثاقبة، ومعايشة الحراك الاجتماعي بفكر متقد.

والقارئ لديوان رقية ناظر (الريح والرماد) يدرك أن عنوان شخصيتها إنما يكمن في بيت شعري ختمت به أولى قصائدها "الفرقد الوضاء" وهو قولها:

إني أفاخر في الحياة بهامة
كالفرقد الوضاء في أعماقي[1]

إن القصيدة تعتليها روح الأنا حتى لتكاد تبلغ السماء علواً وشموخا، والأنا الشاعرية تتجاوز حدود الروح الأنثوية التي جُبلت على الرقة والضعف، بل هي "أنا" شامخة في كبريائها، ملتذة بذلك، ومتيمة به، وإن عاتبها الآخرون، وهي فيما يلوح غير عابئة لنقد أو عتاب، على استعداد أن تموت دون ذلك.

فلقد تلفعت الإباء سعادتي
وثوت طيوف الحزن في أحداقي
إن قيل إني بالشموخ متيم
فالذات تدعوني إلى الإغراق
وبه وُلِدتُ وتلك أكبر نعمة
أو نقمة تدعو إلى الإشفاق
من ظن أني غير ذلك جاهل
فالهامة الشماء من أخلاقي
فكأنها الأشطان توثق خافقي
وعزيمتي إن شئت خير وثاق

---

[1] المرجع السابق - ص14.

ما ضرني ليل أطال توجعي
وقد اتخذت من السناء نطاقي[1]

غير أن المرأة عموماً – ولستُ مبالغاً – إذا دلفت إلى عالم التصوير الفني وحظيرة البوح العاطفي، فهي الأقدر على وصف مشاعرها الأنثوية، وتصوير قضاياها الوجدانية والنفسية والاجتماعية، "وكتابات المرأة أو لغة الأدب والشعر من كتابات المرأة إن صح التعبير، تختلف في بعض المواقف عن كتابات المراة، أو يمكن القول بأنها أصدق تعبيراً عن مشاعرها الأنثوية منها للرجل"[2].

تأمل مناجاتها الحزينة في قصيدتها "الرحيل" وهي تصف شعورها المحرق، وعاطفتها الجياشة إزاء ذلك القدر الحتمي المتمثل في رحيل الحبيب.

قال الرحيل غداة.. قلتُ في كمد
إن الرحيل كهجر الروح للبدن
فأجاب والآهة الظمأى.. تمزقه
من شفّه الوجد لم يعتب على الزمنِ
وكتمت في خافقي حزني.. على مضض
كيف السبيل.. وما للقلب من رسن
كم فرق الدهر من قد كان يجمعهم
وردُ الصفاء.. ففاض الورد بالشجن
إن تسألوا الصبّ عن طيف يؤرقه
فالبين أسوى ما يخشى من المحن
يبدو الزمان سخيٌ في تبسمه

---

(1) الريح والرماد – ص13

(2) المراة السعودية الشاعرة ودورها في النهضة الأدبية ص83

وإذا أشاح كأن الشيء لم يكن[1]

لعمري أي نفس شفافة تلك التي ألمها ذلك الحادث القدري فأنشأت ترسم هذه اللوحة الحزينة؟! وأي قارئ ذلك الذي يستمع إلى هذا الأنين الموجع فلا يهتز له قلب، ولا يتحرك له ساكن؟!. إن الأبيات لا تخلو من حكمة، فالدهر لا يؤمن جانبه، والفراق أشد ما يكابده المحبون، والزمان إذا كشر وأشاح فلا أمان..!

وفي ظني أن القصيدة تنتظم كلؤلؤة في عُقد القصائد الغنائية، فالموسيقى بعنصريها الخارجي والداخلي سارية في القصيدة كجدول ماء رقراق.

"ومن البديهي أن يكون الثراء العاطفي أظهر ملمح تتوافر عليه تجارب المرأة الشعرية، والصدق خاصية أخرى تكتنز به أشعار المرأة، ويندر أن يعترى هذا الصدق زيف، وأظن أن المرأة وإن أجادت الانفعالات في حياتها العامة لا تجرؤ أو ربما لا تقوى على افتعال موقف بياني، وقد تعودت أن تحشد له قواها العاطفية"[2].

---

(1) الريح والرماد - ص18

(2) بيادر - دورية فصلية ثقافية - نادي أبها الأدبي - ص17 - العدد44- 1425هـ

ما بعد الرحيل ليحيي توفيق

" وظني أن الشاعر بعيد كل البعد عن العشق الصادق، حين يداعبه الشك، ويرتحل الصبر عنه، ويصرّ على عدم التلاقي.... ! "

لقد اطلعتُ على قصيدة الشاعر يحيي توفيق "ما بعد الرحيل" غير أنها سرعان ما استوقفتني بندائها البعيد وبصورها الفنية التي اكتظت في مقدمتها:

يا جرحي المخبؤ في أعماقي　　　يا حزني المصلوب في أحداقي

فالجرح النفسي الدفين الذي ينتشر داخلياً في أعماق الذات أشد فتكا وألماً وضرراً من تلك الأمراض العضوية التي يتعامل معها الطب، إنه أبعد غوراً، وأشد عمقاً فهو في عالم المجهول، وفي عالم النفس المعقدة التي يحار الطب في مساربها.

ويمدنا الشاعر بصورة أخرى في البيت ذاته "يا حزني المصلوب في أحداقي" فشاعرنا من أولئك الذين تحتجب دمعتهم ولا تفيض، وإنما تظل حيرى، حبيسة الأحداق، وذلك أشد وطأة على الإنسان؛ إذ هو يكتم غيظه، ويتأثر نفسياً ويشتد الثقل على قلبه، كما يقول ابن حزم: ((ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة، وكثير المشاهدة، ومتمادي الأنس وهذا الذي يدوم ويثبت...، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا)) [1].

ولا ريب في جمال التصوير الفني؛ إذ يصور حزنه مصلوباً في أحداقه. ولا يخفى أيضاً جمال كلمة (دمي) وحسن دلالتها في قوله:

---

[1] طوق الحمامة – ابن حزم - ص24، 2

((أنا كلما حاولت نبذك من دمي))

غير أن ضعف التصوير في الشطر الثاني

"ركضت إليك يدي تشد وثاقي"

يصيب الشطر الأول بالوهن، ويميل به عن مسار الجمال، وقد أقحم الشاعر هذا المقطع.

أما بيته الرائع الذي يموج بالنفس، ويستلبها، فتنقاد إليه مذعنة:

ويمـوج نبـضك في دمـائي صـاخبا حتـى أحـس هـواك في أعراقـي

لكن من كان عشقه نابضاً بالحياة و بالدماء فلا يكون طيفا عابرا:

ويلـوح طيفـك عـابر في خـاطري يختـال في روحـي وفي آفـاقي

والطيف وإن ألف فيه "الشريف الرضي" كتابه (طيف الخيال) إلا أنه لم يكن تعبيراً يناسب التجذر الفكري، ولم يكن ذلك فحسب، بل وصف الطيف بالعبور، فكان عبوره يدل على أنه لم يستحوذ على قلب الشاعر إلا لحظات محدودة، سرعان ما يمضي، فيأتي غيره ليحل مكانه. والخاطر من الخاطرة وهي الفكرة التي تكون جزءاً من الأفكار التي تمر على خيال الفرد. والطيف لا يختال إنما هو التمثيل والتشخيص. على نحو ما نرى في قوله:

يـا حـبي الموعـود بالإخفـاق يـا حزنـي المـوؤد في أعمـاقي

لو كان هناك من شك ما أقدمتَ على الحب، ولم يصدق الحب ويستقر في الأعماق، ثم مادام حزنك مؤود فأنت إذن في حل من الشقاء، ولا تثريب على المحبوب فإن الخطر على من يحيا حزنه ولا يقتل.

وينقض الشطر الأول من هذا البيت قولك في البيت السابع:

مـــا كـــان في حـــسبانه أن الـــذي　　　بـــيني وبينـــك ينتهـــي بفـــراق

وقولك:

لعبـــت ريـــاح الـــشك في أرواحنـــا　　　مـــن بعـــد طـــول تـــألف ووفـــاق

إذن فالعلاقة الأولى قائمة على الصفاء والنقاء لا على الشك والريبة.

وظني أن الشاعر بعيد كل البعد عن العشق الـصادق، حـين يداعبـه الـشك ويرتحـل الصبر عنه ويصرّ على عدم التلاقي:

فتقوضـــت أحلامنـــا وأحاطنـــا　　　ليـــل ينـــوء بحـــيرة وشـــقاق

وتمـــزق الحـــب الكـــبير ولم يعـــد　　　للـــصبر في قلـــبي وقلبـــك بـــاق

وتعثـــرت خطوتنـــا تمـــضي بنـــا　　　كـــل علـــى درب بغـــير تلاقـــي

أين هو من قول جميل بثينة:

وإنـــي لأرضـــى مـــن بثينـــة بالـــذي　　　لـــو أبـــصره الواشـــي لقـــرّت بلابلـــه

وتلوح الأنانية في قصيدة شاعرنا في مواضع عديدة، فضمير المتكلم يتكـرر في البيـت أكثر من مرة، والإضافة إلى الـذات ملمـح واضـح المعـالم، ومباشـرة الأنـا في مـستهل البيـت الثاني، وتقديم الإضافة إلى ذات الشاعر في قوله "بيني وبينك" وفي قلبي وقلبك، وتعلـو الأنـا في قوله:

أنـا إن قبلـت الحـب منـك فـشيمتي   تـــأبى علـــي تقبـــل الإشـــفاق

والأنا هذه وإن كثرت وفاضـت إلا إنهـا تثبـت عـرى القـصيدة بأحاسـيس الـشاعر فتطلع علينا كتجربة شعورية. والقصيدة تزهو بالدلائل المشعة مثل:

- تكراره للنداء والياء بالذات يوحي ببعد التجربة التي تولدت عنها القصيدة.
- وحشده لكثير من أفعال المضارع تدل على التكرار والاسترجاع باستمرارية متواصـلة، كما في كلماته: يمور نبضك، يلوح طيفك، يختال، التنقل،
- أما القافية فحشد لها الشاعر ما ينبئ عن التأثير والأنين حيث زرع المدة قبل الروى ثـم القاف المجرورة.

كما ابتعد الشاعر عن مباشرة التشبيه والاستعارة، واتكـأ علـى أسـلوبٍ حـديثٍ في الصور، كمثل مناداته للجرح: يا بلسم الأوجاع حيث تتبلـور الـصور الفنيـة وتلمـع أقـواس الخيال، ويشرق ضياؤه. وهو ما يسمى حديثا (بالعدول) حيث عدل عن تشبيه حالته بالجراح الأليم بالبلسم الذي يستعذبه لاشعورياً، فكأنهما حقيقة واقعة لا خيال. أما لو تتبعنـا دلائـل الجمل الإسمية والتي تدل على الثبات، وما صاحبتها من جمل فعلية ذات مـدلولات شـعورية موحية لطال بنا الأمر، غير أننا نشيد بحسن اختيار الشاعر لهذه الجمل.

قراءة في شعر حسن الزهراني

"وهو يعارض نونية ابن زيدون، في معاناة تحاكي معاناة شاعر الأندلس صاحب النونية المشهورة، التي عارضها آلاف الشعراء..."

لست أدري هل الحب الأبوي طبيعة فطرية أم ناجم عن تواصل التلاحم؟ ولست أدري هل يتنامى أم يحتجب بفعل القوامة الأبوية الحازمة؟!

أكبر الظن عندي أنه طبيعة فطرية، وأنه يتنامى بمرور الزمن. وهذا ليس من تجربتي الخاصة؛ فأمي ماتت مبكراً، ووالدي احتل مكانة الأم والأب. وما فتئ فيضاً من الحنان حتى بلغت الخمسين من عمري.

والذي دعاني لهذا الاستهلال الموجز هو أني لم أقرأ شعراً أو نثراً في مقدمة الرسائل الجامعية، إلا وأجد فيضاً من الحب وكلمات مجاملة للأم، فهل غلبت عاطفة الأمومة على كل ما يبذله الآباء للأبناء ولأمهاتهم؟! تلك ظاهرة مشاهدة حتى في بيتي؛ فلا إنصاف للأب في مواجهة الأم من الأبناء. كما دعاني إلى تلك التقدمة الآنفة وقوفي على قصيدتين متجاورتين للشاعر "حسن الزهراني" أولاهما تتمركز حول الأب والتغني بحبه:

هذا أبي من ذا يفاخرني ... بأبيه من يرقى به النسب

كم بات في المحراب مبتهلاً ... ما دب في أعضائه نصب

ترك الحياة لكل من خُدعوا ... بجمالها وسباهم النشب

والقصيدة كاملة لا تتضمن أي كلمة حب أو إشارة إلى عاطفة أو دلالة للألفاظ ولا دلالة للتراكيب، وهي أشبه ما تكون بالقصائد المدحية.

ولننظر إلى القصيدة الثانية في (الأم) التي تنبض بروح الحب، إذ يبوح بعواطفه تجاه أمه التي احتلت وجدانه، فهي النور المضيء، وهي البلسم الدافئ وهي عطر حياته:

أماه يا شمعة بالحب تأتلق … لكي تضيء حياتي وهي تحترق

الا يحترق الأب ويحترق معه ماله، والمال أمر عظيم ((وجاهدوا بأموالكم وانفسكم)) قدم المال في سائر الآيات الكريمات، وليس هناك أب لم يقدم كل ماله لأبنائه، تأمل قوله يبث أمه عاطفته الجياشة الملآنة بالحب الدافق:

أماه يا بسمة تحيي رفات دمي … إذا استبدت به الأحزان والحرق
كم ليلة من ليالي العمر داجية … تنام عيني ويضني عينك الأرق

وكم من الليالي الطوال، تعذب فيها الأب لعذابات أسرته، لاسيما إذا مرض فرد منها، ودعا ذلك إلى التنقل بين المراكز الطبية، وكان الأمر من قبل شاقاً جداً أيام كان الطب الشعبي سائداً، ويحتم على الأسرة الانتقال والترحال إليه حيث يوجد.

يا وردة ما تسنى عطرها أبدا … يفوح منها على طول المدى عبق

وهكذا تفوح القصيدة بالحب الصادق نحو الأم، وما أظن القصيدة الأبوية التي ضمنها ديوانه "صدى الأشجان" إلا كونها جبراً للخاطر لما أراد أن يصدر الديوان بقصيدة الأم، فكأنما تذكر الأب..!

وتظل الأمومة هاجسه فيكرر القصيدة في ديوانه ((ريشة من جناح الذل)) الذي يصور مشاعر الأبناء تجاه أمراض الأمومة، ومعاناتهم من جراء ذلك، ثم الوقوف على قبرها واجترار ذكراها.

وأثر الأمومة يحتل كيان الشاعر حسن الزهراني، بل يتعانق مع تكوين الشكل الشعري، فهو في ثورة الأحاسيس المثيرة في مشهد قتل الأب للأم وبعض أطفالها على مرأى من ابنتها، فلم يستطع الشاعر أن يمنع المس الشعوري الذي أصابه من تلبس أحاسيس الفتاة المفزعة التي لم تدر ما تفعل، أتجري يمنة أم يسرى؟ أتنخرط في بكائها أم تستغيث وتهرع إلى النجدة..!

ومن ثم جاءت القصيدة يتلون شكلها بلون الحدث المأساوي، واصفاً حالة الفتاة وحالة الشاعر معاً، وقد عمد الشاعر إلى التفعيلة المتعددة أو المنفردة في الأسطر المتفاوتة، في قصيدة حزينة تكتسي ثوب الحداد، ويعلو فيها صوت الأنين المأساوي.

أبتاه كيف قتلت أمي، كيف أطفأت الضياء؟
أبتاه كيف زرعت في دربي الشقاء؟
أبتاه كيف اغتلت أغلى الناس من أجل النقود؟
اغتلت كل سعادة في الوجود

وتارة يعلو صوت الأنين المرّ الذي ينبع من صوت المشاعر:

دعني أعيش مع رحاب
دعني أعيش مع رحاب

وتارة تعود إلى استشراف المستقبل الذي سيتلفح بسواد الحادث، وتكون صورته ماثلة في كل مكونات الحياة، تطفئ كل سعادة وتغتال كل أمل:

أبتاه أين تفر من رب السماء؟
ويداك بعد القتل تغمرها الدماء

أبتاه ضاعت كل آمالي وأحلامي العظيمة
وفتحت عيني كي أرى أقسى جريمة
في ليلة السبت الأليمة
شاهدت أمي وهي تُذبح كالبهيمة
ما بات للدنيا ولا للعمر عندي أي قيمة[1]

ويتعالق التكوين الذهني القديم مع التكوين الذهني الحديث، ويتماوجان معاً، ويصطرعان ويثيران كوامن الأحاسيس، فالشاعر الحديث لم يستطع البوح بما هو واقع حياتي يتعلق بقضية الحب، فكل إنسان ذكراً كان أو أنثى، لاشك قد خاض غمار الهوى والحب على نحو ما، غير أن الكل يدعي البراءة، ويتنصل من تلك القضية الشائكة..!

غير أن كلاً منا يغني على ليلاه ولاسيما شاعرنا، وأخشى أن ليلاه هي زوجته:

عيناك يا ليلاي أشعلتا دمي	قفزاتها بين الضلوع رماح
ليلاي لن أنسى هواك فعذبي	قلبي فما تؤذي القتيل جراح
سيظل نبض هواك يجري في دمي	ما جن ليل أو أطل صباح
يا من فتحت لمهجتي كون الهوى	وتهامست برحيقك الأقداح[2]

فالأبيات روضة تراثية، وألفاظ الشاعر وفكره ونجواه تعود بنا إلى الماضي البعيد، وتستدعي من الذاكرة العربية قصة قيس مجنون ليلى، فألفاظ: ليلى، والرماح والهوى، والقتيل، والجراح، والصباح والمساء، والأقداح، حشدها الشاعر في أبياته، فتذكرنا بتلك القصة العربية القديمة.

---

(1) ديوان صدى الأشجان – حسن الزهراني – ص19

(2) المرجع السابق – ص45

وهو يعارض نونية ابن زيدون، في معاناة تحاكي معاناة شاعر الأندلس صاحب النونية المشهورة التي عارضها آلاف الشعراء، ومع تأخر شاعرنا فإنه لم يمزج قصيدته بألوان عصرية ومع كل ذلك فهي وعاء لمشاعر الشاعر الزهراني الواقعية.

تساقط الدمع وانشق الثرى فإذا ... فسائل الحزن تنمو في روابينا
تلك الروابي التي كم فوقها ركضت ... أرواحنا في سرور كان يحوينا
عشرون عاما وصدر الحب يحوينا ... ونحن نركض في دنياه لاهينا
وكفه من سهام البين تحمينا ... وثديه من رحيق الأنس يروينا[1]

تتكاثف الأصوات في شعر حسن الزهراني، فالذات يعلو شأنها، والصوت الفردي يتبدى من وراء الصراحة المباشرة، والصوت الوطني يحتل مساحة كبيرة من الدواوين الشعرية، و(الباحة) تجوس في أعماق إبداعه، ثم هو يتلاحم مع عروبته وبني دينه في شعره، فينبجس آلاماً وحسرة وحيرة وأنيناً على واقع الأمة، التي ترتفع ضدها رايات الحروب، للقضاء على العقيدة وعلى الإنسان وعلى الدماء والحرمات والأعراض والأرض والعمران، إنها المعارك المدمرة التي يملأها الإعلام ناراً وظلاماً.

إني أودع وجهك المسود
يا عام المآتم.......
قاحل القسمات.. منتصر الهزائم
مضمحل الصبر: يلبسني خنوعي
إني أودع كفك الحمراء

(1) صدى الأشجان ص107

إنها سنين طوال تسلم المواطن العربي من سنة دم إلى سنة دم أخرى، وشلالات من الحزن تنهمر كما السيل على الأمة، وكل مسلم عربي يلوك الألم، ويجرع مرّ العذاب:

وتذوب في رمل الأماني زفرتي
وتطير بي فوق المواجع سجدتي
واقوم أقطف من غضون الصبر[1]

ويتكاثر التناص في شعر الزهراني، ويكشف لنا عن ثقافة متنوعة تنعتق من طيات التاريخ، وتتعانق مع الديانات السماوية، وتمثل ذلك جلياً في قصيدته "شرق وغرب" ومشكلة الإنسان أن شرقه يمتزج بغربة فتكون الحروب وتكون الأمواج، أما الأرض فهي ثابتة المشرق والمغرب، وهو يوظف العقاب والذباب لصراع البشر وتهافتهم على المادة:

قال العقاب.. وقد أصاب
وقع الذباب
على الشراب
فما رفعت يدي
لأني كنت أعمى
أجرع العثرات
في الطرقات
من حفر المطامع
وهي صاب

(1) أوصاب السحاب – حسن الزهراني – ص22

فكم أعمى الطمع من أفراد، ومن مجتمعات، ومن دول ومن أحلاف، ثم ينقلنا إلى حكمة لقمان التي تكاد أن تختفي وتنزع من الفعل البشري الذي تتحكم فيه الأطماع حين يطرح السؤال بعد أن أعيته رؤية الحكمة في الفعل البشري.

لقمان
كيف أصب عقلي
في يدي وأسير زهواً
في خيوط
ومن شعاع الوعي
أشعل زند بوحي حكمة
للمدلجين إلى ضريحك
يسألون جنادل الأوهام
هل أبقى لنا (داود)
تحت فسائل الإخفاق
مزمار[1]

فقد استقي من التراث قصة الذباب، ومن القرآن حكمة لقمان ومن الديانات الأخرى حكاية داود عليه السلام، والمتابع لقراءة النصوص الشعرية يلحظ أن الديوان يعيش أزاهير التناص، بتوظيف فني جميل، تارة بإشارات إيحائية رمزية كثيفة تستدعي الحدث الماضي، وتارة يغمرنا بالواقع الذي يرسمه الإعلام ضياء بينما هو ظلام في ظلام

فإذا السراب
أمامنا

---

(1) أوصاب السحاب ص48

وإذا السراب

وراءنا

وإذا السراب يلفنا

من فوقنا من تحتنا وإذا بنا في التيه

يحضننا اليباب[1]

فتشرذم إسرائيل أربعين سنة في صحراء سيناء، وتشرذمنا المعاصر أكثر من قرنين، والنهاية يعلمها الله، عوامل لاشك تسفر عن مفارقات، وتولد مأساة لاسيما في النفوس الشاعرة.

والقارئ لشعره الحر يدرك عمق الفكر الذي يتمحور فيه الإبداع، فهو يبحر بنا في أعماق النفس البشرية، ويستذكر التاريخ البشري، ويتفاعل مع الحراك الاجتماعي، ويتلفح بقضايا الوطن، ويشدو بها.

وهو يوظف الفكر التراثي واللغة التراثية ليشكل بها التكوين الثقافي المعاصر ولكثافة المضمون لديه يبني قصيدته "نخيل البوح" على شكل مقاطع قصيرة وديوان "أوصاب السحاب" يغلب عليه الشعر الحر، ويتشكل فيه فكر الشاعر ومصادر تكوينه، بل يكشف عن اتجاهه الفني الذي يتماهى مع وضوح الفكر وسلامة التركيب والاستدعاء التاريخي في مزج لمكونات الإبداع، لكنها تتجلى واضحة المعالم.

وخصّ الشاعر وطنه بديوان (قبلة في جبين القبلة) تباهي فيه بزيادة رجال الوطن لمنطقة الباحة، وكشف فيه عن أوجه التقدم الذي رعاه ولاة الأمر، ومنهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله، وكذلك نظم في ولي العهد سمو الأمير سلطان وغيرهم، وكذلك شارك الشاعر أبناء المنطقة مناسباتهم الإقليمية فالشاعر حاضر في قلب الوطن، مواكب لحراكه ومسيرته التطويرية، وشعره سجل تاريخي وطني لمنطقة الباحة وقد استهل ذلك الديون بالإهداء الوطني:

---

(1) أوصاب السحاب – ص ٩١

إلى كل شبر من ثرى الوطن الغالي أسطر حبي من سنا نبض إجلالي
إلى كل أهلي في الجزيرة كلها إلى السؤدد الراسي إلى الشمم العالي
إلى الوطن المنقوش في فلق الهدى وطهر الندى في عمق عشقي وآمالي

أما بعد:

فالشاعر حسن الزهراني من مواليد منطقة الباحة عام 1381هـ التحق بالتدريس وتواصل مع منتديات الثقافة والأدب وشارك في عضوية كثير من الجمعيات، وهو ذو علاقات وطنية، وله مشاركاته في اللجان في منطقته يحضر منتدياتها وفعالياتها، وهو عضو في النادي الأدبي، وقد رأيتُ فيه وإخوانه الأعضاء حراكاً ثقافيا، وتفانياً في خدمة الثقافة، وقد سعدنا بصحبتهم أربعة أيام فشكراً لهم وثناء عاطراً.

وللشاعر ثمانية دواوين شعرية منشورة، تحتاج إلى دراسة أكاديمية متأنية فهو أهلٌ لها، ودواوينه لاشك تثري الرسالة العلمية، ومن أهمها: "أنت الحب وفيض المشاعر وصدى الأشجان" و"ريشة من جناح الذل" و"قبلة في جبين القبلة" و"قطاف الشغاف" و"أوصاب السحاب".

وإني أراه شاعر وجدان، ليس لشعره الذاتي فحسب، ذلك الذي يتغزل فيه أو يتبادل المشاعر مع أقربائه أو يقف على مشاعر الأمومة، وإنما لكون شعره نابع من غليان وجدانه، يقف عند المثيرات الوطنية المباشرة، أو تستفزه الهجمات على أمته، أو تثير كوامنه المواقف الإنسانية الوجدانية.

وبناء شعره يقترب من شعراء الطبع الذين يتدفق إبداعهم من خلجات حواسهم ولا ينمقون شعرهم بالتأمل وإعادة التبصر المرة تلو الأخرى في القصيدة؛ إنما هي نظرة عجلى للتقسيم وتلافى الأخطاء الظاهرة فحسب، ولذلك فهو ثري العطاء حاضر النظم في المناسبات الوطنية وهذا اتجاه لا عيب فيه عندي.

ومن دواعي البوح الصريح واقع العصر الإسلامي والغربي المعاصر الذي يعلن التمرد والتعدي على الشعوب الضعيفة، وعلى الحريات الفردية والجمعية، فالعراق وفلسطين ولبنان وأفغانستان وغيرها من بلدان الإسلام، تتنزل عليها النكبات من كل سماء

وكل جهة، وتلك مؤثرات إجتماعية وواقعية تدفع بالشاعر ذي الحس المرهف أن يعلن الثورة هو الآخر، ولكن على ذلك الظلم، وعلى تلك العنجهية الزائفة. يقول الزهراني:

على أي شيء أيها القلب تصبر   وكل جديد في زمانك يقهر

ويقول:

بكيت لحيرتي وهو أن أمري   عليكم عندما غاب الضمير

الجوهرة الحمد واللوحات الوجدانية

"والقصيدة تكشف عن الانحياز للحياة الزوجية أكثر حين يعلو خفقان قلبها الملتاع، ويرتسم السؤال الحائر (ترحل؟!!)....."

كلما تناولت الشعر الوجداني الذي اشتهر في أوساط النقاد الرومانسي ألحت عليّ وشائج الصلة بين الشاعر والطبيعة، والشاعر والمرأة، وصورة المرأة في الشعر العربي. وتبين لنا كم كانت المرأة، ولم تزل الملهمة، والموحية لعِذاب الشعر العربي، وشعراء العربية الفصحاء.

غير أني رأيت أن الدراسات النقدية التي تناولت المرأة كشاعرة أو أديبة لم تفي حقها من تسليط الضوء على إبداعها، ومكامن التوهج الفكري عندها، ودورها الفاعل في الحرك الأدبي والثقافي والفكري في المنطقة العربية. لذا فقد جمعتُ دواوين المرأة العربية مع أختها السعودية، وعزمتُ على دراستها منذ سنتين حين رتبت مكتبتي ترتيبا حديثاً في مقرها بتبوك، ولكن شغلني، وحال دون إتمام ذلك الأمر بعض الأعمال الإدارية والبحثية، الأمر الذي أبعدني عن ذلك زمناً، ولكني أعود هذه الأيام معيداً التفكير في تلك المهمة الكبيرة، متواصلاً مع الدراسة، لاسيما وأني لم أكد أقرأ ديواناً من الدواوين النسائية إلا وقد واجهني عاصف من الوجدان.

والوجدان عند المرأة لاشك يتلون بتلون أشكال المكونات الذهنية التي تشعل الأحاسيس، فالوجدان الذاتي الذي يتمثل في الحب يحتل مساحة كبرى من ديوان المرأة السعودية الشاعرة، رغم عوامل المنع والرفض والحجب لهذا اللون الشعري في بلادنا زمناً، لكن بعض الشاعرات تجاوزن تلك السدود وانطلقن بإبداعهن وأشعارهن، وفي مقدمتهن عزة فؤاد شاكر، ومريم البغدادي، والجوهرة الحمد.

ونقف عند الشاعرة (الجوهرة الحمد) في ديوانها "صوت مكسور" ملياً للوقوف على ملامح القصيد في إبداعها. وقبل الإبحار في أشجان الشاعرة فإني أرى أن قراءة الناقد والمتلقي لا تكون بالضرورة تفسيراً لواقعية وجدان الشاعر، أو تأويلاً لمكنونات ذاته الشاعرة وحالته الخاصة، بل ربما يعبر الشاعر عن وجدانيات مجتمعه، ويأتي شعره كلوحة مكونة من ترسبات المجتمع، تستمد تجاربها من أمطار الحياة اليومية. ونحن حين نقف عند التجربة الشعورية والشاعرية لدى شاعرتنا المبدعة (الجوهرة الحمد) فلا نتحدث عن ذاتها، بل نتحدث عن تجربتها الشعورية سواء كانت من الداخل أو الخارج.

وتستهل الشاعرة الوجدانية (الجوهرة عبد الرحمن الحمد) ديوانها "صوت مكسور" بنبض شعوري يداعب الإنسان، الرجل والمرأة معاً؛ فكل منهما مسكون بهاجس الحب بألوانه وأطيافه، وكل منهما مسكون بهاجس العشق والشوق، ولكن نبض هذه اللوحة من امرأة شاعرة يجلي لنا مدى عمق الحب في أحاسيس المرأة، فلا وهج يثير الأحاسيس أشد من آمال المحبين، ثم شعلة الحب الدافئ، تقول في قصيدتها "شواطئ الفرح":

عصف بي الشوق
بحثا عن...
الحب الدافئ
بين...
الأشرعة المنشورة
وأحرف...
العشق المسطورة[1]

والشعور الوجداني دائم الحضور في كيان المرأة، فعواطفها فوّارة بالحب تسبق تأملها أحيانا كثيرة، ولذلك يتمحور إحساس الوجد دائماً.

(1) ديوان صوت مكسور – الجوهرة الحمد - ص7

في غور الوجدان
همسك...
نسيم أيامي
حديثك...
صمت لآلامي
نورك...
سحر ليلٍ
وضوء قمر
بدد ظلامي
وسرى نغماً...
وغمرني نشوة
وعبر
مروج أحلامي[1]

وتلك قضية بشرية، فمروج الأحلام خاصية إنسانية فهي تكون نغمة تارة إذا كانت محطة استرخاؤه بين رياض خضراء وزهور وشلالات ماء، لكن لو استمر هذا لكان مرضاً ووبالاً لاسيما إذا تداخل مع القراءات الذاتية.

والشاعرة تقف وقفات وجدانية تنبض بالتساؤلات الشعورية وتستلهم الحدس، وتطل على هوة المستقبل الغامض، وهي علامات توجس من الأمومة ومن الزوجة ومن المتأمل بالخطبة أو المنتظر بالأحلام، إنها اختزال الأحاسيس ذات الخواطر المتدفقة من نبض الشعور والفكر والسلوك الواقعي تلك تتمثل في لحظة الرحيل فتشكل لنا موقف المرأة الحاضرة وتلاحمها بين كيان المرأة عبر الأزمان الماضية والحاضرة، وتتلاحم المرأة في كل مكان

(1) نفس المرجع - ص9

فلا تصرفها المحن، وإنما ترسخ عواطفها وتثب واقفة باهتزازتها واضطراباتها زمن الرحيل عبر قصيدتها "أنات الرحيل":

فاطلقت بقهر
عويل
وأنات
في الرحيل
وعلامة حيرى واستفهام (؟؟)
سكنت على الجبين.. [1]

والقصيدة تكشف عن الانحياز للحياة الزوجية أكثر، حين يعلو خفقان قلبها الملتاع، ويرتسم التساؤل الحائر (ترحل؟) تهامس به حبيبها الذي انتمت إليه، ولا يكون إلا الزوج:

ترحل؟!!
وإليك...
وقعتُ انتمائي
ترحل؟!!
وبك...
أفردتُ غنائي
ترحل؟!!
بعد أن أسدلتُ ضفائري
وزينتُ...
ثوبي المسائي؟!!

---

(1) ديوان صوت مكسور – ص12

ترحل؟!!
وقد.. أشرعت عطائي
وأهديتك...
باقة الشوق والحنين.. [1]

إنها تحكي قصة الفراق في مرحلة عقد القران، وتحكي قصة الإبتعاث بعد نية الزواج وإعلانه، وتحكي غير ذلك من قضايا المرأة المعاصرة، فنبض الشاعرة لوحات اجتماعية تكشف عن معاناة المرأة في مراحل حياتها العائلية الأولى.

والشاعرة الجوهرة تضعنا أمام معرض تشكيلي من اللوحات النفسية الشعورية، وكل منا يدرك تعدد المؤثرات البشرية على إنسان اليوم، وهي ترسم لوحة رائعة حزينة لانطفاء وهج مشاعر الحب الأولى في الحياة الزوجية، وما يترتب على ذلك أحياناً من انفصام عرى الزواج أو الطلاق.

وقد أبدعت الشاعرة في رسم الاهتزازات الشعورية في قصائدها (بقايا حب) و(صرخة الأسى) و(والماه)، تقول في قصيدتها "صرخة الأسى":

ساعطي..
قلمي الحرية
أن يسطر
صرخة الألم
وكأنها.. هزة أرضية
الشرخ كان..
حاداً وعميقاً
أجبر البركان...

---

(1) ديوان صوت مكسور - ص12، 13

أن يعلن ثورته
وشظايا كلمات
جريحة
تناثرت على البقاع
فحولت عالمي...
إلى عزلة أبدية
وتربع الأسى الدائم..
والحزن القائم...
على عرش عمري...
وسنواته المنسية [1]

إنها قضايا اجتماعية تقترب من المرأة، ولا يسلم الرجل من شرورها، وتتسع الجراحات في هذا العالم على إنسان اليوم، ويفتر أوج الحياة الزوجية، وينتهي المطاف إلى الطلاق، الذي احتل مكانة كبيرة في الرسم البياني المأساوي حتى وصل نسبته في مجتمعاتنا العربية إلى (1 من 3)

وكثيراً ما يسفر تعالق الحياة مع الإنسان إلى مكابدة ومعاناة، من أشدها معاناة العزلة والهجران، ناهيك عن أن تداعيات الطلاق أشد وطأة على المرأة، فطبيعة الحياة وسنة الله في الكون أن جعل المرأة سكن الرجل، ولا تستقيم العلاقة الأسرية إلا بالحب. والحياة الزوجية نفسها أمل كل رجل وامرأة، ولاشك أن الفتاة إذا طال انتظارها، وشارفت على العنوسة، فإن حياتها حينئذٍ تعد نوعاً من الألم المرير. وها هي الشاعرة المبدعة تعبر عن تلك المأساة في قصيدتها العذبة "هذا قدري"، التي تمثلت فيها حال فتاة تعيش هذه التجربة.

---

[1] المرجع السابق – ص50، 51

الصمت يوجعني
والشوق يلهبني...
ويؤرقني الانتظار
أسافر...
في جروح الصبح
وفي عذاب العشية
عصفور...
فقد جناحيه
في غابة وحشية
ينتظر...
رحمة الليل
وإشراقة النهار
شُحّت الكلمات
وبعدت المسافات
فغابت...
عن سمائي.. الأقمار
وخلت...
من حقولي الأشجار
وذوت...
في راحتي الأزهار
وفقدت...
قصائدي الأشعار
وكل
يوم ينهار

في داخلي جدار
سئمت الانتظار
وسئمت الإبحار
في بحور العذاب والشقى..
وليل معتم
ليس له منتهى[1]

فتلك قضايا شائكة، تموج بها مجتمعاتنا العربية في كل زمان ومكان، ولعمري لا دراسات بحثية ولا مؤسسات خبرة ولا هيئات اجتماعية ذات قدرات عالية تقبل أن تضطلع بهذه القضايا الشائكة في منهجية علمية، وهوى مجرد لإنقاذ المجتمع من التمزق والتشرذم الناجم عن هذا النوع من القضايا، تأمل قولها:

هذا.. هو جرحي
هذا.. هو دربي
هذا.. هو قدري
ولطالما.. انتظرت
رحمة الأقدار

وثمة قصيدة تجاورها بعنوان (طال الصمت) تفيض هي الأخرى بالمعاناة، وتطلق صرخة الألم والعذاب.

إن ديوانها "صوت مكسور" كشف لنا عن قضايا اجتماعية تفجرت في المجتمع لاسيما النسائي، ومن ثم فهي نبض المرأة المعاصرة تستلهم قضاياها وتحس بإحساسها وتصور آمالها وأحلامها وتفاعلاتها وتلاحم شعورها وصدى التفاعل الاجتماعي. وليس معنى ذلك أن

---

(1) ديوان صوت مكسور – ص68، 69

معاناة المرأة عندنا تفوق معاناتها في المجتمعات الأخرى محلية كانت أو عالمية، ولكن قدراً من الغموض والتستر غشي قضايا المرأة عموماً، نظراً للتقاليد العربية السائدة في البلدان العربية.

ولغة الشاعرة تلجأ إلى الوضوح والنهل من معين الكلمة الشفافة البيضاء وقد أعرضت عن لغة الغموض، وسبرت أغوار فلسفة الشعور الذي يتواصل مع الغموض. وتتبلور فلسفة الشاعرة في بناء تراكيبها اللغوية من خلال توظيف اللغة لكشف الغامض من الخلجات الشعورية بل إعلان الحقيقة الداخلية لمعاناة المرأة وكشف ماهيتها، والأمل في معالجتها والدعوة إلى البوح بها، فمرحبا باللغة السليمة التي كشفت عن خبايا دفينة.

شعر غرامة سوط من العذاب

" شاعرنا من أوائل الشعراء الذين غرقوا في الشكل الحديث للقصيدة بل إن إبداعه لم يتجاوز إلى غيره، الأمر الذي جعلنا نفتقد التمازج بين شكلي القصيدة العمودي والسطري... "

التفكك التركيبي يوظفه الشعراء ليتركوا فضاءات تستدعي فيضاً من المعاني، أو فيضاً من استدعاء الوقائع والحوادث، تخضع لذكاء القارئ، وقدرته على تعبئة فراغاتها إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

فقصيدة (خارج الطقس) هي خارج الفيض الوجداني، وخارج الشعور الفكري المباشر، وخارج البرهان الدلالي، والشاعر "غرامة" أوقعنا في فيض من الخيالات والأوهام، فالقصيدة تكاد أن تخرج من دائرة المعقول إلى اللامعقول، ولست أدري هل كل قارئ على استعداد فطري وثقافي بالدرجة التي تمكنه أن يكمل سطراً مبهماً في القصيدة؟!

حتى فلاسفة الشعر التجريدي يقفون عند قصيدة أو قصيدتين فحسب ثم ينفضون. فلنقرأ أنا وأنت:

((تغيب الوجوه))..... عن ماذا؟! ولماذا؟! وكيف؟! ومن تلك الوجوه؟

((وتمتد للأفق كل الوجوه)) لو علمنا ترابطاً بين الجمل لقلنا إن الشاعر يمارس عملية الهذيان؛ فالجملة الأولى نفي والجملة الثانية إثبات.

((وفي رحم الليل)) ماذا سيكون في رحم الليل؟ أنين أو حنين أو اقتحام أو فتك أو إرسال صواريخ مدمرة.؟!

((خبأت حرفاً)) ولو كان الترابط والسياق صحيحاً مع الجملة السابقة أو اللاحقة لقلنا إن هذا شطر طفولي، كالطفل الذي يخبئ شيئاً؛ فالحرف لا يحتاج إلى ليل لكن الأمر يحتاج إلى قراءات متعددة تكون في ريب من العبارة ومن دلالتها.

((مساحته)) ما مساحة الحرف، وهل هي وعاء لدلالة كبرى وفضاء مضموني؟

((أن تفقد ظلك)) حين الموت أو حين النوم، أم هو الصدى الذي تتمناه لك عند الآخرين على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة؟

والنتيجة أن كل سطر يحتاج إلى صفحات لتسرد فيه ما يستدعيه الخاطر، وما يخطر في بالك، ولكن بلا قرار ولا برهان ولا جزم ولا تأكيد.

وأنت ترى أن اللمحات التي كتبناها أمام كل سطر كثيرة، ولو تنبعث القصيدة ذاتها لكتبت عنها أكثر من الديوان، ورما تملأ نفسي غيضاً أو قيحاً مشاركاً نزيف الشاعر من كلومه المتفجرة.

وأغلب النقاد يرى أن موجات الفكر هي التي تهز بحر الأحاسيس بمقدار هيجان الفكر، فتنبعث التيارات الشعورية قوية أو فاترة.

وشعر "غرامه العمري" متدفق من اندفاع فكر، لكن هل هو فكر ذاتي ومعاناة شخصية فحسب؟ أم هو تمازج بين الذات وبين المجتمع؟.. أكبر الظن عندي أن الشاعر غرامه هو أنموذج لترسبات فكرية مزجها ونسجها بقدرة الموهبة الشعرية وتنميتها وتواصلها مع التكوين الثقافي لاسيما الإبداعي والنقدي، مع استلهام روح العصر؛ فصيرته وكونته وصقلته كما صقلت غيره من الشرائح الوطنية في بلادنا خاصة. يقول من قصيدة مطولة هي "ثلاثون جرحاً":

أقلب في دفتري كي أنام
وأمشي وحيداً..
بين اغترابي وهم القصيدة
تسلمت ركناً قصياً..
ومشينا من التباريح
سجلها الراحلون على وجعي
خروج جديد..

من القبو للموت
يعلن ميلاد رسم جديد[1]

الغموض له مراحل متفاوتة، وأفضلها الذي لا يستجيب بالقراءات الأولى، ولكنه يستجيب ولا يكون مستعصياً أبداً. هذا رأيي وإن خالف آراءً أخرى. وقصيدة (المنسي) قصيدة تلامس شعور أهل الإبداع وأهل الإنجاز الذين يتوارون في الهامش الإعلاني، يقطف غيرهم ثمار إبداعهم وإنجازهم؛ ولذلك فهم في معاناة دائماً لاسيما في بلادنا العربية، فلا تقدير لهم في مجتمعهم ولا في إعلامهم ولا في مؤسساتهم ولا يُعرفون إلا بعد وفاتهم:

على حدود الزمن المنسي
صوتي ضائع..
وخطوتي..
بين الدروب التائهة
ولحظة صاخبة تفر من يدي
تصوغ من صهيلها...
عقود خوف
للمدى الرحيب
يا سيدي..
بأبجديتي الملتهبة
وقفت عند بابك المطفأ ذابلاً
وكل نجم في مدارك الفسيح يختفي[2]

---

(1) ثلاثون حرجاً -- ص65
(2) ثلاثون حرجاً – ص20

وبنائية الشكلانية في إبداع (غرامه) تتكئ على شعر التفعيلة، وتقوم على تعداد المقاطع التي تمثل فصلاً كاملاً من البحث في المضامين؛ فهي مقاطع قصيرة لكنها حافلة بالأفكار، على استعداد لأن يتقبلها القارئ المتذوق.

وفي بعض قصائده يشير إلى تعداد المقاطع بالأرقام، وسطره قصير جداً مكون من كلمة أو كلمتين، وهو في أكثر قصائده يجذبنا بوضوح فيما يشبه المقدمة الأولى، لكنه سرعان ما يفاجئ القارئ بالاختفاء والاحتجاب.

ومصادر شعره ترسبات نفسية لكنها لم تعبر به إلى المذهب الوجداني الرومانسي، وإنما أخذت جانب العتمة الدائمة في تأويلاتها وفي تشكيلها اللغوي، ولو قلنا أنها تمثيل فردي للشاعر لأدركنا أن الفرد ذاته عالم كبير يمثل نموذجاً للإنسان عموماً.

كان لي وسم ورسم
كان لي دفتر أحزان قديم
كان لي باع طويل
كان يا ما كان
في منتصف الليل والنهار
يابس يمتد عبر النافذة[1]

والشاعر رغم حداثته الفنية لكنه متجذر في التراث؛ فأنت تلحظ استخدامه "كان" وهي فعل الماضي، واستخدامه التراث الشعبي "كان يا ما كان"، واستهلاله طريقة الحكي المعروفة في القصص العربية:

[1] المرجع السابق ص38

يحكى أن...
المكان غير المكان
والزمان غير الزمان[1]

وشاعرنا من أوائل الشعراء الذين غرقوا في الشكل الحديث للقصيدة، بل إن إبداعه لم يتجاوز إلى غيرها، الأمر الذي جعلنا نفتقد التمازج كثيراً بين شكلي القصيدة العمودي والسطري منها، وهو من أولئك الشعراء الذين ولجوا إلى ضفاف الغموض، بل إلى تفريع الدلالة، والتجاوز إلى المتباعدات من الغرائب أو غير المألوفة، التي تستمد غربة من حركة التجاور.

وأعود إلى النص الأول الذي استهللتُ به، فإذا هو قد طرأت عليه حلل جديدة لم تخطر في روح القارئ قبل قراءة السطر التالي:

وينسل..
من بيننا العشب
بين المغيب
وصوت الشفق
فكن باسطاً كفيك
لما سوف تأتي به الريح
إن الميادين..
لا تحتوي وجع الأرض [2]

---

(1) تفاصيل ما حدث – ص74

(2) تفاصيل ما حدث – ص39

وهذا التفكك في بناء الأبيات يصحبه تفكك في المضمون وأنت لا تقبض على معلم واضح ينظم القصيدة، بل إن القصيدة طويلة تمتد عبر صفحات متعددة حتى لكأني أشعر بالقارئ قد ملّ وأُنهك، فمثل هذا الفن يتوقف القارئ فيه عند حدود أسطر قليلة، ثم سرعان ما ينصرف عنه انصرافا، لذا فإن الطول في القصيدة الضبابية، الرمزية قتل لتوهجها، وإنزال لرصيدها عند القارئ.

ولم أستطع أن اكتشف دلالات القصيدة (الغليان) السابقة مع تعدد صفحاتها، ولكنه سرعان ما يضيء لنا الأمل في أحد المقاطع، فيحصرنا في أسطر قليلة عن معاناة الأمة العربية، التي تتجسد في الهم الفلسطيني.

خبأ الكبار.
معاً سنغنى..
إلى كل طير جريح
ونسكب من دمعنا..
ملامح أنشودة النصر
لكل
رماة الحجارة
فلا شيء نخسر..
بعد اغتراب الزمان
وفوضى المكان
فهيا معي..
وقولوا..
معاً سنغنى

وديوان "تفاصيل ما حدث" من المقطع المتوسط، وقد أطال القصيدة السطرية فيه مما جعل الأحاسيس تنحسر تحت وطأة التفكير غير المتواصل في مضامين القصيد ومدلولاتها. وفي رأي إن القصيدة بوجه عام عند الشاعر "غرامة" تحتاج إلى وقت حتى تكتمل ولادتها، ويتألق إشعاعاتها.

والقصيدة الحديثة آلة سوط على الإنسان العربي وعلى مجتمعه، وعلى دولته وأمته؛ تشتمل على مجالات أكثر رحابة، وأعمق فكراً، وقد كان الشاعر "غرامة العمري" نموذجاً للشاعر الحداثي المعاصر.

يقول في قصيدة (نافذة):

إلى متى..
ونحن غارقون.. غارقون
في وهن الأيام
واستمالة السنين

تلك أسئلة مثيرة مشحونة بالمضامين الساخرة المؤنبة للنفس الأبية المعتزة بنفسها، واقرأ معي كيف يسلط لسانه على الإنسان:

ملامح الوجوه صدئت
خلف نوافذ النسيان
والبيان صامت
وسهامنا ارتدت
إلى أعماقنا
فانتحر الليل المباح[1]

---

(1) تفاصيل ما حدث ص37

أما بعد...

فالشاعر (غرامه العمري) من أولئك الذين هم ثمرة التمازج الوطني المحبب إلى النفس الذي لم تعهده الجزيرة قبل حكم آل سعود بعد القرن الأول الهجري. فالشاعر الجنوبي الأصل شمالي الموطن والاستقرار أحب تبوك وأحبه أهلها، تفاعل مع منتدياتها العلمية والثقافية؛ فهو الموجه المشرف، وهو عضو النادي الأدبي بتبوك لما يقارب من عشر سنين. وكان من الأعضاء الفاعلين والمتفاعلين مع الحراك الثقافي، والذي اطلعتُ عليه من شعره يضمه ديوانان من الحجم الصغير ولا أخاله إلا قد أبدع الكثير ونحن في النادي على استعداد لطباعة هذا الإبداع الذي لم يظهر بعد.

محمد الثبيتي

"بيد أن ملامح الحداثة التي ألمسها شائعة في إبداع الثبيتي ليست من ذلك النوع الصادم مع الموروث، أو الرافض للمعتقد إنما هي حداثة تنهل من القديم، وتسعى في ركاب المعاصرة..."

الراحل محمد الثبيتي عصامي الثقافة، متنوع الفكر، مستلهم الكون الرحب، غائص في بحر الإنسان المتألم. حامل للمعاناة البشرية، بل هو يتوهم اللذعات البشرية كبائر. ويخوض غمار المكابدة الحياتية كإنسان يخوض غمار البحر الهائل المخيف ويصارع أمواجه ودهاليزه.

إن الثبيتي لم يلجأ إلى جمال الطبيعة ليتوحد معها، ويلوذ بجمالها، ويتلمس السكينة والأنس منها شأن الشعراء الرومانسيين، ولم يعانق في رؤاه الشعرية الإنسان المبتهج، كأنه لم يصادف ذلك الإنسان البكر الذي يحمل في قلبه طيبة وفطرة وقيماً إنسانية سامية، تلك القيم التي تعلق بها قلبه هو، وهفا وجدانه الحزين إليها، والثبيتي تعايش المكابدة الإنسانية في أجلى صورها، وحفرت في أعماقه تأثيراتها، وانغمست أحاسيسه في أعماق المآسي أو النقد الاجتماعي الذي تحول إلى موجات شعورية إبداعية تنبجس بدلالئلها اللغوية، يقول:

أزور عنك تنكراً وتجاهلاً	ورنا إليك ترفعاً وفضولا
يا موقد القنديل نبض فؤاده	احذر فؤادك واحذر القنديلا
فالكون يمٌّ زاخر يُنسى به	من شاد صرحاً أو أنار سبيلا [1]

[1] عاشقة الرمس - ص12

وهذه الرؤيا الشعرية القاتمة صحبته في مسيرة حياته الإبداعية، فكانت المنجم الذي يصفي شعره، وتنصهر في أتونه مشاعره المتوقدة، بيد أنها قد تبدو باهتة ومبتذلة لاسيما في المواقف الرسمية، فكأنه بتصرفاته يعلن للملأ قائلاً: أنا لا أبالي بكم.. مكانتكم وشخصياتكم فهو يخاطبهم بما تلونت به أحاسيسه الفطرية، دونما حاجة تدعوه إلى تنميق أشعاره، الأمر الذي صيره مهمشاً مع قدراته الشعرية الرائدة والرائعة.

وشعر الثبيتي يصور شرائح اجتماعية مثقفة تئن تحت وطأة التلاقح الفكري. وتنشد آمالاً جسام، تود لو أنها تتحقق على مستوى الأفراد والمجتمعات، والمؤسسات، وقد صاغ الشاعر تلك الآمال، وهذه التطلعات بأسلوب فلسفي رائق.

وشعر الثبيتي يتدرج من الوضوح في ديوانه (عاشقة الزمن الوردي)، وفي هذا الديوان تتجلى المباشرة والوضوح، يتوارى في طياتهما فكره الفلسفي وفلسفة تكوينه المعاصر. وهذا النهج الأسلوبي راقٍ جداً، ينبئ عن قدرة وموهبة شاعرية فذة، فتحويل المضامين الفلسفية إلى معان شائعة سهلة، وقريبة إلى الحد الذي يتمكن المتلقي من قراءتها على النحو الذي أراده الشاعر موهبة شعرية، لاشك فذة، وتشي بشاعر مبدع وقدير. استمع إليه حين يقول:

إذا نزفت جراح الحب يوماً	وفاضت بالدم القاني قلوب
وغامت في جوانحنا الأماني	ولا على مفاتنها شحوب
وقادتنا الحياة الى صراع	مع الآلام واختلفت دروب[1]

بيد أن ملامح الحداثة التي ألمسها شائعة في إبداع الثبيتي ليس من ذلك النوع الصادم مع الموروث، أو الرافض للمعتقد، إنما هي حداثة تنهل من القديم، وتنطلق في ركاب المعاصرة تحكي قضاياها، وتسرد همومها.

---

(1) عاشقة الزمن ص 7

من هنا انطلق الثبيتي ليفجر الفكر في تجربته الشعورية، فتارة ناقداً، وتارة مصادماً، وتارة يموج شعره مثل النسمات التي تعبر بلا حدود ولا سدود، وتارة تتشكل كل هذه الملامح في شعره فهو يجري كالماء، ولكن التركيبة المعرفية للماء توحي مكوناتها بالعمق، فشعره حداثي يولد الصدام والصراع، ومن ثم الاكتشاف للمكونات المتضادة، لكي يتولد الإبداع الداعي للتغيير... إنه يقول:

أجهشت باللحن اللذيذ

تشابكت...

والذي يُسجل لشعر الثبيتي هو توظيف الماضي لتفجير الحاضر، فهو غير رافض للماضي، وإنما يريد أن يكشف سلبياته ويسقطها على الحاضر المتوتر. وهو يجري في بناء لغته وتراكيبه ذات الطرائق في فكره، فهو غير رافض للغة، وغير محطم للتراكيب، وإنما يشحن اللفظة والتراكيب بدلالات جديدة، وكذلك يولد صوراً جديدة من خلال بناء السياقات، فشعره مشحون بالدلالة مع سلامة في اللغة والتراكيب، محافظ على مكون الجذرة الموضوعية للغة مع القدرة على التعبئة الدلالية المعاصرة.

وحين نبحر في ديوانه الآخر (تهجيتُ حرفاً) تطالعنا تلك النقلة الجمالية في شعره، حيث الصور وبناؤها الذي يفيض بالدلالات، وحيث الشحن اللفظي المتلاحم مع السياق، الذي يصور العمق الفكري المتنوع المتلاقح، وينبض بالمعاناة المتواترة. كأنما ديوانه أجنحة الشعر المحلق في الفضاء الإنساني الذي يضم الفكر والمعرفة والبرهان، ويتدفق بالإحساس، ويتلبس بالبيان، وتتجلى ملامح الإبداع في ذلك الديوان في تنوع الطرح الفكري، فهو تارة ذاتي، وتارة فلسفي تجريدي، وشعره يصور أحواله؛ لكنه لم يهدأ، فقد حاول الشاعر أن يمارس الهروب الرومانسي لعله يسلو ويأنس، فيقول (ص14 الأعمال الكاملة)

أصادق الشوارع

وظني أن قصيدته (موقف الرمال) مبدعة، ولو سماها موقف النخيل لكان أجمل وأقرب من مضمون القصيدة. ويبدو أنها سيرة ذاتية لفكر الشاعر وتسجيل لخواطره الذاتية ورؤاه في الحياة، بل مكانته في الحياة، فهو كالنخلة الباسقة المثمرة ليست في أوصافها الظاهرة المحسوسة، وإنما يلتقي مع النخلة في تكوينها وفلسفتها ومكانتها عند أهل الصحراء.

أنت والنخل فرعان
أنت افترعت بنات النوى
ورفعت النواقيس
هن اعترفن بسر النوى
وعرفن النواميس
فاكهة الفقراء
وفاكهة الشعراء

إن شعره يكشف عن العلاقة العضوية التي تربط ألوانا من الفكر بوصفه محركاً لموجات النفس، والذي يصطدم بالمحيط الاجتماعي المتنوع المصادم لفكر الشاعر والمتلاحم معه

سلام عليك فهذا دم الراحلين كتاب
من الوجد تتلوه
تلك مآثرهم في الرمال
وتلك مدافن أسرارهم حينما ذلّلتْ
لهم الأرض ما استبقوا أيهم يرد الماء
ما ابعد الماء

ما ابعد الماء

إن الشاعر يعيش ماض ثقيل، يماثله حاضر ثقيل، وهكذا تتشكل الحيـاة المتـصورة في فكر الشاعر معالم حزينة قاسية في الماضي والحاضر.

هل نحن في كبد التيه نقضي النوافل

هل نحن نكتب تحت الثرى

مطراً وقوافل

يا كاهل الحي

طال النوى

الوطن زمانا ومكانا في ديوان مسلم فريح العطوي

الأستاذ مسلم فريج العطوي المولـود عـام 1370 هـ درس الإبتدائية والثانوية في تبوك، وكان متفوقاً في دراسته، مسالماً في حياته، منذ طفولته حتى شيخوخته. كنت أقتدي به في حبه للقراءة، وعكوفه على المجلات القديمة في مراحله التعليمية الأولى. ضمنا بيت للعزوبية في الرياض، وجمعتنا كلية واحدة هي كلية اللغة العربية. ولتفوقه اختارته المعاهد ليكون مدرساً في معهد الرياض العلمي، ثم التحق بالدراسات العليا، لكنه لم يلبث أن عاد إلى تبوك ليكون إلى جوار والده. مارس التدريس في المعهد العلمي حين كنت مديرا له، وبزغ نجمه في الشعر أمام الأمراء في احتفال أقامه المعهد العلمي، وكانت أولى قصائده في محفل كبير حضره الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز أمير منطقة تبوك، وقد أعجبتني صراحته في القصيدة التي ألقاها وقتئذ، فقد ضمنها جملة من المطالب الشعبية والأمنيات الوطنية، يقول في موضع منها:

من للمشاكل حين يصعب حلها	من للمظالم بالعدالة تدحرُ
من للجياع تقطعت أحشاؤهم	من للعراة -إذا استغاثوا- يستر
من للأرامل من يكفكف دمعها	من للهدى، من للسماحة ينشر
من للصحاري كي يؤمن دربها	من في الثرى وجه الطغاة يُعفِّر
من للسيوف يهزها، من للقنا	من للمدافع، والقنابل تُمطر
غيرُ الميامين الأشاوس فضلهم	في كل يوم للرعية يكثر[1]

(1) وطني عشقتك ديوان الشاعر من إصدارات النادي الأدبي بتبوك - ص21

وقبل أن يطرح هذه القضايا الإنسانية الضرورية كان قد أشار في قصيدته إلى قضية إصلاح مدينة تبوك، وقد مكثتْ ردحاً من الزمن تعاني من سوء إدارة البلديات، وقصر نظر المسؤولين، يقول بن فريج العطوي:

أين الميادين الفسيحة عندنا ... أين النوافير العظيمة تهدر
أين الشوارع وسُعت أركانها ... من كل غرس في الرصيف تشجَّر
أين المصانع يكفهر دخانها ... أين الحدائق والحزام الأخضر
أين المشافي بالنظافة تعتني ... في ساحها يشفي العليل الساهر [1]

والشاعر مسلم بن فريج العطوي شأنه شأن المثقفين المعتدلين، الذين يرغبون التطور وينشدون النهضة في الوطن العربي والإسلامي، فقد تحدث في شعره عن الأحداث الإسلامية والعربية الكبرى؛ فقد تحدث عن فلسطين، وعايش معاناة الشعب الفلسطيني، وآلمته مشاهد القتل والتدمير للمدن والمباني والمساجد، فطفق يتحدث عن جهاد الشعب المناضل، وثورة الحجارة، وقادة الجهاد، وانتفاضة الأطفال، يقول الشاعر بن فريج العطوي في رثاء الشيخ أحمد ياسين رمز المقاومة الفلسطينية:

سالت دماؤك فوق التراب خالطها ... أشلاء جسمك في البيداء أوصالا
لم يرحموا فيك شيخاً مقعداً هرما ... مرّ الثمانين أبقى منه أطلالا
تكالب الكفر والأعداء في بطر ... فجرعوا أمة الإسلام إذلالا
جاست دمارا خلال الدار آلتهم ... قتلاً فسالت دماء الطهر شلالا
يا أمتي أمة الإسلام عزتنا ... في وحدة الصف افعالا واقوالا
وللبغاة أعدوا كل قاصمة ... في مركب العلم الوانا وأشكالا
واستلهموا الصبر علّ الله يفرجها ... ويورق الصبر بعد الضيق آمالا

---

(1) المرجع السابق – ص20

صـدق العزيمـة والإيمـان يـشعلها   عنـد اللقـاء علـى الأعـداء إشـعالا
رُبّـاه هـذي جمـوع الكفـر جامحـة   فاخلف لنا من صلاح الـدين أمثالا[1]

والشاعر بن فريج العطوي يقف عند المكان في شعره، فأنـت تـرى ذلـك واضـحاً في ثنايا أحاديثه عن ربوع الجزيرة، ومعالمها، وآثارها المقدسـة، ومـدنها الحديثـة، مثـل الريـاض، وتبوك، وأبها، والطائف، وغيرها.

كما يقف الشاعر في شعره على المعالم الطبيعية بما تحوي مـن جبـال شـاهقة، وأوديـة سحيقة، وأشجار مورقة ذات عبق فواح.

وهو ابن جبل اللوز، ذلك الجبل المشهور بضخامته، وامتداد سلسلته، وإطلالـه علـى البحر الأحمر، وهو مأوى لأنـواع الوحـوش، ومركـز للحيـاة الرعويـة، وفي تلاعـه كـثير مـن الواحات الزراعية.

ولقد هيأ لي القدر صحبته في رحـلات متعـددة، كـان فيهـا حـسن المعـشر، خفيـف الظل، لم أسلم من لسانه !.. ولم يكن يحمـل سـلاحاً فقـد كـان مـن القـائمين علـى حراسـة الأمتعة، وإعداد الأطعمة، ولقد وصف إحدى رحلاته في جبل اللوز.

ثـوافى الـصحبُ، شـاقتنا المـسيره   إلى المِقنـاص في عـز الظهـيره
وفـى أعلـى جبـال اللـوز بِتنـا   بليـل يـصطلينا زمهريـره
صـقيع الـبرد في الأثـواب يـسري   ظننـا فوقنـا سُـحباً مطـيره
ولا مـن نجـدةٍ في رأس طـود   أصـابتنا لهـولِ الأمـر حـيره
تمنينـا لـو الأثـوابَ صـوفاً   تمنينـا بـساطاً أو حـصيره
تقرفـصنا بـضيق بـين صـخر   وجـرف تحتنـا عـالٍ شـفيره
ومـا ذقنـا علـى الإطـلاق نومـا   نبحلـق في النجـوم المـستديره

---
[1] ديوان (وطني عشقتك) – ص 11

عجبنـا يـا تـرى في الليـل طـول	أم الأفـلاك شُـدّت في ظفـيره
مـع الإصبـاح سـرنا في رضـام	تعبنـا مـن مماشـيها العـسيرة
وعـدنا تلتـوي الأقـدام هلكـى	كـأن الـساق مـن عظـم كـسيره
ونـادي قائـد الأقـوام هيـا	إلى وادٍ دفيءٍ ذي حظـيره
وهـاتوا التـيس ذا القـرنين يثغـي	فنفـسي في المُريقـة والـصهيره
ونمنـا في هنـاءٍ كـل منـا	يجـر اللحـن مـن عـالي شـخيره
إذا مـا طبطـب الجمـري قمنـا	إلى الهيجـاء مـن دون الـذخيره[1]

والشاعر مسلم بن فريج العطوي شاعر المنطقة في زمنه بلا منازع، فهو حاضر في كل المحافل، وقد ألقى قصيدة أمام الملك خالد بن عبد العزيز عند زيارته لتبوك، وكذلك كان شاعر الحفل أمام الملك فهد في إستاد الرياض في تبوك، وكثيراً ما وقف منشداً أمام الأمير سلطان بن عبد العزيز أيام كان وزيراً للدفاع يزور تبوك كل عام، ثم أضحى ولياً للعهد.

وقد عايش الشاعر الذي سكن خيام الشعر، وبيوت الطين، والمباني الحديثة، وامتطى الحمار، والجمل، والسيارات الفارهة مراحل تطور المملكة، لاسيما منطقة تبوك، وقد كان لذلك كله صداه في ديوان شعره.

وهو رجل يتسم بالهدوء، غير اندفاعي، لا يقول الشعر إلا بدعوة جازمة ذات إصرار، وهو أشبه بأحمد الغزاوي؛ فجلّ شعرهما المعلن في المناسبات، فيما تتوارى أشعارهما في الأغراض الأخرى حبيسة السطور والأوراق المهملة.

ويتمتع الشاعر مسلم بقدرته على الإبداع في الوجدانيات، فهو شاعر غزلي، يموج شعره بالنزعات النفسية والحسية، يقول الشاعر في قصيدة عنوانها (ذكرى):

---

(1) ديوان (وطني عشقتك) – ص152

مـــا نـــسيت الحـــب يومـــاً أبـــداً	في صـــــفاءِ مـــــشرقٍ أو كـــــدرِ
كيـــف مـــاج الـــدهر صـــداً بيننـــا	في جفـــــاء مرعـــــب للفكـــــر

والقصيدة رقيقة عذبة، تمثل حياة الشباب عندما كـان الـشاعر بـدوياً دارسـا لم يـزل، يتلقى تعليمه، ثم يرتحل إلى ربوع البادية، والواحات الريفية. والشاعر المبـدع كـان مدرسـاً في المعهد العلمي بتبوك.

قائمة المراجع

1. إبراهيم خليل علاف – الديوان – الطبعة الأولى – 1409هـ 1989م
2. إبراهيم محمد سراج خراز – غناء وشجن – المكتبة الصغيرة رقم 22 – الطبعة الأولى 1397هـ 1977م – مطابع اليمامة بالرياض
3. إبراهيم الدمغ – أسرار وأسوار – نشر مركز صالح الثقافي – عنيزة – 1426هـ
4. ابراهيم السبيل –نقش على صفحة المجتمع –الطبعة الاولى-العبيكان-1417ه
5. أسامة عبد الرحمن – شمعة ظمأ – الطبعة الأولى – 1403هـ 1983م – جدة – تهامة
6. الحداثة في النقد الأدبي المعاصر – الدكتور عبد المجيد زراقط
7. الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها – الدكتور محمد حمود 3-3- الرمزية في الأدب العربي – الدكتور درويش الجندي
8. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه – اليزابيث درو – ترجمة محمد الشوش
9. العصر الجاهلي – شوقي ضيف
10. النقد المنهجي عند العرب – د. محمد مندور
11. المنهل – جمادى الأولى – 1389هـ - ص708 – مج 30
12. حداثة النص الشعري في المملكة العربية السعوية – الدكتور عبد الله أحمد الفيفي
13. حسين عرب – المجموعة الكاملة
14. حمزة شحاتة – ديوان حمزة شحاتة – الطبعة الأولى – دار الأصبهاني للطباعة – جدة – 1393هـ
15. ديوان قبضة من أثر جميل – الشاعر سليمان المطلق
16. ديوان عواطف إنسانية – الشاعرة مريم البغداي
17. ديوان على مشارف القلب – الشاعرة سلطانة السديري

18. ديوان الخوف – الشاعر عبد الله باشراحيل
19. منهج البحث في تاريخ الآداب – لانسون
20. ديوان بعد أن تسكن الريح – الشاعر سعد الغامدي
21. ديوان بشائر من أكناف الأقصى – الشاعر سعد الغامدي
22. ديوان إلى العرين شامخاً – الشاعر سعد الغامدي
23. ديوان شطآن ظامئة – الشاعر سعد الغامدي
24. طوق الحمامة – ابن حزم
25. ديوان صدى الأشجان – الشاعر حسن الزهراني
26. ديوان أوصاب السحاب – الشاعر حسن الزهراني
27. ديوان صوت مكسور – الشاعرة الجوهرة الحمد
28. ديوان إبحار بلا ماء- الشاعر عبد الله بن إدريس
29. ديوان زورقي – الشاعر عبد الله بن إدريس
30. ديوان في زورقي – الشاعر عبد الله بن إدريس
31. ديوان أأرحل قبلك أم ترحلين؟ - الشاعر عبد الله بن إدريس
32. شعراء نجد المعاصرون – عبد الله بن إدريس
33. ديوان ثلاثون جرحاً – الشاعر غرامة
34. ديوان تفاصيل ما حدث – الشاعر غرامة
35. ديوان عاشقة الزمن – الشاعر محمد الثبيتي
36. ديوان وطني عشقتك – الشاعر مسلم فريح العطوي
37. ديوان مسارات في ذاكرة السراب – الشاعر علي آدم
38. ديوان دويّ على قبر مارية – الشاعر علي آدم
39. ديوان الريح والرماد – الشاعرة رقية ناظر
40. سعيد عبد المقصود، عبد الله بلخير – وحي الصحراء

41. سلمان الفيفي – مرافئ الحب – تحقيق عبد الله الفيفي – نشر نادي جازان الأدبي – الطبعة الأولى – 1428هـ 2007م
42. عبد الله عبد الجبار – المجموعة الكاملة – الطبعة الأولى – مطابع المحمودية
43. عبد الله بن خميس – على ربى اليمامة – الطبعة الثانية – 1403هـ 1983م
44. عبدالله بن صالح عبد الله – تاريخ التعليم في مكة المكرمة – دار الفكر – الطبعة الأولى – 1392هـ 1973م
45. عبد الله الجشي – الأعمال الشعرية الكاملة – نشر عبد المقصود خوجة
46. عبد الرحمن السويداء – أشجان – الطبعة الأولى – دار ثقيف للنشر والتأليف – 1978م
47. عبد الله حمد الشبانة – الزفرات الحرى – دار اللواء – الطبعة الأولى – 1408هـ 1987م
48. عمر عبد الجبار – تاريخ التعليم في مكة المكرمة
49. علي بن حسين الفيفي – رحلة العمر – الطبعة الأولى – 1397هـ - نادي الطائف الأدبي
50. فائدة الشعر وفائدة النقد- ت.س.اليوت – ترجمة الدكتور. يوسف نور عوض
51. فاطمة القرني – مطر – نشر النادي الأبي بالرياض – 1430هـ 2009م
52. فاطمة القرني – ديوان احتفال – نشر نادي تبوك الأدبي عام 1430هـ
53. فهد النفجان – نداء حبي – الطبعة الأولى – 1416هـ 1996م – مؤسسة الجزيرة الثقافية
54. مجلة إبداع – أبريل 1985م
55. مجلة العربي الكويتية – العدد 529 – ديسمبر 2002م
56. مجلة بيادر – العدد 44 – 1425ه
57. محمد حسن عواد – الديوان – الطبعة الأولى – 1398هـ 1978م

58. محمد جدع – المجموعة الشعرية الكاملة – دار البلاد – نادي جدة الأدبي عام 1984م 1404هـ
59. مريم البغدادي – عواطف إنسانية – تهامة – جدة – الطبعة الأولى
60. مصطفى زقزوق – مرابع الأنس – الطبعة الأولى – دار العلم للملايين
61. مفرج السيد – فيض الأحاسيس – دار ثقيف للنشر – الطبعة الثانية – 1414هـ 1994م
62. محمد المسيطير – ديوان ليالي العمر – الطبعة الأولى 1429هـ 2008م – مطابع الرسالة
63. موسى العبيدان – تباريح وجد – الطبعة الأولى – 1430هـ 2009م
64. نظرية الأدب – رينيه وليك، آوستن وآرن – ترجمة الدكتور. عادل سلامة
65. نقد الشعر – قدامة بن جعفر

المؤلفات والبحوث

1- أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية.
2- تبوك قديما وحديثا.
3- المقطعات الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام.
4- الرمز في الشعر السعودي.
5- الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية.
6- الاتجاهات الفنية للشعر إبان الحروب الصليبية.
7- الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية.
8- الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية.
9- الغموض في الشعر العربي.
10- العاشق العفيف عروة بن حزام.
11- البنات في شعر الآباء.
12- العتابي حياته وأدبه.
13- الاتجاه الفكري في شعر الخليج العربي الحديث.
14- الفكر والشكل في الشعر السعودي.
15- تبوك المعاصرة والآثار حولها.
16- بناء الفكر.
17- بناء الفكر التربوي.
18- بناء الفكر الإداري.

19- الأدب العربي الحديث.

20- عدد من الأبحاث المنشورة في المجلات المحكمة.

21- عدد كبير من المقالات.

22- التحول (سيرة ذاتية).

23- النقد في أحضان الجامعات.

24- وطنيات.الواقع والامل

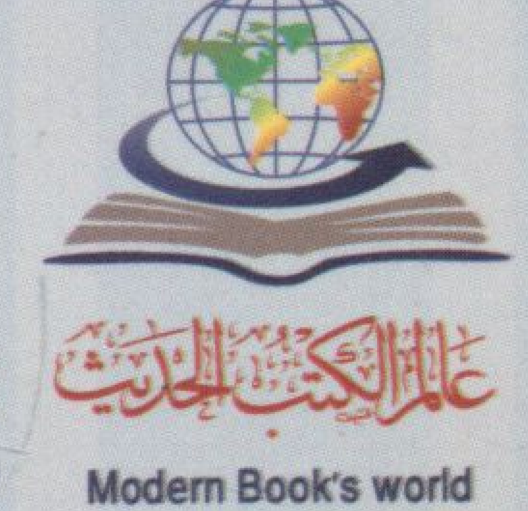
TA'AMOLAT FESHAA'ER ALMOA'ASER

المؤلفات والبحوث

1 - أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية.
2 - تبوك قديما وحديثا.
3 - المقطعات الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام.
4 - الرمز في الشعر السعودي.
5 - الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية.
6 - الاتجاهات الفنية للشعر إبان الحروب الصليبية.
7 - الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية.
8 - الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية.
9 - الغموض في الشعر العربي.
10 - العاشق العفيف عروة بن حزام.
11 - البنات في شعر الآباء.
12 - العتابي حياته وأدبه.
13 - الاتجاه الفكري في شعر الخليج العربي الحديث.
14 - الفكر والشكل في الشعر السعودي.
15 - تبوك المعاصرة والآثار حولها.
16 - بناء الفكر.
17 - بناء الفكر التربوي.
18 - بناء الفكر الإداري.
19 - الأدب العربي الحديث.
20 - عدد من الأبحاث المنشورة في المجلات المحكمة.
21 - عدد كبير من المقالات.
22 - التحول (سيرة ذاتية).
23 - النقد في أحضان الجامعات.
24 - وطنيات الواقع والامل
25 - السرد فكراً وبناءً







عالم الكتب الحديث
Modern Book's world
للنشر والتوزيع

الأردن - اربد - شارع الجامعة
تلفون: ٧٢٧٢٢٧٢ ٢ ٠٩٦٢+ / فاكس: ٠٧٢٦٩٩٠٩ ٢ ٠٩٦٢+
الرمز البريدي: (٢١١١٠) / صندوق البريد: (٣٤٦٩)
almalktob@yahoo-com
www.almalkotob.com